الترابُط الموضوعي

في سُورِ القرآن الكريم

(من سورة الفاتحَة إلى سورة التوبة)

الطبعة الأولى
1446 هـ / 2025 م

اسم الكتـــاب: التَّرابُط الموضوعي في سُورِ القرآنِ الكريم
تـــأليـــــف: د. هاني درغام
موضوع الكتاب: دراسات قرآنية
عدد الصفحات: 320 صفحة
عدد المـــلازم: 20 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17 x 24
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 5148 / 2025
الترقيم الدولي: 4 - 38 - 8796 - 977 - 978 ISBN:

التوزيع والنشر
دار البشير للثقافة والعلوم
القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر
دار البشير للثقافة والعلوم
©copyrights

كِتابٌ أُحْكِمتْ آيَاتُهُ (1)

الترابُط الموضوعي

في سُورِ القرآن الكريم

(من سورة الفاتحة إلى سورة التوبة)

د. هاني درغام

دار البشير للثقافة والعلوم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا قيمًا.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نور بكتابه القلوب، وأنزله في أوجز لفظ وأعجز أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء، وأبكمت فصاحته الخطباء...

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى، ونبيه المرتضى، الظاهر بفضله على ذوي الفضل، معلم الحكمة، وهادى الأمة، أرسله سبحانه وتعالى بالنور الساطع والضياء اللامع صلى الله عليه وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار..

أما بعد..

(فالقرآن الكريم سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه، وبحر لا يدرك غوره، بهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول.. فقد أحكم الحكيم - سبحانه - صيغته ومبناه، فهو مع تناسب ألفاظه، وتناسق أغراضه، قلادة ذات اتساق.. بهر العقول بتمكن فواصله، وحسن ارتباط أواخره وأوائله، وعجيب انتقالاته من قصص باهرة، إلى مواعظ زاجرة، وأمثال سائرة، ومواقع تعجب واعتبار، ومواطن تنزيه واستغفار.. الخ).

والناظر في القرآن الكريم يجده - أحيانًا - يذكر طرفا من الشئ ثم يتركه، ثم يعود إلى إتمامه بطريقة لا تسأم النفوس هديه، ولا تستثقل حديثه، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها، فتجد الآية متسقة في كلماتها، متآزرة مع أخواتها من الآي)[1]، فكان بذلك معجزًا بنظمه، بديعًا في اتساقه، متناسبًا في آياته، وسوره، وأجزائه.

و (من خلال الوقوف على الارتباط الوثيق بين محاور السّورة يبرز بديع النّظم ودقّة السّبك؛ ومن ثمّ إعجاز القرآن الكريم بصورةٍ لا يجادل فيها إلا جاهل أو معاند.

(1) بحث علم المناسبات القرآنية دراسة نظرية ونماذج تطبيقية - د. محمد عبد الغني سلامة.

حيث يظهر من خلال ذلك جوانب متعدّدة من الإعجاز القرآني، فكما أن القرآن العظيم معجز في فصاحة ألفاظه، ومعجز من جهة ترتيبه ونظم آياته، فهو معجز كذلك في شرف معانيه وتناسق موضوعاته، من جهة اتساق النظم في عقدٍ واحد في جملة الآيات، ومعجز كذلك في التناسق البديع في مقاطع السورة ومحاورها كتناسق مجموعة العقود في جيدٍ واحد)[1].

وفكرة هذا الكتاب لاحت في ذهني قبل بضع سنوات، عندما اطلعت على التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب رحمه الله، واكتشفت اهتمامه بالترابط والتناسب بين مقاطع الآيات في كثير من المواضع، فجمعت كل ما كتبه في هذا الباب في ملف يتجاوز 300 صفحة، ثم ظل هذا الملف حبيس الأدراج لبضع سنوات. ثم شاءت إرادة الله عز وجل أن أعود إليه بعد فترة طويلة للاطلاع عليه، فلمعت في عقلي فكرة تنفيذ (مشروع الترابط الموضوعي في سور القرآن)، وأعني بالترابط الموضوعي: (انتظام الموضوعات الواردة في السورة وتسلسلها، ومعرفة أوجه وعلل الترابط والتلاحم بينها، بحيث يكون كل موضوع آخذًا بعنق الآخر، في ترابط وتلاحم لا يخرج منه شيء خارج السياق)[2] أو بعبارة أخرى: (تتابع وترابط وتآلف آيات السورة وموضوعاتها فيما بينها في غاية الجمال والحسن والإبداع، حتى تكون السورة كالآية الواحدة).

(ولا شك أن هذا العلم دقيق المسالك خفي المدارك، وهو من العلوم التي تحتاج إلى بذل الجهد في التتبع والاستقصاء اللغوي لدلالات الألفاظ القرآنية، والإحاطة بأسباب النزول، والتوسع في أفانين علم البلاغة والأساليب البيانية، وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا حس مرهف ونفس شفافة وذكاء لماح ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها، وقد أكدت الأخبار الصحيحة عن المعصوم أن الفاصل الزمني بينها يتجاوز السنوات العديدة أحيانًا.

---

(1) التناسق الموضوعي في سورة الفتح ص7 – إبراهيم بن محمد مليسي.
(2) التناسق الموضوعي في سورة الأنفال ص 30 – بدر إبراهيم الذيابي.

وعلى الباحث أن يبذل قصارى جهده للتعرف على وجه المناسبة بين الآيات، فإن ظهر له شيء من ذلك فذلك نعمة من الله تعالى وفضل عليه، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله تعالى، وإن خفي عليه وجه المناسبة فعليه أن يمسك ولا يتكلف، وينسب علم ما خفي عليه إلى منزل الكتاب الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل، ولا يدرك أسرار كتاب الله كلها أحد من البشر ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ [الفرقان: 6][1].

وقد اعتمدت بصفة رئيسية - في بداية المشروع وأصله- على التفسير القرآني للقرآن، والتيسير في أحاديث التفسير للشيخ محمد المكي الناصري، ثم توالت المصادر المتنوعة بعد ذلك كالغيث المنهمر؛ فعدت إلى تفاسير أخرى متنوعة، وكتب كثيرة اهتمت بالتفسير الموضوعي لبعض سور القرآن المنفردة، وبدأت رحلة الجمع والترتيب، والتهذيب والتنسيق، والحذف والإضافة.

وقد قسمت القرآن الكريم إلى ثلاثة أجزاء:

العشر الأول: (الفاتحة - التوبة): وهو يتناول مقومات بناء (الأمة المسلمة) في حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية، وأسس تماسكها وسبل تحصينها من أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج.

- **العشر الثاني:** (يونس - العنكبوت): وهو يتناول قيمًا إيمانية وسننًا ربانية تحصن (المجتمع المسلم) من فتن الباطل، وتقوده للثبات على دعوة الحق.
- **العشر الثالث:** (الروم - الناس): وهو يتناول أسس التربية النفسية (للفرد المسلم)، ومعالم تزكيته، وسبل الارتقاء إلى المثل العليا والأخلاق الفاضلة.

(1) من بحث: تَرْتِيبُ الآيَاتِ الْكَرِيمَةِ فِي السُّوَرِ وَحُكْمُهُ - د. حسين عبد الحميد البر..
وللمزيد من الكتب والبحوث التي تتعلق بتأصيل قضية الترابط الموضوعي، أنصح بقراءة: (التناسق الموضوعي في السورة القرآنية - د. محمد بن عمر بازمول) - (النبأ العظيم - د. محمد عبد الله دراز)

وقد صدر بفضل الله قبل عام تقريبًا (العشر الثاني) من القرآن الكريم.

على أن يصدر قريبًا بإذن الله (العشر الأخير) من القرآن الكريم لتكتمل هذه السلسلة المباركة.

عملي في هذا الكتاب:

1 - الحديث عن موضوع السورة بإيجاز يقتضيه المقام.

2 - بيان علاقة السورة بما قبلها.

3 - تقسيم السورة الواحدة إلى عدة مقاطع مع وضع عنوان لكل مقطع، ثم الحديث عن علاقة كل مقطع بما قبله، دون إهمال التناسب بين آيات المقطع الواحد.

وإني أتوجه- في ختام هذه المقدمة - بالشكر والتقدير للدكتورة سمر الأرناؤوط لمراجعتها للكتاب، وما قدمته من إضافات قيمة وملاحظات سديدة وتوجيهات لطيفة؛ فجزاها الله خير الجزاء ونفع بعلمها.

أسأل الله ﷻ أن يتقبل مني هذا الكتاب، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يمدني بالهمة العالية والعزيمة الفتية لاستكمال باقي سور القرآن الكريم.

هذا وأسأل الله الهداية والتوفيق، وأن يجعلني من خدمة كتابه إنه سميع مجيب.

أهمية دراسة الترابط الموضوعي للسورة القرآنية:

1 - (إنّ الوقوف على التّناسق الموضوعيّ في آيات السّورة يبرز اللّحمة المتينة والبناء المحكم بين أجزاء القرآن الكريم. ومن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض.

2 - إنّ معرفة التناسق لآيات السّورة يساعد على فهم المعنى العام للآيات بما لا يقلّ أهمية عن معرفة أسباب النّزول.

3 - من خلال الوقوف على الارتباط الوثيق بين محاور السّورة يبرز بديع النّظم ودقّة السّبك؛ ومن ثمّ إعجاز القرآن الكريم بصورةٍ لا يجادل فيها إلا جاهل أو معاند.

حيث يظهر من خلال ذلك جوانب متعدّدة من الإعجاز القرآني فكما أن القرآن العظيم معجز في فصاحة ألفاظه، ومعجز من جهة ترتيبه ونظم آياته، فهو معجز كذلك في شرف معانيه وتناسق موضوعاته؛ من جهة اتساق النظم في عقدٍ واحد في جملة الآيات، ومعجز كذلك في التناسق البديع في مقاطع السورة ومحاورها كتناسق مجموعة العقود في جيدٍ واحد.

4 - إن دراسة النسق القرآني في السور من أعظم الوسائل للوصول إلى هداية القرآن الكريم في شتى المجالات التي يحتاج إليها المسلم، وذلك من خلال إدراك ترابط أجزاء السورة بعضها ببعض، ويبين تكاملها من كل وجه، ويبرز تقارب موضوعاتها، ويظهر مقاصد السورة وأهدافها، وهذه النتائج تثمر بدورها للوصول إلى الهداية القرآنية.

5 - في تقرير التناسق الموضوعي في السورة ردٌّ على المستشرقين ومن تأثر بهم ممن يدَّعون تشتت الموضوعات وتفرقها في السورة الواحدة[1].

* * *

(1) التناسق الموضوعي في سورة الفتح ص6 - 8 بتصرف - إبراهيم بن محمد مليسي.

موضوعات سور العشر الأول

(الفاتحة – التوبة)

تمهيد

إن المتأمل في سور العشر الأول يجد أنها تنتمي إلى (القرآن المدني) باستثناء سور:

(الفاتحة – الأنعام – الأعراف)

و (لئن كان أسلوب القرآن (المكي) قد تميز بقصر الآيات والسور، وقوة التعبير والتناغم الموسيقي، وكثرة الفواصل القرآنية وقصرها، وتنوعها بما يتناسب مع المعاني والمواقف والصور، فإن أسلوب القرآن (المدني) قد تميز بالجمل الطوال الهادئة الحركة، والتي تسلك سبيل الهدوء، واللين في أسلوبها، واسترسال فواصلها.

وقد جاءت سور القرآن (المدني) مفصلة لأصول الشريعة الإسلامية وتفاصيل الأحكام العملية التي تنظم شؤون الحياة، في (العبادات) كأحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج، و(المعاملات) كالبيوع والأموال، و(الاجتماعيات) كالنكاح والطلاق والرضاع، و(العقوبات) كالحدود والقصاص، والأحكام الخاصة بـ(العلاقات الدولية) بين الدول كالأحكام المتعلقة بالحرب، والسلم والصلح، والمعاهدات، والغنائم والأسرى.

كما بينت أسس التعامل مع الفئات المختلفة، حيث دعت أهل الكتاب- وهم اليهود والنصارى - إلى الإسلام، وأقامت الحجج عليهم التي تفضح ضلالهم وتلجم أفواههم، وأبرزت شدة عداوتهم للمؤمنين وحقدهم على الاسلام ونبيه ﷺ.

كما أنها وصفت المنافقين، وكشفت مسالكهم، وحذرت من أساليبهم الملتوية وألاعيبهم الخبيثة.

وبينت أحكام الجهاد والقتال في سبيل الله، تماشيًا مع طبيعة هذا الدين الذي جاء يحرر الناس من العبودية الزائفة للطواغيت.

وهكذا.. فالعهد المدني هو بداية تشكيل الدولة الإسلامية من الناحية الواقعية، ويومها بدأت حاجة المجتمع إلى النظم والتشريعات)[1].

والمتدبر لسور العشر الأول من القرآن الكريم يجد أنها تتناول مقومات بناء (الأمة المسلمة) في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية والحضارية، مبينة أسس تماسكها ووحدتها، وسبل تحصينها من أعدائها المتربصين بها في الداخل والخارج.

◄ **سورة الفاتحة** = بيان معالم المنهج الذي يقود أتباعه إلى الاستقامة على الهداية في الدنيا والفلاح في الآخرة. (المنهج الرباني في علاقة المخلوق بخالقه).

◄ **سورة البقرة** = الاستسلام التام لله تعالى والاستجابة لمنهجه بدون تلكؤ أو تحايل أو اعتراض في كافة شؤون الحياة أساس قوة البناء ورسوخه، (المنهج الرباني في تلقي الأحكام: السمع والطاعة عن علم وتقوى).

◄ **سورة آل عمران** = الثبات على المنهج الرباني والجهاد في سبيله (لإرساء كلمة التوحيد) باللسان (ميدان الدعوة) والسنان (ميدان القتال) لحماية الأمة من أعدائها المتربصين بها. (المنهج الرباني في الثبات على التوحيد: بالدعوة والجهاد).

◄ **سورة النساء** = العدل المطلق الذي لا يميل مع الأهواء ولا يتأرجح مع المصالح والشهوات هو أساس حفظ الحقوق الإنسانية وصيانتها (المنهج الرباني في الحقوق الإنسانية: عدل وأمانة).

◄ **سورة المائدة** = الوفاء بالمواثيق الإلهية والحذر من نقضها أو خيانتها من أهم أسس تحصين البناء الحضاري للأمة وتأكيد هويتها الإيمانية (المنهج الرباني في الواجبات والعهود: الوفاء).

---

(1) راجع (علوم القرآن الكريم ص 65 – 68، د. نور الدين عتر) ، (إتقان البرهان في علوم القرآن ج 1/ 377 – د. فضل حسن عباس)، (نفحات من علوم القرآن ص 54 – محمد أحمد معبد)، (بحوث منهجية في علوم القرآن ص –41 موسى إبراهيم الإبراهيمي).

◄ **سورة الأنعام** = التوحيد الخالص (عقيدةً وسلوكًا) من أجل تحصين الأمة المسلمة من الشبهات الفكرية والانحرافات السلوكية والخرافات الجاهلية. (المنهج الرباني في الدعوة إلى الله بالأدلة والبراهين والحجج الدامغة).

◄ **سورة الأعراف** = قراءة واعية للتاريخ البشري- من خلال تدبر قصص الأنبياء - للبحث عن سنن الله ﷻ في قيام الحضارات وسقوطها. (المنهج الرباني في قراءة تاريخ الأمم ومصيرها تذكرة وعبرة).

◄ **سورتا الأنفال والتوبة**: الولاء والبراء.. الولاء لقيم التقوى والإيمان في سورة (الأنفال)، والبراءة من الشرك والكفر والنفاق في سورة (التوبة)، وبيان أثر ذلك في تحقيق النصر والتمكين. (المنهج الرباني في مقومات النصر والتأييد ومعوقاته).

❋ ❋ ❋

سورة الفاتحة

موضوع السورة

معالم المنهج الرباني

يكاد يكون المحور الأبرز لسورة الفاتحة هو (ميثاق الهداية)، وقد أجملت فاتحة الكتاب ذلك من خلال:

1 - الهداية إلى (معرفة الله بجلاله وكماله):

من خلال ربوبيته لجميع المخلوقات ورحمته بهم في إيصال منافعهم المادية والمعنوية. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: 2 - 3].

2 - الهداية إلى (مصير العبد في الآخرة) بعد انتهاء رحلة الاختبار والابتلاء في الحياة الدنيا. ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4].

3 - الهداية إلى (وظيفة العبد التي خلق من أجلها)، وهي تحقيق العبودية الخالصة لله، والتي تحتاج إلى استعانة بالله وتوكل عليه لمواجهة عقبات الطريق وتحدياته. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5].

4 - الهداية إلى (الاستقامة على طريق العبودية) عبر الاقتداء بمن استقاموا على هذا الطريق من الأنبياء والصالحين ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6 - 7]، والتحذير ممن تنكبوا هذا الطريق وانحرفوا عنه وآثروا الغي والضلال. ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وما أجمل ما ذكره د. محمد عبد الله دراز رحمه الله، وهو يلخص محور السورة :

«خير ما تفتتح به الأعمال، وتستنجح به المقاصد، التوجه إلى الله العليِّ القدير، ثناء عليه بما هو أهله، واستعدادًا للمعونة من قوته، واستلهامًا للرشد من هدايته.. وتلك هي الخطوط البارزة في سورة الفاتحة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ ثناء على الله.. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ استعانة بالله.. ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ استرشاد بنور الله»[1].

- ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]

(هذا شعار إيماني حيوي، جعله الله تعالى عنوانًا لكتابه، وافتتاحًا لقرآنه، وشرع أن يردده المؤمن في ابتداء كل عمل هام يقوم به، يعلن بهذا الذكر استمداده من الله تعالى، وتقربه إليه، بالشيء أو الأمر الذي ذكر التسمية عليه، وأنه يفعل هذا الشيء مستعينًا بربه، ومن أجله أيضًا وتبركًا بذكره..

وحسبك من فضلها دلالتها على ذات الله تعالى بذكر اسمه عز وجل، وعلى صفاته التي يستلزمها لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وفي مقدمتها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(1) من روائع التفسير للإمام محمد عبد الله دراز ص 72 – الشيخ أحمد مصطفى فضلية.

(2) اتفق العلماء أن البسملة بعض آية من سورة النمل في قوله – تعالى – ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾، واختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو بعض آية من كل سورة، أو إنها آية من الفاتحة دون غيرها.

والراجح أنها آية من الفاتحة لثبوت ذلكَ عن النبي ﷺ. فقد أخرج الدارقطني والبيهقي والديلمي بسند صحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [إذا قرأتم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فاقرؤوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، و ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها] (حديث صحيح. أخرجه الدارقطني (118)، والبيهقي (2/ 45)، والديلمي (1/ 1/ 70)، وإسناده صحيح موقوفًا ومرفوعًا. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1183). (التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون ج 1/ 66-67)- د. مأمون حموش.

وهي تدل على التقرب إلى الله والاستعانة به، وذلك يدل على تحقق المؤمن بالعبودية لله تعالى وحده دون أحد سواه، والسير على شرعته، وذلك أعظم مقصود قصد له الأنبياء، ولُبُّ ما بُعِثَ له الرسل عليهم الصلاة والسلام)[1].

•• مقاطع السورة:

المقطع الأول: حمد الله وتمجيده والثناء عليه: (1 – 3)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

[الفاتحة: 2 – 4].

- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾:

بهذا الحمد للّه تنطق المخلوقات كلها فهو سبحانه الذي أوجدها من العدم وأعطاها خلقها بين المخلوقات وقام عليها مدبرًا وحافظًا، فحق عليها أن تحمده وتشكر له.

(فالحمد لله اعتراف العبد بلسانه عن إذعانه بقلبه بأن الثناء والشكر حق مستحق عليه لربه لما أسبغ عليه من نعمه الظاهرة والباطنة.

ورب العالمين هو مربي الخلق جميعهم ومدبر كل شئونهم، فهو مدبر (الأجسام) بإمدادها بأسباب الحياة والبقاء والرعاية والوقاية، وهو مدبر (العقول) بتعهدها بأسباب الهداية والتثقيف والرَّشَد والعلم، وهو مدبر (النفوس) بوسائل التهذيب والتكميل والتزكية، وهذه التربية العالمية الشاملة لا تكون الا عن علم محيط، وقدرة تامة، وإرادة مطلقة، وحكمة بالغة)[2].

(1) تفسير سورة الفاتحة ص43، –62 د. نور الدين عتر

(2) نور من القرآن والسنة ص–3 4 بتصرف – عبد الوهاب خلاف.

- ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾:

وفيها إشارة إلى أن تربية الله للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة، وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه.

(ولا ريب أن ذوي الفطرة السليمة إذا قرع مسامعهم قول الحق سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾، وتصوروا معناه؛ داخلت نفوسهم هيبة تَجِفُ (تضطرب) منها قلوبهم، وترتجف منها أوصالهم؛ لما يدركونه من عظمة الخالق - سبحانه -، الذي يخضع لجلاله كل كائن في الوجود، ويذل لكبريائه كل عزيز وعظيم، فلا عجب إذا تلا ذلك بوصف ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ لإضافة الطمأنينة على هذه القلوب الواجفة، وإنزال السكينة على هذه النفوس المضطربة، عندما تشعر بأن هذه الربوبية هي ربوبية رحمة وإحسان)[1].

- ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾:

من كمال هذا الإله العظيم أن يقرن (الرحمة بالعدل، ويذكّر بالحساب بعد الفضل)، فهو مع رحمته السابغة المتجدّدة سيدين عباده، ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19]، فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة، والترهيب بالعدالة والحساب.

وفيه إشارة أخرى لطيفة إلى (أن رحمته - سبحانه وتعالى - إذا كان من شأنها الدوام والاستمرار فهي تستوجب - ولا شك - أن تتبع هذه الحياة الفانية حياة باقية خالدة تستمر فيها رحمة الله لمن يستحقها ويرشح نفسه لها، وتظهر فيها - لمن يكون لها أهلًا- بمظهر أجمل وأكمل وأشمل)[2].

---

(1) جواهر التفسير ج 1/ 276 - الشيخ أحمد الخليلي.

(2) البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران ص 77 - د. محمد عناية الله أسد سبحاني.
وهذا ما يؤكده الحديث النبوي الشريف: «إِنَّ للهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ منها رَحْمَةً وَاحِدَةً بيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ علَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَومَ القِيَامَةِ». (صحيح مسلم 2752).

وفي تخصيص ملكيته ليوم الدين مع ملكه سبحانه للدنيا والآخرة فيه إشارة إلى (أنه تعالى المنفرد يومئذ بالملك، دون الملوك الجبابرة، الذين كانوا في الحياة الدنيا ينازعونه الملك والسلطان توهمًا واغترارًا، ويدافعونه العظمة والكبرياء عُتُوًّا واستكبارًا. فيوم الدين لا إمكان أبدًا لمثل هذا الغرور، ولا لمثل ذلك الاستكبار. فالخليقة كلها ملوكها ودهماؤها (أي عامة الناس)، طغاتها ومستضعفوها، كلهم جميعًا خاضعون اليوم لسلطانه، جاثون تحت أمره، في انتظار صدور حكمه، مجردون من كل حول وقوة، ومما ابتُلوا به في الحياة الدنيا من ملك ومالكية.

فها هم اليوم حفاة عراة فقراء أذلاء، بين يدي الله الملك الحق، المالك لكل حكم وفصل في هذا اليوم الرهيب!)(1).

المقطع الثاني: إفراده تعالى بالعبادة والاستعانة: (الآية: 5)

- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5].

هذه الآية هي واسطة العقد، ومفتاح الفاتحة، وهي آية جامعة مانعة تلخص قصة الخليقة الإنسانية كلها، من أولها إلى آخرها، وجودًا ووظيفةً وغايةً. (تلخّص حق الله على العالمين: «عبادته»، وحق العالمين على الله: أن يعينهم على عبادته).

فما علاقتها بما قبلها؟

(إذا كان الله تعالى وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه، وتعهده بالإمداد حتى بلغ مداه، وإذا كان هو الذي يملك خزائن الرحمة والنعمة في السماوات والأرض يضاعفها لمن يشاء، وإذا كان بيده فصل القضاء، وتقرير المصير، فأي شيء أحق منه بنعوت الجمال والجلال؟ بل أي شيء غيره سبحانه يستحق هذا الثناء والإجلال؟

(1) مجالس القرآن ج1 / 130 – د. فريد الأنصاري.

والنتيجة الطبيعيَّة لذلك أن يضمحلَّ في عينك كل ما ترى في الوجود من مظاهر زائفة، وظواهر زائلة، وأن تهتف في أعماقك متجهًا إلى ربك، وأن تعلن يقينًا وتمارس تكليفًا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾[1].

وعن سر اقتران العبادة بالاستعانة يقول د. بلال طلب:

(والعبادة لله تعالى دونها حواجز وعقبات لا بد من اقتحامها: دونها الهداية لها، ودونها التباطؤ والكسل الذي ينتاب الإنسان من وقت لآخر، دونها الهوى ومحبة النفس للمعصية، دونها ملل الإنسان الذي فُطر عليه، ولذا كان طلب الاستعانة من الله عليها قرينًا بإعلان العبودية لله وحده)[2].

وفي الانتقال من أسلوب (الغيبة) في الآيات الثلاث الأولى إلى أسلوب (الخطاب) في هذه الآية فيه إشارة إلى أن الثناء على الله ﷻ في الآيات الثلاث (بالرحمة الفائضة والربوبية الشاملة والقدرة المطلقة والحكمة العادلة)، واستشعار معانيها بالقلب يجعل النفس تنساق انسياقًا تلقائيًا إلى منتهى الخضوع لهذا الرب الجليل الموصوف بهذه الصفات: صفات العظمة التي لا تليق إلا به، وليس ثمة خضوع أبلغ من خضوع العابد، فناسب المقام أن يفرد الله تعالى هنا بالعبادة وبالاستعانة بصيغة الخطاب المشعرة بالحضور الجليل.

المقطع الثالث: التوجه إليه تعالى بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم: [الآيات 6-7]

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6 - 7].

---

(1) من روائع التفسير للإمام محمد عبد الله دراز ص 76 - 77 بتصرف.
(2) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم الفاتحة والبقرة ص 33.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكرت الآية السابقة (توحيد الله في العبادة والاستعانة)، جاءت الآيات التالية بتوجه العباد إلى ربهم للاستعانة بالله في أعظم ما يستعان عليه بالله، وهو الاسترشاد وطلب التوفيق إلى الحق والصواب في شؤون الدين والدنيا. ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾.

ولذلك يتضرع العبد طالبًا من الله أن يهديه الصراط المستقيم الذي ينسجم مع العقيدة التي التي أقرّ بها: العبادة لله والاستعانة به.

- ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

و(هذا الصراط المستقيم ليس غامضًا ولا مجهولًا، فإذا أردت أن تتبين معالمه ومناهجه وتفاصيله، وما يُبتلى العبد فيه، وسنن الله فيه مع عباده، فكل هذا تعرفه من سير الذين أنعم الله عليهم ممن سبقوك في هذه الطريق، وقد حكى الله لك في كتابه سير هؤلاء الذين أنعم عليهم، وما حدث لهم في هذا الصراط، وكيف كانت نهايتهم؟ وما حكم الله بينهم وبين أقوامهم ممن خالفوهم فيه؟

فالفاتحة باختصارها هذا تشوقك لأن تقرأ القرآن كله؛ لتعرف معالم هذا الصراط المستقيم، وكيف سار فيه الصالحون؟)(1).

- ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾:

والمغضوب عليهم هم (اليهود) الذين انحرفوا عن هدى التوراة، والضالون هم (النصارى) الذين لم يستمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح.

(وموجبات الغضب والضلال كلها أمراض معدية، لا أحد بمنأى عنها، ولو كان من المسلمين، اللهم إلا من عصمه الله بالتثبيت على هدى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ ووفقه إلى التزام منهاجه القويم. فلا غرو إذن أن يكون ذلك دعاءنا عند مناجاة الرحمن، في كل ركعة من كل صلاة، سائرين إليه عبر مواقيتها، متقلبين في أحوال

(1) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم الفاتحة والبقرة ص 36.

العبودية بين يديه تعالى، متقربين ومتزلفين، ما بين منازل الليل والنهار، ونحن نتوجه إليه بطلب نعمة الهدى، ونجار إليه بأصدق ما يكون الجأر والاستغاثة)[1].

وعن خلاصة هذا المقطع يخبرك د. محمد عبد الله دراز رحمه الله في بيان رائع:

«إن سورة الفاتحة حين حببت إلينا طريق الفضيلة بينت لنا أولًا قيمته الذاتية، فوصفته بالاعتدال والاستقامة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، ثم بينت ما في عاقبته من نفع وجدوى، فوصفته بأنه الطريق الموصل إلى رضوان الله ونعمته، وأشارت في الوقت نفسه إلى مُثُله التاريخية في سيرة أهله الذين نصبوا أنفسهم للقدوة الحسنة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..

ثم لم تكتف بذلك بل وضعت معيارًا لأنواع الطرق المنحرفة، فبينت أن الانحراف على ضربين: انحراف عن قصد وعلم، عنادًا واستكبارًا، واتباعًا للهوى، وهذا هو طريق ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذين رأوا سبيل الرشد فلم يتخذوه سبيلًا، ورأوا سبيل الغيّ فاتخذوه سبيلًا، وانحراف عن جهلٍ وطيش، وهذا هو طريق ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين لا يتوقفون عند الشك، بل يقتفون ما ليس لهم به علم، فيخبطون خبط عشواء، دون تثبّت ولا تبصّر، لا ريب أن كلا الضربين مذموم، وإن كان بعضهما أسوأ من بعض، العالم المنحرف مأزور، والجاهل المنحرف غير معذور. والعالم المستقيم هو المبرور المأجور)[2].

موقع سورة الفاتحة من القرآن كله:

(حين ننظر إلى القرآن في جملته نراه يتمثَّل أمامنا في صورة مُناجاة ثنائيَّة، الفاتحة أحد طرفيها، وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحة سؤال، وباقي القرآن جواب، الفاتحة هي طلب الهدى، والباقي هو الهُدى المطلوب.

(1) مجالس القرآن ج 1/ 144.
(2) من روائع التفسير ص 79 – 80.

إنَّ موقع الفاتحة هنا موقع القرار الجماعي الذي تُعلن به الأمَّة المؤمنة حاجتها إلى دستور الإسلام وتؤكِّد مُطالبتها به، وإن موقع القرآن كله بعد الفاتحة هو موقع القبول والاستجابة لهذا المطلب، فما هو إلا أن أعلن المؤمنون مَطْلبهم هذا قائلين ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾، وإذا بالقرآن يزفُّ إليهم هديته وهدايته قائلًا لهم: دونكم الهدى الذي تطلبونه، فكانت أول كلمة في القرآن بعد الفاتحة هي ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة: 2][1].

المناسبة بين فاتحة الكتاب وخاتمته (المعوذتان):

(إن العبد المسلم طلب من ربه العون في سورة الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: 5] فاستجاب الله دعاءه، وبين له الطريق، وبين له الشرائع، وبين له الأحكام، وبين له كل ما يساعده في عبادة الله وطاعته وابتغاء رضوانه.

ثم علمه، بعد ما حمله الرسالة وأقامه على المحجة البيضاء، كيف يستعيذ بربه من الشرور والفتن، التي تحيط به من كل جانب، وتريد أن تنقض عليه فتفسد عليه دينه وأمانته وتحرمه من السعادة، التي اختصه الله بها: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥ ﴾ [الفلق: 1 – 5].

وهذه الشرور – كما لا يخفى – (شرور خارجية وظاهرة) تقف للمسلم بالمرصاد، وتتوعده في كل حين بالدمار والهلاك، ثم تنقض عليه انقضاضًا، إن لم تتداركه نعمة من ربه.

وهناك (شرور خافية) تدب في نفس الإنسان دبيب النعاس، وهي الوساوس، التي تتواثب على النفس وتسيطر عليها بحيث لا يكاد الإنسان يشعر بها، فتعمل في كيان الإنسان عملها وتجتاح دينه وأمانته إن لم يتيقظ لها.

فتلك شرور داخلية علمنا الله كيف نستعيذ منها في قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

---

(1) من روائع التفسير ص 81 بتصرف.

ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 1 - 6].

وهكذا يكون المؤمن في مأمن من الفتن كلها، ويكون مأمونًا في دينه وأمانته، ولا يؤتى من داخله ولا من خارجه، إن لم يتوان في الاستعاذة بربه(1).

وما أجمل ما ذكرته د. سمر الأرناؤوط:

«إن العبد المسلم الذي أعلن في الفاتحة عبوديته لله رب العالمين وأعلن افتقاره إليه وحاجته للاستعانة به على ذلك هو العبد الذي بعد أن قرأ الكتاب كله يعلن مجددًا افتقاره لحماية ربه وتحصينه له بأن يعيذه من كل الشرور الداخلية والخارجية، التي قد تحول بينه وبين الاهتداء بهدي القرآن والعمل به والالتزام بأحكامه وتشريعاته والتسليم لأوامره وتلقي رسائله والتخلّق بأخلاقه وتزكية النفس بمواعظه وزواجره وقصصه وأمثاله».

سورة الفاتحة - فاتحة الكتاب- تعريف بالله الرب الملك وإقرار بالعبودية له والاستعانة به، وختم الكتاب بالمعوذتين وفيهما الاستعاذة بالله الرب الملك من كل الشرور.

❊ ❊ ❊

(1) البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران ص 91 - 92 بتصرف.

سورة البقرة

موضوع السورة

(سمعنا وأطعنا)

بين (تمرد بني إسرائيل وعصيانهم)، و(استجابة المسلمين واستسلامهم) تدور آيات سورة البقرة التي تذكرنا بقيمة الاستسلام لله والانقياد له في كافة مجالات الحياة: (التعبدية - الجهادية - الاجتماعية - الاقتصادية - التربوية - الأخلاقية).

وبهذين الأمرين نجد السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما:

(توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشُبُه، وفي سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقي دعوة الحق من أنبيائهم السابقين، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة.. وهذا هو الغرض الأول الذى استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب.

أما الغرض الثاني فهو التشريع الذى اقتضاه تكوّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها.

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد العدوان، وذكرت الصيام والوصية، والاعتكاف، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وذكرت الأهِلّة، وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها، وذكرت الحج والعمرة، وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه، وغايته التي ينتمى إليها، وذكرت الخمر والميسر واليتامى، وحكم مصاهرة المشركين، وذكرت حيض النساء والتطهر منه، والطلاق والعدة والخلع والرضاع، وذكرت الأيمان وكفارة

الحنث فيها، وذكرت الإنفاق في سبيل الله والربا والبيع، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن(1).

ولعل اختصاص اسم السورة بالبقرة إشارة إلى الصورة البغيضة لبني إسرائيل تجاه قضايا الوحي، والتي اتسمت بالعناد والالتواء والتعنّت والتمرد والطغيان مما يحمل تحذيرًا للأمة المسلمة المنوط بها حمل راية الاستخلاف ألا تحذو حذوها أو تسلك مسلكها.

وهذا ما يؤكده د. رأفت المصري:

«لما كانت (الطاعة) هي الركن الأعظم والأظهر الذي تدور حوله موضوع (سورة البقرة)، ولما كانت قصة البقرة تمثل ما في الشخصية الإسرائيلية من انحراف منبعه التلكؤ في الطاعة، والاستثقال للأمر والنهي؛ ناسب أن تسمى السورة باسم القصة. والتلكؤ والتحايل والمراوغة - ولو انتهت إلى إنجاز الأفعال - لا يكون لها من معنى الطاعة نصيب، وأما الاتباع الذلول والسماع الصدوق والاستجابة الخالصة لله كلما دعا فهو محض الطاعة حقًّا»(2).

◄ مناسبة السورة لما قبلها:

سورة الفاتحة سورة عهد وميثاق، وسورة البقرة تذكير بذلكم العهد والميثاق، وتقريع لمن ينقضونه.

2 - سورة الفاتحة تعبير بليغ عن حرص المتقين على الإيفاء بعهودهم ومواثيقهم وعضهم عليها بالنواجذ، بينما سورة البقرة تصوير واضح فاضح لخيانة اليهود ونقضهم مواثيقهم.

3 - في سورة الفاتحة تنفر وامتعاض شديد من الضالين والمغضوب عليهم، وسورة البقرة تقلب صفحات من تاريخهم البغيض، وتُعدد الأسباب التي أدت بهم إلى ذاك الحضيض.

(1) تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشر الأولى ص 45 - الشيخ محمود شلتوت
(2) دستور الاستخلاف قراءة تحليلية لسورة البقرة ص 23.

4 - في سورة الفاتحة طلب للهداية إلى الصراط المستقيم، وسورة البقرة استجابة لذلك الطلب، حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2][1].

•• مقاطع السورة:

1 - المقطع الأول: موقف الناس تجاه هداية القرآن: الآيات (1 - 20).

2 - المقطع الثاني: الدعوة إلى الإيمان وإنكار الكفر: الآيات (21 - 29).

3 - المقطع الثالث: قصة خلق الإنسان بين الاستخلاف والتكريم: الآيات (30-39).

4 - المقطع الرابع: بنو إسرائيل والاستخلاف في الأرض (قصة التدين المغشوش): الآيات (40 - 123).

5 - المقطع الخامس: نموذج التدين التام (دعوة إبراهيم عليه السلام): الآيات (124 - 141).

6 - المقطع السادس: تحويل الشرعية والتميز في الهوية (حادث تحويل القبلة): الآيات (142 - 162).

7 - المقطع السابع: منهج الإسلام عقيدة وشريعة: الآيات (163 - 203).

8 - المقطع الثامن: بناء المجتمع المسلم (حقيقة البر): الآيات (177 - 203).

9 - المقطع التاسع: مواعظ وتشريعات لإرساء قواعد بناء المجتمع الإسلامي الجديد (الآيات 204 - 220).

10 - المقطع العاشر: (تنظيم البناء الاجتماعي والإصلاح الأسري): الآيات (221 - 242).

11 - المقطع الحادي عشر: مقومات عزة الأمم (قصة طالوت وجالوت): الآيات (243-254).

(1) البرهان في نظام القرآن ص 80-82 بتصرف - د. محمد عناية الله سبحاني.

12 – **المقطع الثاني عشر**: أولياء الله وأولياء الطاغوت (الآيات 255 – 260).

13 – **المقطع الثالث عشر**: النظام الاقتصادي في الإسلام (فقه المعاملات المالية الآيات (261 – 274).

14 – **المقطع الرابع عشر (الأخير)**: سمعنا وأطعنا: الآيات (284 – 286).

المقطع الأول: موقف الناس تجاه هداية القرآن: [الآيات: 1 – 20]:

﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ
أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا
يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ
مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ
أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا
يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ
حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ
أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾.

بدأت السورة ببيان أن هداية القرآن الكريم مبنية على دعامة (انتفاء الريب ومظنة الشك) في مصدره وإعجازه، ثم قسمت الناس تجاه (هداية القرآن) إلى ثلاث طوائف:

مؤمنين متقين، وكافرين معاندين، ومنافقين متلونين.

• وبدأت بصفات (المتقين) وهي: (التقوى - الإيمان بالغيب - إقامة الصلاة - الإنفاق في سبيل الله - الإيمان بالرسالات السماوية - اليقين باليوم الآخر). (الآيات 2-5)

• ثم عرضت صورة (الكافرين) الذين تمردوا على طاعة الله وتنكروا لهدايته، وأشهروا الحرب - بالقول والفعل - على دعوته (موقفهم واضح: رفض قبول المنهج دون أدنى محاولة للتفكير فيه). وهي صورة حسية تجسم طبائعهم النكدة وعقولهم المظلمة، وإلا فإن آذانهم مرهفة وأبصارهم حادّة ولكنهم لا يحصّلون بها خيرًا ولا يهتدون بها إلى سبيل الهدى والرشاد [الآيتان 6 - 7].

• ثم بسطت في ثلاث عشرة آية حال طائفة من هؤلاء الكفار ممن أضمروا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم (المنافقون)، وإنما طال الحديث عن طائفة المنافقين بما لم يطل به عن الطائفتين الأخريين، لأن طائفة المنافقين ذات ألوان مختلفة، وأقنعة متعددة، والكشف عن جوهرها المعقد، وعن شخصيتها المزدوجة، وعن تناقض مظهرها مع مخبرها، يحتاج إلى مزيد من الأضواء، وتنويع في الصور، وتكثير من الأمثال، وذلك حتى يكون المؤمنون على كامل البينة ومنتهى الحذر من دسائس المنافقين ومؤامراتهم وأخطارهم، ويعرفوهم بسيماهم معرفة كاشفة.

وأوضحت الآيات أهم صفاتهم:

(إبطان الكفر وإظهار الإيمان - مرض القلوب - الكذب - تزيين الفساد - المكر الخفي لأهل الإيمان - المداهنة - الاستهزاء بالمؤمنين - موالاة الكافرين) [الآيات 8 - 20].

(إن عالم المنافقين عالم متفرد. إذ النفاق خليط غير متكافئ من باطل أُلبِس بحق، وحق أُشرِب بباطل، يشع فيه النور فجأة كما يختفي فجأة، ويستحيل إلى ظلام دامس مخيف، فلا تكاد تميز بين نار استوقدت لتضيء وأخرى لتلهب عالمًا تسود فيه دواعي الحيرة والتردد والقلق والتساؤل)(1).

(1) نظرات في كتاب الله ص 25 - زينب الغزالي.

وبعد أن استجمعت هذه الآيات محاور صفات المنافقين، كان الالتفات إلى أسلوب آخر تتم به المعاني وتتضح به المقاصد، هو أسلوب (ضرب الأمثال)، حيث ضرب الله تعالى للمنافقين مثلين في غاية الدقة والوضوح: (المثل المائي - المثل الناري) [الآيات 17 - 20].

(لقد ضرب الله الأمثال لهؤلاء المنافقين حتى تتضح صورتهم ولا يخفى أمرهم على المؤمنين، لأنهم شر ما بعده شر، لقد صورهم الله بصورة مستوقد النار الذي أتعب نفسه في إشعالها، فلما أضاءت ما حوله انطفأت فجأة وتركت صاحبها في ضياع ورعب.

وهكذا المنافق لا يشعر بالاطمئنان أبدًا، كما صورهم في مشهد آخر بصورة ذلك الإنسان الذي هطلت عليه الأمطار مصحوبة بالظلمات والرعد والصواعق، فتركته مذعورًا خائفًا يرجف فؤاده. وهكذا يعيش المنافق لا يشعر بالأمن ولا بالاستقرار، وإنما هو دائمًا في قلق واضطراب)(1).

المقطع الثاني: الدعوة إلى الإيمان وإنكار الكفر: [الآيات: 21 - 29]:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ
فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ
بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن
تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ
رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٢٥ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ
بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦

(1) من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم ص 63 بتصرف - د. السيد تقي الدين.

ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ
ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن استعرضت الآيات السابقة أصناف الناس تجاه هداية القرآن، جاءت هذه الآيات لتدعو كل الناس إلى عبادة الله وتقواه، مبينةً دلائل استحقاقه للعبادة:

1 – دليل الخلق والإيجاد (21)

2 – دليل العناية والإمداد (22)

3 – دليل الهداية والإرشاد (23)

وذلك من خلال تحدي المشركين بآيات هذا الكتاب المعجز الذي أعجزهم عن معارضته، وكشف زيفَ الريب المُدَّعَى والشك المزعوم الذي يتترسون به في مواجهة الحق.

ثم زيادةً في الإعذار كشف رب العزة من وراء حجب الغيب عن صورتين متقابلتين لمصيرين مختلفين، إحداهما للجحيم الأبدي للعصاة المتجبرين، وثانيتهما للنعيم الدائم للأوابين المطيعين، والعاقل من يُمَيِّز بين المصيرين. (الآيات 24–25)

ولما فشل المشركون في (معارضة القرآن) كما في الآيات السابقة، أثاروا (الشبهات حول بعض أمثاله)؛ لذا جاءت الآيات التالية ترد على اعتراضهم، وتبين ما يترتب على ضرب الأمثال من الحكم والمواعظ التي يتدبرها أصحاب العقول المنفتحة، وينكرها أصحاب العقول المنغلقة المعاندة. (26) ثم بينت أبرزت صفات الضالين الذين لا تزيدهم الأمثال الكاشفة إلا ضلالًا وعمى (27).

ثم تأتي الآية التالية (28) مواجهة فاضحة مخزية لأولئك الذين لجّ بهم العناد والضلال فاستحبّوا العمى على الهدى وجعلوا لله أندادًا يعبدونهم من دونه، مبينةً لهم أن الله وحده هو الذي خلق الإنسان من الموات ثم سوّاه بشرًا سويًا ثم يردّه إلى

الموات ثم يعيده مرة أخرى إلى الحياة للحساب والجزاء.. فكيف يكون لإنسان أن يتنكر لخالقه ويعدل وجهه عنه إلى عبادة المخلوقين؟

فإن لم تهتدوا بهذا كله فأمامكم الكون الفسيح، وقد خلقه الله لكم أرضًا وسماءً، على علم منه وإحاطة بكل شيء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (الآية 29). وذلك من شأنه ألّا يجعل سبيلًا لعاقل أن يعطي ولاءه لغير الله رب العالمين.

المقطع الثالث: قصة خلق الإنسان بين الاستخلاف والتكريم: [الآيات: 30 – 39]:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكرت الآيات السابقة المعاندين (بمبدأ حياتهم ومنتهى مماتهم وبعثهم ونشورهم) وما خلق لهم من السماء والأرض (تمهيدًا للخليفة الذي سيجعله الله في الأرض)، ذكَّرهم في هذه الآيات (بمبدأ خلق الإنسان) وما تفضل به تعالى على أبيهم آدم إذ كرمه أولًا بخلقه ثم بجعله قابلًا للتعلّم بتعليمه الأسماء كلها، ثم تعليمه

للملائكة (العلم والتعليم من أسس مقومات الخلافة في الأرض)، ثم بإسجاد الملائكة له، في إشارة واضحة إلى أن تكريم الأصل تكريم أيضًا لمن استقام من الذرية والنسل، في مشهد حي من مشاهد الغيب.

وفي هذه القصة يظهر مدى تكريم اللّٰه لآدم وبنيه باختياره خليفة وتعليمه ما لا تعلمه الملائكة، فهل يليق بذريته - بعد هذا الاحتفاء- أن يقفوا من اللّٰه ورسله موقف الكفر والعناد؟!

وفي هذه القصة تجلت أبرز بنود الاستخلاف[1]:

1 - وظيفة الاستخلاف في الأرض، وعمرانها بذكر الله، تسبيحًا بحمده وتقديسًا له، هي الحكمة التي من أجلها خلق الإنسان.

2 - سفك الدماء - بغير حق- من أعظم الفساد في الأرض.

3 - الاشتغال بالعلم - تعلمًا وتعليمًا - شرط ضروري لسلامة السير إلى الله.

4 - عداوة الشيطان للإنسان عداوة دائمة لا ينبغي نسيانها أو الغفلة عنها، حتى يكون دائمًا على حذر من الشيطان، فلا يثق بتغريره وإغرائه، ولا يمكنه من الأخذ بتلابيبه.

5 - الوقوع في الذنب والخطأ وارد؛ فالإنسان ليس ملكًا معصومًا. والتوبة هي سلاح العبد إذا ما استزله الشيطان إلى مستنقع العصيان، وهي المخرج الوحيد من ثقل الخطيئة وعناء الذنب.

6 - إن كمال الطاعة هو في كمال الاستجابة للأمر الشرعي ولو لم تدرك حكمته، ومخالفة هذا النهج هو الذي أورد إبليس موارد الردى والتهلكة.

7 - اتباع الهدى الإلهي هو الحصن الحصين للإنسان من الوقوع في شبكة الشيطان، وهو الطريق الوحيد للحصول على السعادة والفلاح، بدلًا من الشقاء والخسران.

(1) مجالس القرآن ج 3 / 114 بتصرف.

المقطع الرابع: بنو إسرائيل والاستخلاف في الأرض (قصة التدين المغشوش):

[الآيات: 40 – 123]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد الحديث السابق عن قصة (استخلاف آدم عليه السلام) وتجربته المثيرة التي تجلّى فيها صراعه مع الشيطان وإهباطه إلى الأرض محصنًا بمنهج إلهي يحميه من الزيغ والضلال، جاءت الآيات التالية للحديث عن تجربة لقوم من ذرية آدم (استخلاف بني إسرائيل) تجلى فيها نجاح الشيطان في إغوائهم وصرفهم عن طريق الهدى بشتى صنوف الحيل الملتوية والتزيين الخبيث.

وخصّ (بنى إسرائيل) بالذكر لأنهم أهل كتاب، ولأنهم شهود بأن ما نزل على محمد ﷺ

هو من عند الله، وأن محمدًا ﷺ هو النبيّ المنتظر الذي يعرفون صفاته بدقة مما ورد في التوراة، ولكن اليهود مكروا بآيات الله وكتموا الحق الذي يعلمونه.

لقد عُرِض شرفُ حملِ أمانة الاستخلاف وإمامة البشرية على بني إسرائيل، وآتاهم الله تعالى من الآيات ما به يهتدي مَن صَدَقَ بحثُه عن الحق وطلَبُه للهدى، إلا أن ما وقر في عقولهم من غباء، وما ران على قلوبهم من خبث وفساد، جعلهم لقمة سائغة للشيطان يفترسهم في كل زاوية من زوايا تاريخهم الطويل.

وقد انطوى خطابهم على الترغيب تارة، وعلى الترهيب تارة، وعلى التذكير أخرى، ليكون ذلك أدعى إلى زجرهم، وأرجى في إصلاح نفوسهم الفاسدة، وعلاج أدوائهم المتأصلة.

(وفي مسيرة بني إسرائيل في العهد النبوي، وعبر تاريخهم قبل ذلك تجربة ثرية، فيها كثير من العبر والعظات، وهي صالحة لعرض الصواب والخطأ، وصالحة لعرض نماذج تصلح للتربية والتقويم والنماذج المتقدمة من بني إسرائيل فيها خير كثير، وفيها مواطن ضعف، وهذه الأمة بحاجة إلى المواقف الراقية للتأسي والاقتداء، وتحتاج إلى معرفة مواطن الضعف كي لا تسقط سقوطهم، ولا تزل زللهم. وبنو إسرائيل

يحملون في بقايا كتبهم البشارات بالرسول ﷺ وكتابه وأصحابه وأمته، ولكنهم يكتمون ذلك كفرًا وحسدًا، ولذلك فقد أقاموا من أنفسهم أعداء للنبي وأمته، ونحن محتاجون إلى أن نعرف الخصم الذي نواجهه، وخير من يحدثنا عنهم، ويعرفنا بهم ربهم الذي كفروا به، وفي كتاب ربنا وسنة نبينا حديث واسع عن اليهود، يؤدي بنا إلى معرفة جيدة بهم، وبأحوالهم وأخبارهم، فالذي يعرف خصمه يصرعه في مقام النزال، والذي يجهله يضله ويغويه، ومن هنا فإن المسلمين اليوم بحاجة إلى العلم الذي حدثنا به عن اليهود المتعالين على رب العالمين وعلى أمة الإسلام)[(1)].

(لذلك كانت مسيرة بني إسرائيل في هذا القسم من سورة البقرة مدرسة تربوية وعقدية للمسلمين يستعرضون فيها نماذج نادرة من الانحراف، وأمثولات غريبة من المكر والكيد، وأفحوصات دقيقة لنفسيات مريضة لا تأمن ولا تؤمن، لا ترتاح ولا تريح، ويتخذون منها حوافز نيرة تقيهم مزالق الهوى ومكامن الضلال ومسارب الكفر والجحود)[(2)].

ونظرًا لطول الآيات التي تتحدث عن (بني إسرائيل)، فقد تم تقسيم هذا المقطع إلى 7 محاور:

1 – المحور الأول: تذكير بالنعم وتحذير من الآخرة: [الآيات: 40 – 48]:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ

(1) المعاني الحسان في تفسير القرآن ج1 / 76 – د. عمر الأشقر.
(2) تفسير القرآن الكريم ج1 / 201 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

بدأت الآيات (بتذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم) ومقابلة تلك النعم بنقض العهود وخيانة المواثيق، وألقت الضوء على المساوئ التي اتصفوا بها، فمن كتمان الحق وطمس لمعالمه، إلى تزييف للحق وتلبيس له بالباطل، إلى تبديل كلمات الله وتحريف لمعانيها، إلى نفاق في السلوك وازدواج في الشخصية، ينشأ عنه تناقض صارخ بين الظاهر والباطن، واختلاف كبير بين الأقوال والأعمال (40 – 44). وهذا ناتج عن نفسيات مريضة منحرفة؛ لذا دعاهم الله ﷻ إلى وجوب الاستعانة على هذه التكاليف الشاقة بالصبر والصلاة (45 – 46).

وختمت آيات هذا المقطع بذكر آلائه سبحانه وفضله عليهم، مما يستوجب له التحميد والتمجيد (47)، كما حذرتهم من عاقبة النكوص والعصيان والجحود والكفران (48).

وفي هذه النداءات المكررة من ربّ العزة إلى هذا القطيع الشارد من بنى إسرائيل إشارة إلى ما في نفوس هؤلاء القوم من كنود، وما في طباعهم من جفاء، وما ضمّ عليه كيانهم من جحود للإحسان وكفران بالنعم.

2 – المحور الثاني: جحود واستكبار: [الآيات: 49 – 74]:

في هذه الآيات (تفصيل لتلك النعم) التي أنعم اللّه بها على بنى إسرائيل والتي جاء إجمالها في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ومع تتابع هذه النعم السابغة وتوالي هذه الآلاء الكريمة فإن القوم لم يتلقوا هذا الإحسان إلا بالكفران واللجاج في العناد والمحادّة للّه ورسوله.. ويمكن تقسيم هذه النعم إلى:

1 – نعمة الإنجاء من بطش فرعون وتذوق الحرية (49)، وإغراق الطاغية أمام عيونهم (50).

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

2 – مواعدة الله تعالى لموسى عليه السلام، وعفوه عن بني إسرائيل بعد اتخاذهم العجل (51 – 52).

3 – ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

4 – نعمة إيتاء موسى عليه السلام الكتاب والفرقان (53).

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

5 – نعمة دلالتهم على طريق التوبة، والعفو عنهم (54).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾

6 – نعمة بعثهم بعد الصعقة التي صعقوها نتيجة جرأتهم على الله عز وجل (55 – 56).

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

7 – نعمة تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى (57).

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

8 – نعمة التمكين من دخول القرية (بيت المقدس)، ومقابلة ذلك بالعناد والاستهزاء والفسوق (58 – 59).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

9 – نعمة الري من العطش (60).

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

لا جرم إذ لم يشكر بنو إسرائيل النعمة ولم يقدروها حق قدرها أن تُنْتَزَع منهم ويُسْلَبوها، ويُعَوَّضوا عنها بضد ما وُعِدوا به، وهو الذلة مقابل العز، والمسكنة مقابل النصر والتمكين، وسخطُ الله وبغضُه بدل الرضى والمحبة والولاء، إذ كل من لم يشكر نعمة الله جدير بأن يُسلَبها (61).

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ولما ذكر الله تعالى (سخطه عليهم)، أتبع ذلك بذكر (رضاه على عباده الصالحين). كل من آمن بالله واليوم الآخر واكتسب بإيمانه عملاً صالحًا (62)، وفيها إشارة إلى أنهم لم يُمقتوا لعنصرهم؛ وإنما مُقت من مقت منهم لضلال معتقده وسوء صنيعه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم تواصل الآيات عرض مساوئهم، جامعة بين تهديدهم والامتنان عليهم بالأنعم التي كفروها فانقلبت عليهم نقمة ووبالًا:

1 – سرعة توليهم عن الحق، وإصرارهم على الجحود والعناد (63 – 64).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

2 – الاستخفاف بأحكام الله والتحايل على الشريعة (قصة أصحاب السبت)، وما ترتب على ذلك من عقوبة المسخ (65 – 66).

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

3 – التشغيب على أوامر الله تعالى وتكاليفه (قصة البقرة): وفيها تظهر آفات اللجاج والعناد، والتكلف والتنطع في تنفيذ الأوامر والتعاليم الإلهية. (67 – 73)[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(وفي تكرار لفظ بقرة على لسان موسى عليه السلام مرات أربعًا، وإعادة لفظ بقرة بصريح اللفظ كل مرة يسألون فيها موسى عليه السلام ويلحفون في السؤال فيه إشارة إلى بلادة أذهان السائلين وقصور إدراكهم، وكأن للقوم نصيبًا مما اشتهر به جنس البقر من البلادة والبلاهة)[2].

(1) روى المفسرون أنه كان في بني إسرائيل رجل غني، وله ابن عم فقير لا وارث له سواه، فلما طال عليه موته قتله ليرثه، وحمله إلى قرية أخرى فالقاه فيها، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى عليه السلام يدعى عليهم القتل، فسألهم موسى عليه السلام فجحدوا فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي، فدعا موسى ربه فأوحى الله – تعالى – إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة، فقال لهم موسى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً .. ﴾. وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار. (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 1 / 210).

(2) تأملات في سورة البقرة، (1/ 398) – د. حسن محمد باجودة.

ولك أن تقارن بين موقف بني إسرائيل من (ذبح البقرة) وسوء ظنهم بنبيهم وتعنتهم وكثرة جدالهم، وبين موقفهم عندما أمرهم السامري (بعبادة العجل)؛ فلم يتعنتوا عليه ولم يسيئوا به الظن، بل اندفعوا إلى ما أراده منهم، متجاهلين للأوامر الشرعية ومتعامين عن البراهين العقلية القاضية بضلال ما كانوا يعملون. (أُشربوا في قلوبهم العجل لشدة تعلقهم بالدنيا وحبّهم للماديات حتى عبدوها وما زالت هذه صفتهم إلى يومنا هذا).

ثم تأتي (قسوة القلب) كنتيجة طبيعية بعد (سوء الأدب والتمرد على الطاعة) والمماطلة في الانصياع، وكتمان الحق وتحريف الدين والمتاجرة فيه، والإلحاف في السؤال والتنطع في مجادلة الرسل والأنبياء (74)[1].

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

(ومن يتدبر الآيات يلمح طباع بني إسرائيل النافرة عن الحق، التي تزداد سوءًا بعد سوء مع كل نعمة من نعم الله ومع كل ابتلاء من الله، فلا النعم أخضعت قلوبهم فشكرت، ولا النقم أصلحت نفوسهم فاستقامت)[2].

3 – المحور الثالث: **كذب ومداهنة وافتراء**: [الآيات: 75 – 82]:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا

(1) إن أمراض القلوب إن لم تُعالج ابتداءً فلا بد وأن يظهر أثرها لاحقًا بصورة قسوة أشد من الحجارة تحجبها عن رؤية الحق والامتثال له، فلا تلين لموعظة ولا تتأثر بتذكرة ،وإنما تزداد قسوة وعنادًا واستكبارًا.

(2) نظرات في كتاب الله ص43.

مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا
يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةًۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا
فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

بعد أن بينت الآيات السابقة (كوامنَ الفساد في النفسية اليهودية)، وصواعقَ العقاب الذي أنزله الله ﷻ بهم، التفت إلى الصف المسلم في عهد البعثة النبوية، تنزيلًا للسكينة على قلوبهم، وتخفيفًا عنهم من حرقة الحرص على أن يؤمن بنو إسرائيل، وتيئيسًا لهم من إيمان غالب يهود عصر البعثة، مُذَكِّرًا بما سلف من تنطع أسلافهم وترديهم في الكفر والعصيان، على مدى تاريخهم الطويل من عهد موسى عليه السلام، منبهًا إلى أن يهود البعثة متمسكون بأخلاق أجدادهم، وما وَرِثوه عنهم من خصال ورذائل ومفاسد، ومن أبرز تلك الجرائم:

(تحريف الكتاب (75) – التلون والنفاق (76 – 77) – اتباع الظنون الباطلة والأماني الفارغة (78)– التلاعب بالشريعة والمتاجرة بالدين (باحتكار العلم على أحبارهم) والتدليس على الناس (79) – الادعاءات الكاذبة نتيجة استكبارهم واغترارهم بتفضيل الله تعالى لهم بأنه لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات، والرد عليهم بأن حكم الله واحد لا يتبدل، بالنسبة لكل من انحرف عن سواء السبيل، كيفما كانت ملته، ومهما كانت نسبته (80 – 82).

(ولقد قسمت آيات هذا المقطع اليهود في مواجهة البعثة النبوية إلى ثلاثة فرق:

- فريق يحرف الكلام بعد أن يسمعه ويعقله ويفهمه ويعرف أنه الحق من الله، وهم (علماء بني إسرائيل وأحبارهم) الذين أشارت إليهم هذه الآية الكريمة.

• والفريق الثاني هو فريق (المنافقين من اليهود) الذين أعلنوا الإسلام واحتفظوا بالكفر، وهؤلاء كان هدفهم تخريب الدعوة الإسلامية من داخلها، ببث الشكوك والتفرقة والنزاع.

• أما الفريق الثالث فهو المعني بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾، وهم (العوام والسِّفْلة من بني إسرائيل)، الهَمَج الرعاع، أتباع كل ناعق، الذين لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق)[1].

4 – المحور الرابع: نقض العهود والمواثيق: [الآيات: 83 – 93]:

ما تزال الآيات في تعداد (قبائح بني إسرائيل) التي استحقوا بها غضب الله تعالى، ونزع الخلافة عنهم. وفي هذه الآيات تركيز على (نقض الميثاق ومخالفة العهود)، وهذا يشمل:

• ميثاق (العبادة الخالصة لله تعالى)، أداءً للصلاة والزكاة، ومعاملة بين الناس تنشر المحبة والمودة والتعاون على البر، وتكافلًا اجتماعيًا يحقق الكفاية والرخاء (83).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾.

• ميثاق (تحريم سفك دماء بعضهم بعضهم ظلمًا وعدوانًا)، وإخراج بعضهم من ديارهم أو طردهم من بين أهلهم وتشريدهم بغير الحق، وبيان ما ترتب على ذلك من ذل الدنيا وعذاب الآخرة (84 – 86).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٨٤ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن

(1) تفسير القرآن الكريم ج 1/ 284 – 286 بتصرف – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ
ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

• ميثاق (الهداية والرشد)، تثبيتًا لهم على الحق، وتجديدًا لإيمانهم في كل عصر، بإنزال الكتب وإرسال الرسل، ومواجهة ذلك بالتكذيب والاستكبار وقتل الرسل (87).

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا
كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

• ميثاق (الإيمان بالحق الذي جاء به محمد ﷺ)، وبشرتهم به التوراة من قبل فعرفوه حق المعرفة ولكنهم تنكروا له أيما تنكر حسدًا وتعصبًا وبغيًا واستكبارًا (88 – 92).

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن
يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو
بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ
تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

• ميثاق (الإيمان بما جاء به موسى عليه السلام) من البينات، والامتثال لتعاليم السماء، ولكنهم رفضوا دعوة الحق لما ركب في طباعهم من حب للدنيا أشربته قلوبهم وكفر بالآخرة أعمى أبصارهم (92 – 93).

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ
ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم
بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ
قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

وفي التذكير بموقفهم من موسى عليه السلام تسلية لقلب النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين.

(ووجه التسلية أن موسى عليه السلام من بني جلدتهم، وقد بعث في وسطهم في أحلك الظروف وهم يتجرعون مرارة العذاب من فرعون وآله، فكان خلاصهم على يديه، وشاهدوا منه من المعجزات ما يستأصل شأفة كل ريب، ويسكن اضطراب كل نفس، ولكنهم مع ذلك كانوا أقسى قلبًا وأشد عتوًا؛ إذ قابلوا كل ذلك بالعناد وصارحوه عليه السلام بالرفض لما كان يدعوهم إليه من الحق، فلا يستغرب إذا رفضوا الإيمان برسول بعث من جنس غير جنسهم، وفي بيئة غير بيئتهم؛ فإن الإصرار على الباطل ديدنهم، والكفر بالنبيين وما جاءوا به سبيلهم)(1).

5 – المحور الخامس: **إدعاءات فاضحة وتناقضات واضحة** [الآيات: 94 – 103]:

تنتقل الآيات الكريمة إلى استعراض (الشبَه الفاسدة والمزاعم الباطلة) التي اختلقها بنو إسرائيل لرفض الرسالة الجديدة، وتشكيك المسلمين في دينهم. وتتلخص هذه الشبَه والمزاعم التي تتولى الآيات الكريمة تفنيدها وإبطالها فيما يلي:

• إدعاء كون الجنة خالصة لهم من دون الناس، والرد عليهم. وبيان حرصهم الشديد على الحياة الدنيا وتعلّقهم بها يحول بينهم وبين اتباع ما ينجيهم في الآخرة (94 – 96).

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

• زعمهم أن جبريل الملك الذي ينزل بالوحي على قلب رسول الله ﷺ إنما هو عدو لبني إسرائيل، إذ هو في زعمهم لا يتنزل إلا بالشر والقحط والجدب، ولهذا السبب فهم يرفضون الوحي الذي ينزل بواسطته على سيدنا محمد ﷺ، وأن الوحي لو نزل

(1) جواهر التفسير ج 3/ 549 – 550 – الشيخ أحمد الخليلي.

بواسطة ميكائيل، ملك الرخاء والمطر والخصب، لقبلوه وصدقوا به (97 – 98).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وتشير الآية التالية (99) إلى حقيقة هامة وهي أن (فسق الفاسق) هو الذي يحجب قلبه عن الإيمان، وعقله عن الهداية وبصيرته عن رؤية الحق المبين، ويحدث فيه مضاعفات الشر والكفر ما لا سبيل له إلى قلوب المتقين. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

• الالتواء والتذبذب، والروح الانتهازية الصرفة في التعامل مع العهود وفق أمزجتهم السقيمة وأهوائهم الفاسدة (100 – 101).

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

• الإقبال على السحر والتهالك عليه، واستغلال لبسطاء العقول بواسطته، والادعاء بأن السحر إنما هو تراث أخذوه عن سليمان عليه السلام. وهذا نتاج طبيعي لنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، مما أدى لاتباع الشياطين وطلاسم السحرة وما يترتب على ذلك من فساد وإفساد عاقبته وخيمة في الآخرة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (102)[1].

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ

(1) وتأمل الإشارة في الآية للتفريق بين المرء وزوجه، وهو دلالة على الحرص على تفكيك الأسرة التي هي نواة المجتمع والأمة، وكم يجتهد أعداء الدين اليوم وإعلامهم الساحر لتحقيق هذه الغاية!

مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

• وختمت الآيات ببيان سبيل نجاتهم لو سلكوه، وهو الجمع بين الإيمان والتقوى.
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

6 – المحور السادس: **التحذير من خبث اليهود ومكرهم**: (104 – 110):

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن أيأس القرآن الكريم المسلمين في الآيات السابقة من إيمان اليهود، وعرض من كفرهم وجحودهم ما أفقدهم إمامة البشرية وأركسهم في النار، التفت إلى الأمة المسلمة الجديدة يدعوها إلى الحذر من مكر يهود وكيدهم الخبيث، وذلك من خلال:

• عدم التأثر باليهود في طرائق حديثهم، فإنها محشوة باللمز من المؤمنين، والتعريض بهم، وقد جعلوا أول أهدافهم النيل بخطابهم المريض من نبيكم الكريم، والتنقيص من شأنه، وهذا يدل على استفحال الحقد في قلوب اليهود على الدين وأهله (104 – 105)[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُواۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

• إثبات حكمة الله ﷻ في النسخ (شريعة بأخرى أو تبديل حكم بآخر)، وهو الموضوع الذي أثار اليهود حوله الشبهات، مع التأكيد على ملك الله عز وجل الكامل وقدرته النافذة؛ فلا مجال للنزاع في سلطانه أو الاعتراض عليه في قضائه (106 –

(1) هذا الحقد هو حافزهم للاستيلاء على الخير الذي اختص الله تعالى به هذه الأمة من مقدّرات وثروات، وما يزالون يكيدون بالأمة حتى ظهر حقدهم على العلن وما عادوا يخفونه، ونحن نعيش آثار هذا الحقد اليوم بصورة لم يشهدها التاريخ من قبل!

.(107

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

• تحذير المسلمين من تقليد بني إسرائيل في إلقاء أسئلتهم المحرجة، القائمة على روح الجدل والتعنت لغرض التشكيك، ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾. والتشبه هنا واقع بالأسئلة التي وجهها بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام في شأن البقرة وذبحها، طبقًا لما حكته عنهم الآيات السالفة. مبينة النوايا الدفينة لأهل الكتاب وأهدافهم الرامية إلى أن يرتد المسلمون عن دينهم، والأسباب الداعية إلى هذه الرغبة الخبيثة، وهي معرفتهم للحق الذي آثر رب العزة به المسلمين، والحسد الذي سكن نفوسهم بذلك (108 – 109).

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

• أمر المسلمين بأن ينصرفوا عن المعارك الهامشية إعراضًا واستعلاءً، بالعفو والصفح عن الخصوم، وأن يلتفتوا إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويشتغلوا بالخير الأرجى عند الله تعالى، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والعمل الصالح (110).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾.

7 – المحور السابع: غرور ونرجسية وجرأة على الله: [الآيات: 111 – 123]:

هذا هو المقطع (الأخير) في الحديث عن (انحرافات بني إسرائيل)، وهو يركز على تلفيق الادعاءات، ونسج الأباطيل، وترديد الأقاويل المتهافتة، والاعتراضات

التي لا تقوم على أساس، كي ينشغل المسلمون عن فهم دينهم والتفقه فيه، ومن أهم هذه الدعاوى الباطلة:

- ادعاء استئثار اليهود والنصارى بالجنة وحدهم، والرد عليهم (111 – 112).

﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

- تنابزهم بالباطل واعتزازهم بالضلال، وغفلتهم عما جاء في كتبهم، وكشف للمسلمين بذلك مدى تباغضهم وتعاديهم وتعاندهم وتناقض مزاعمهم (113).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

- تحالفهم مع المشركين في حملتهم على ثوابت العبادة (السعي لخراب المساجد ومنع الناس من العبادة فيها)، والرد عليهم بأن هذا التخريب لا يعطل العبادة ولا يلغيها، بل أينما تولوا فثم وجه الله، تطمينًا لقلوب المؤمنين، وإيذانًا بأن عبادة الله تعالى لا يوقفها في الأرض شيء؛ فإن له المشرق والمغرب (114 – 115).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

- إدعاء الولد لله ﷻ، وتعالى الله عن ذلك علوّا كبيرًا. «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْدًا» [مريم: 93] (116–117).

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

- طلب الآيات الخارقة، والمعجزات المادية المحسوسة، والرد بتثبيت الرسول ﷺ مؤكدًا حقيقة نبوته، بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين (118–119).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ

مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

• التيئيس من تراجع اليهود والنصارى عن غيّهم، وإقلاعهم عن معتقداتهم الباطلة، وبيان أن معاداتهم للنبي ﷺ لم تكن ناشئة عن جهلهم به، والتباس أمره عليهم، وإنما هي ناشئة عن حسد تعمّق في نفوسهم، فحال بينها وبين قبول الحق. (120)، ثم بين في المقابل أن هناك طائفة من أهل الكتاب يتلون الكتاب حق تلاوته، ويتعرفون غايته ومراميه، وأن هؤلاء يؤمنون بمحمد ﷺ ويتبعونه (121).

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

ثم تختم هاتان الآيتان (122 – 123) الحديث عن بني إسرائيل بتذكيرهم بالنعم التي ساقها الله إليهم، وشنيع ما قابلوا به النعم من كفر وعتو وجحود وتمرد، وفظيع ما ينتظرهم يوم العرض والحساب.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وهذا الخطاب لليهود إعلان واضح بِطَيِّ ملفهم على الكفر والعزل، وتمهيد للحديث فيما بقي من سورة البقرة عن الأمة البديلة، أمة محمد ﷺ التي نصبت لهذه المهمة الخطيرة، إمامة البشرية وقيادتها فيما بقي من أدوار الحياة والمهات.

ولأن الخطاب القرآني أكّد حال اليهود الثابتة التي لن تتغير ولن تتبدل، كان ضروريًا أن تنفكّ أية ارتباطات بين المسلمين وبينهم. ومن هنا جاء التمهيد لتغيير القِبلة؛ فالأمة المسلمة التي سيوكل إليها خلافة الأرض لا يليق بها أن تشترك مع أمة سابقة سقطت في امتحان الاستخلاف في أيّ أمر يختص بعقيدتها وعبادتها.

المقطع الخامس: نموذج التدين التام (دعوة إبراهيم عليه السلام): [الآيات: 124 - 141]:

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا
يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ
وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ
قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ
ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن
ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ
فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ
بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢
أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ
أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُواْ كُونُواْ
هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ
ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ
أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩
أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ
نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ

عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

بعد أن قص الله تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل وما كفروا به من النعم في حاضرهم وماضيهم، وكانوا يفخرون بأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وأنهم لهذا أبناء الله وأحباؤه، وما أداهم ذلك الاعتقاد الواهم الباطل إلى ضلال توارثوه، وفساد فكر تناقلوه، وكفر بالله، وقتل للنبيين بغير الحق، جاءت الآيات لتبين (حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام)، وفي ذلك تعريض بانحراف أهل الكتاب والمشركين على حد سواء عن الدعوة الإبراهيمية والملة الحنيفية. ولتبيّن أن الاجتباء الرباني ليس ادّعاءً، وإنما اجتباء له شروط ومعايير ينبغي أن يُبتلى بها العبد، فإن نجح كان من المصطفين الأخيار كإبراهيم عليه السلام، وإن لم ينجح كان من المبعَدين كبعض ذريته من بني إسرائيل.

وجاء الحديث عن (إبراهيم عليه السلام) من خلال المحاور التالية:

- تبشير إبراهيم عليه السلام بالإمامة، واستجابة دعائه في أن يجعلها في الصالحين من ذريته وذلك بعد الإشارة إلى اختبار الله تعالى له بكلمات البلاء توحيدًا وتعبيدًا ومحنًا، فوفى بها إخلاصًا وبراءةً من الشرك وطاعة وصبرًا وشكرًا، وفي ذلك تعريض بفشل بني إسرائيل- وهم من ذريته- فيما اختبرهم الله تعالى به؛ فخانوا وجحدوا وعتوا وتجبروا، فانقطعت بينهم وبينه علاقة القربى، إذ انبتت وشائج العقيدة، وتلك سنة الله في الولاء والبراء (124 – 126).
- رحلة رفعه القواعد من البيت العتيق مع إسماعيل عليهما السلام، ودعواته المباركة.(127 – 129).
- توبيخ وتقريع لكل من حاد عن ملة إبراهيم عليه السلام، مبينًا مزيته التي توجب اتباعه (130 – 131).
- تمسكه بكلمة التوحيد ووصيته لأحفاده بالثبات عليها، وحرصه على التربية

الإيمانية لذريته من بعده بصلاحه عقيدتهم وثباتهم على التوحيد (132 – 133).

ثم عقب تعالى على إخلاص إبراهيم وبنيه، وصدق تمسكهم بالدين، وعلو مرتبتهم عند رب العالمين، بتنبيه اليهود والنصارى، وكانوا يفاخرون بنسبهم الإبراهيمي، يظنون أنه ينجيهم بين يدي الله، محذرًا من الاتكال على رابطة الدم والعرق بصالحي الآباء والأجداد، مبينًا لهم أن الرابطة المعتبرة شرعًا هي رابطة العقيدة لا رابطة الدم والعرق والنسب، وأن الملة الحنيفية هي الأحق بالاتباع، وهي التي جاء بها محمد ﷺ وكان عليها إبراهيم عليه السلام، والتي تختزل مجادلاتهم ومشاكساتهم ومعاركهم المصطنعة، وتوفر جهد المسلمين ووقتهم، وتمهد للمفاصلة بين فريقي الإيمان والكفر. فهم بين أمرين (قبول أو رفض): قبول ينضمون به إلى ركب الإيمان وأمة الإحسان، أو رفض يركسهم في الضلال والهلاك (134 – 141).

المقطع السادس: تحويل الشرعية والتميز في الهوية (حادث تحويل القبلة):

[الآيات: 142 – 162]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن (توحيد العقيدة)، جاءت الآيات التالية للحديث عن (توحيد الوجهة) وجعلها في البيت العتيق (الكعبة المشرفة)، أول بيت لعبادة الله وضع للناس.

فقد كان تحوّل النبيّ ﷺ والمسلمين بقبلتهم في الصلاة من (بيت المقدس) إلى (المسجد الحرام) حدثًا اتخذه خصوم الدعوة من اليهود والمنافقين ذريعة للتشويش على المسلمين وإدخال البلبلة والاضطراب على معتقدهم وإضعاف الصف المؤمن. فجاءت هذه الآيات لمواجهة تلك الدسائس الرخيصة والكيد الخبيث، والأساليب الملتوية.

(ولقد كان لهذا الإجراء مغزاه التربوي تميزًا للمسلمين عن أهل الكتاب، وعودة إلى أصل ملة إبراهيم، وتجريدًا للطاعة المطلقة لأوامر الله تعالى، وانتزاعًا للقلوب

من التعلق بالكعبة وقد أحبوها على الشرك، بتوجيههم إلى بيت المقدس أولًا، ثم ردهم إليها ثانيًا، بعد أن غمر الإيمان القلوب فصفت عقيدتها وتعلقت بربها واتجهت إلى بارئها، فقد كانت له قيمته الإستراتيجية بإشارته إلى ما ينبغي الاستعداد له، من ضرورة استخلاص القبلة الإبراهيمية وتحريرها من الأوثان وعبادتها)[1].

(لقد كان تحويل القبلة ليس مجرد تحويل شكلي، وإنما كان تحويلًا لمسار التاريخ كله، تحويل وجهة البشرية كلها عن أمة فشلت في مهام الاستخلاف فسحبت منها الأمانة والقيادة، إلى أمة وليدة جديدة جعلها الله وسطًا بين الأمم.. وما كان حادث تحويل القبلة إلا اختبارًا لها، فنجحت وتقبلت حكم الله؛ فتحولت بمجرد أن علمت أن الله تعالى قد أمر، فإذا ثبت أن الله قد أمر فهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

لم تتلكأ هذه الأمة ولم تتباطأ في تقبل حكم الله تعالى، ولم تقل كما قال من قبلهم حين أمروا بذبح البقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، ولم يقولوا: ادع لنا ربك يبين لنا كيف نتحول؟ ولماذا نتحول؟ وعلى أي كيفية نتحول؟ على غرار ما قالت بنو إسرائيل في قصة البقرة[2].

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى 4 محاور:

1 – حكمة الله تعالى في تحويل القبلة، وشغب اليهود والمنافقين في ذلك، وجدالهم بالباطل (142 – 152).

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةٗ تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ

(1) تفسير القرآن الكريم ج1 / 435 بتصرف – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.
(2) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم.. الفاتحة والبقرة ص 153 – 154بتصرف.

فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ
قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾
وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا
كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا
مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ
تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

(لقد ورد الأمر بالتوجه إلى الكعبة في هذه الآيات الكريمة أربع مرات متتابعات، الأولى لبيان فرضيتها بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والثانية لتقرير علم أهل الكتاب بها وجحودهم إياها بقوله ﷻ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، والثالثة لبيان أحقيتها بأن تكون قبلة واستدامة توجه المسلمين إليها بقوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، والرابعة لتطهير القلوب من الخشية مما سوى الله، وتبليغ الدعوة إلى الناس وإقامة الحجة والشهادة عليهم يوم القيامة، فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾)[1].

(1) تفسير القرآن الكريم ج1 / 452 – 453 بتصرف – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

وما أجمل ما ذكره د. رأفت المصري:

(وتحويل القبلة عن بيت المقدس إنما جاء في هذا السياق الخطير لتجريد اليهود من ثوب التباهي بالأستاذية، ولزرع قيمة «الاستقلالية» في قلوب أبناء الأمة)[1].

ثم تنتقل الآية التالية ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ (151). لتذكير المسلمين بمنة الله تعالى عليهم في إرسال الرسول ﷺ، وذلك لأجل تلاوة آيات الله عليهم، وتزكيتهم بهدايتها، وتعليمهم ما لم يعلموا من معارفها.

وفيها إشارة لطيفة أن الهداية إلى هذه القبلة الفضلى والشريعة العظيمة هي استمرار لمنة الله على المؤمنين بإرسال الرسول فيهم، وما تلا إرساله من نعم، أمر حقيق بالحمد والشكر. ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ (251)

وقد جعله الله تعالى رحمة بهم وتأليفا لقلوبهم وتحبيبًا للخير إليهم، وزيادة في التفضل عليهم، من ذرية أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رافع قواعد كعبتهم، واستجابةً لدعوته الله تعالى لهم بقوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ (البقرة 129).

2 – توطين النفوس على الصبر في مواجهة حملات التشكيك من قبل أهل الكتاب والمشركين والمنافقين (153 – 157).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

ولعلك تسأل: ما هي علاقة هذه الآيات التي تتحدث عن الصبر والجهاد والابتلاء بما سبق؟

---

(1) دستور الاستخلاف ص 302.

(لما ذكر تعنت أهل الكتاب في معاندة الحق، وذكر في مقابله استمساك الرسول ﷺ بقبلته ومنهجه؛ آذنَ ذلك بأن هذا سيترتب عليه اصطدام بين الحق والباطل، واحتدام المعركة قادم بينهما لا محالة!

فإذا كان كذلك فليتهيأ المسلمون لخوض معركة الحق، وليستعينوا لذلك بالصبر والصلاة، وإنه سيكون منهم شهداء، وهم أحياء وإن ظننتموهم أمواتًا في حدود حواسكم، وإنه سيصيبكم بلاء في تلك المعركة؛ فاصبروا، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ المحتسبين ما أصابهم فيها، الذاكرين الله فيما يتقلب بهم من ظروف، فهم المهتدون الفائزون).

3 – الحديث عن شعائر الصفا والمروة: (الآية 158):

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾.

ما علاقة الحديث عن الصفا والمروة بتحويل القبلة؟

(تتواصل الآيات في تحرير المسلمين وإخلاص توجههم نحو البيت الحرام، فبعد الاستقلال من (قبلة أهل الكتاب) في المدينة، جاء الاستقلال وتجريد القبلة من (أعراف المشركين العرب) لا سيما في مكة، حيث المسجد الحرام وحيث الصفا والمروة بقية جبلين في مكة سعت بينهما أم إسماعيل (هاجر) تطلب وتدعو الله الماء عندما ابتليت وابنها بالعطش، وجاء ذكرهما هنا في السياق بعد ذكر إبراهيم والبيت الحرام والقبلة التي توجهت إليه لبيان أن الصفا والمروة والسعي بينهما من شعائر الله، فهي من سنن الله الصحيحة المعهودة عودًا لذكرى إبراهيم وإسماعيل وأصول الحنيفية والإسلام)(1).

أما علاقة هذه الآية بما سبق من الحديث عن الصبر والجهاد ففيه إشارة لطيفة إلى أن إقامة الاستخلاف على أصل الدين الصحيح يحتاج إلى صبر وجهاد. وليس تنقية الدين مما شابه من تحريف المحرفين وأعداء الدين بالأمر اليسير.

(1) التفسير التوحيدي ج1 / 129 بتصرف – د. حسن الترابي.

4 - التحذير من كتمان الحق وبيان سوء عاقبته (159 - 162):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما بينت الآيات السابقة أن الله عز وجل يرسل رسله بالبينات والهدى ليكشفوا للناس طريقهم إلى الله وما يتقربون به إليه من عبادات (الطواف بالصفا والمروة نموذج) بينت الآية التالية (159) واجب العلماء أن يبينوا للناس أحكام دينهم، لكي يلتزموا بها، محذرة في ذات الوقت علماء أهل الكتاب الذين كتموا ما أنزل الله عليهم وشوهوا معالم الحق فيه، بالعذاب الأليم، ثم فتحت لهم باب التوبة، وتوعدت المصرين على الكفر بالعذاب الأليم (160-162) .

المقطع السابع: منهج الإسلام عقيدة وشريعة [الآيات: 163 - 203]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد انتهاء الحديث عن بني إسرائيل وانحرافاتهم، وتحويل القبلة وكشف الشبهات التي أثيرت حولها، تنتقل الآيات للحديث عن (الأمة المسلمة) المنوط بها حمل رسالة الاستخلاف في الأرض، وتبدأ بترسيخ حقيقة هامة، وهي أن (الإسلام هو الانقياد لشرع الله والقيام بأركانه وواجباته واجتناب نواهيه، والتخلق بأخلاقه عبر بوابة التوحيد الحق يقينًا في القلب وإعلانًا باللسان وظهورًا في السلوك، من دون ريب أو شك أو اضطراب أو تردد).

ويمكن تقسيم هذا المقطع إلى محورين:

• المحور الأول: إثبات وحدانية الله ورحمته ونفي الشركاء عنه: [الآيات: 163 - 167]:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ
أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ
أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا
الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا
تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

وأول ما يتبادر إلى الذهن: ما علاقة هذه الآيات بما سبقها من التحذير من كتمان العلم؟

(لما قطعت الآيات السابقة كل أمل في النجاة من العذاب والفوز بالثواب عن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وأصروا على ذلك ولم يتوبوا، وعن الذين كفروا وماتوا وهم كفار، فإن إصرارهم على ما هم عليه حرمهم من كل حسنة تكون لهم رصيدًا عند الله تعالى يوم القيامة؛ لأنهم لم يهتدوا بهداه، ولم يتبعوا الحق الذي أنزل، ولم يقوموا بحق الأمانة التي طوقوها، ولم يؤدوا الشهادة التي استشهدوا عليها، جاءت هذه الآية بيانًا (لأعظم أساس يقوم عليه الحق)، ويتوصل به إلى خير الدنيا والآخرة، وهو توحيد الله تعالى، ونبذ كل ما يعبد أو يدعى من دونه؛ إذ هو تعالى وحده مالك السماوات والأرض وما فيهما، وهو الذي يدبر كل موجود في هذا الكون، من أدق الذرات إلى أعظم الأكوان)[1].

(1) جواهر التفسير ج 5/ 210.

وتبدأ هذه الآيات بتعظيم الله تعالى ووصفه بالوحدانية (163)، والآية أيضًا بما تحمله من صفات رحمة الله تعالى بالخلق دعوة لأهل الشرك إلى الأوبة عن ضلالهم، والإنابة من كفرهم، بما تلاها من (دلائل الألوهية والربوبية) في آيات هذا الكون البديع التي لا تغيب عن ذوي (الألباب المستقيمة) (164).

ثم ذكرت في المقابل الذين (عطلوا عقولهم)؛ فصمت أسماعهم عن آيات الله، وعميت عنها أبصارهم، واتخذوا مما سواه ﷻ أو معه آلهة زائفة يوالونها ويعادون الحق من أجلها (165)، ثم رسمت صورة كاشفة لموقف قادة الضلال من أتباعهم في سائر العصور، ولموقف الأتباع الضالين من قادتهم في الآخرة، ومحاولة كل فريق منهما في نهاية المطاف التبرؤ من الفريق الآخر، إذ تنقلب المحبة المصطنعة بينهما إلى عداوة، حيث يكتشف الأتباع المخدوعون أنهم إنما كانوا آلة مسخرة في أيدي القادة، ويدركون أن أعمالهم إنما كانت نكبة عليهم ووبالًا، وأنهم كانوا في الحقيقة من الأخسرين أعمالًا (166 – 167).

• المحور الثاني: **التشريع والتحليل والتحريم حق لله تعالى دون سواه:** [الآيات: 168 – 176]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما بينت الآيات السابقة حقيقة (التوحيد الخالص)، وما يترتب عليه من ولاء وبراء، جاءت هذه الآيات لتؤكد أن التوحيد ليس مجرد عقيدة في خيال المرء أو عقله أو قلبه، فلا بد له من أن يستقر واقعًا مرئيًا وحالًا ملموسًا في الحياة، واقعًا في تصرفات الإنسان عبادة ومعاملة وعلاقات، مأكلًا ومشربًا ونظام أسرة واجتماع، لذلك أنزل تعالى الشريعة مصدقة لما وقر في القلب من عقيدة التوحيد، وكاشفة لما في النوايا من إخلاص العبودية وصدق الطاعة.

(والتوحيد والشريعة بذلك وجهان لدين واحد هو الإسلام). وذلك من خلال:

1 – التزام المنهج الإلهي في التحليل والتحريم، والحذر من اتباع خطوات الشيطان (168 – 169).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

2 – الحذر من الاتباع الأعمى لمناهج الآباء وتقاليد الأعراف الفاسدة، وتقديمها على الكتاب والسنة (170).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

3 – نعى على الكفار غباءَهم وغيابَ فطنتهم وإصرارَهم على الباطل، وقد ضرب مثل لهؤلاء بالأنعام السارحة التي ينعِق بها الراعي، أي يدعوها ويوجهها فتسمع صوته ونداءه ولا تفقه قوله أو تفهم قصده، لا تشعر إلا بقارع من عصاه يهشها بها أو حجر يزجرها به (171).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

4 – دعوة المؤمنين إلى تناول ما يختارونه من طيبات الرزق الحلال الواسع، مع الاعتراف للمنعم بفضله وحمده عليه (172)، مبينة لهم قليل ما حرمه الله عليهم (173).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾.

وفي توجيه الخطاب إلى الذين آمنوا (مفاصلة لطيفة بينهم وبين أضدادهم الكافرين في العقائد والأعمال، فإذا كان أولئك يتلقون عن الشيطان ما يمليه عليهم، ويؤثرون اتباع آبائهم الضالين في التحليل والتحريم؛ فإن على هؤلاء ألا يتلقوا إلا عن الله تعالى، وألا يمتنعوا عن تناول الطيبات التي أباحها الله تعالى لهم تقليدًا لرؤساء الكفر الذين تصرفوا كما أملى عليهم الهوى ودعاهم إليه الشيطان)[1].

---

(1) جواهر التفسير ج 5/ 333 بتصرف.

تحذير المسلمين من السقوط فيما ارتكبه قبلهم (علماء أهل الكتاب)، إذ كتموا ما كان في كتبهم من أحكام شرعية لووا أعناقها استكثارًا ومتاجرةً، وجعلوا من أحكام الشريعة ألعوبة لأهوائهم ومصالحهم، مع بيان ما ينتظره (علماء الضلالة) من عذاب أليم جزاء إصرارهم على التحريف والإضلال، رغم أن كتاب الله الذي بين أيديهم نزل بالحق، وهو الحجة عليهم وميزان قياس أعمالهم (174 – 176).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾.

المقطع الثامن: بناء المجتمع المسلم (حقيقة البر): [الآيات: 177 – 203]:

في آيات هذا المقطع، يتولى الله سبحانه وتعالى تنظيم حياة المسلمين أفرادًا وجماعات، ويصدر إليهم أحكامًا خالدة قاطعة في عدة شؤون من العبادات والمعاملات.

ويبدأ هذا المقطع بآية واحدة عظيمة شديدة الوضوح والإيجاز تنتظم (التصور الإيماني الحق) وأحكام العبادة وقواعد السلوك الإنساني الرفيع، القائم على (قاعدة البر وكليته)، والتي تسع كل نشاط مادي أو روحي، فردي أو جماعي.

وفي ذلك إشارة هامة إلى أن التدين الحق ليس هو المظاهر الخداعة التي تمتطى لأجل الدنيا والتكسب والاتجار، (كما ذكرت الآية السابقة التي تحدثت عن صورة من صورة التدين المغشوش الذي يعتمد على التحريف والتخريف)، وإنما التدين الحقيقي هو الإيمان الصادق، الذي يصدقه العمل الصالح، وتزكيه الأخلاق الرشيدة.

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ

إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

ثم تبدأ في تناول تشريعات هامة تستهدف (بناء المجتمع المسلم وحفظ استقراره):

1 – حفظ الأرواح (القصاص في القتل): [الآيتان: 178 – 179]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ
بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾.

وهذا التشريع يستهدف حماية الحق في الحياة، وكف العدوان على الدماء، مع فتح باب العفو والإحسان.

2 – حفظ (الأموال) (تشريع الوصية): [الآيتان: 180 – 182]:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ
بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ١٨٢﴾.

وهذا التشريع يستهدف تحقيق التكافل العائلي (حق الوالدين والأقربين في ماله)، فيفرض عليه الوصية لهم من غير ظلم للورثة أو إجحاف أو مضارة. مع التحذير من تزوير الوصايا، والترغيب في أدائها على وجهها الصحيح.

3 – تشريع الصيام: [الآيات: 183 – 188]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ
أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ
خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا

أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا
سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟
بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ
لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ
بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ
ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وتشريع الصيام يستهدف التربية على التقوى، وهو بمثابة دورة روحية كبرى تغذي النفس وتزكيها، وتغرس فيها الاستسلام لله تعالى في كافة أمور الحياة.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: ما علاقة الحديث عن تشريع (الصيام) بما سبقه من الحديث عن تشريع (القصاص والوصية)؟

بدا لي - والله أعلم- أنه لما أكدت الآيات السابقة (القصاص والوصية) على أهمية (التقوى) في تنفيذ هذه الأحكام، وعدم التفلت منها أو تجاوز حدودها؛ فالتقوى هي التي تضبط الشهوات وتمسك زمام الانفعالات النفسية - خاصة الغضب- الذي قد يقود إلى القتل أو إلى الجور في الوصية، لذا جاءت الآية التالية للتحدث عن أعظم الأسباب لتحقيق التقوى، وهو (الصيام) الذي يزكي النفوس ويطهر القلوب من آفاتها وأدرانها، ويعيد للأرواح صفاءها.

وقد اختتمت آخر آيات الصوم بذكر التقوى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾. [البقرة: 187]؛ لما للصيام من تأثير عظيم في غرس روح التقوى في نفوس الصائمين، وترويضهم على تحمل أعباء التكاليف الشرعية. فمن تدرب خلال ثلاثين يومًا في العام على الصيام عن الحلال هان عليه الامتناع عن الحرام الذي نهى عنه الشرع.

وجاء الحديث عن الصيام من خلال: (بيان مقاصده وغايته - ربطه بنزول القرآن الكريم - مسوغات الإفطار ومنهج التشريع الإسلامي في التيسير والتخفيف - ارتباطه بالدعاء والاعتكاف والشكر والتكبير).

والمتأمل في (آيات الصيام) قد يسأل عن حكمة وجود آية الدعاء (186) بين الآيات التي تتحدث عن الصيام، وعن علاقة الصيام بالاعتكاف [الآية: 178].

والإجابة عن هذا ذكرها د. حسين البر:

(إن المؤمنين لما صاموا طوعًا لأمر ربهم، وأحسنوا الصيام وأخلصوا فيه لله رب العالمين، كانوا من المتقين، وكافأهم الله بتحقيق سؤلهم وتلبية مطالبهم واستجابة دعائهم، في أثناء صيامهم وحين فطرهم بعد انتهاء الصيام، وفي أثناء الشهر وبعده، كأنه - سبحانه وتعالى - يقول لهم: إذا أحسنتم الصيام وأحسنتم شكر الله على ما أنعم عليكم شكر لكم ربكم أعمالكم فاستجاب لكم دعاءكم، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27].

وأما علاقة الصيام بالاعتكاف: أراد الله ﷻ لعباده في هذا الشهر ومع هذه الفريضة أن يتجردوا لله من الشواغل، فسن لهم الاعتكاف في المساجد، وأن يمتنعوا في اعتكافهم مما منعهم منه من مباشرة النساء، حتى تكون القلوب موصولة بربها، والأفئدة متجردة لله غير منشغلة عنه بشيء إلا طاعته -جل جلاله- فهذا أمر الله وهذا حده ومن حافظ على حدود الله أكرمه الله، والله يبين للعباد آياته ليعملوا بما فيها من أحكام، ليحصلوا من الله على الرضوان بوصولهم إلى مراتب المتقين)[1].

وإني لألمح علاقة لطيفة بين التشريعات الثلاثة السابقة، والله أعلم بمراده:

1 - آيات القصاص = حفظ (النفوس) -وأقصد بها النفس المادية- من التلف والهلاك.

2 - آيات الوصية = حفظ (الممتلكات) من الضياع.

---

(1) بحث تفسير آيات الصيام من سورة البقرة - نسخة للشاملة.

3 - آيات الصيام = حفظ (الروح) - وأقصد بها النفس المعنوية - من أدران الشهوات.

والوصايا الثلاث جزء من منظومة التقوى التي تغرسها التكاليف الربانية في النفوس، ليرتقي المرء في سلم العبودية ومعارج الاستسلام لله، وهو محور سورة البقرة.

ولعلك تسأل: ما علاقة الآية التالية بالحديث عن الصيام؟

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨ ﴾.

في وضع هذه الآية بعد آيات (الصيام) إشارة لطيفة إلى أن (العبد الذي يتوجه إلى الله بعبادة الصيام لا يُتصور منه أن يفعل ذلك في الحين الذي ينطلق فيه في الحياة يأكل أموال الناس بالباطل، ويغتصب الحقوق ويتلاعب بالعدالة، ويملأ بطنه من أموال إخوانه، ثم يأوي بعد ذلك متخماً إلى محراب الصلاة ليناجي الله ويدعوه بالتوفيق والرزق!

إن الأمة الصائمة القائمة في محراب العبادة أمة حريصة على أداء الحقوق والمحافظة على أمن الناس في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، أمة ترى الله في حقوق الخلق كما تراه في محراب العبادة سواء بسواء)(1).

4 - تشريع القتال في سبيل الله: [الآيات: 189 - 195]:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

(1) دستور الاستخلاف - قراءة تحليلية لسورة البقرة ص 414.

عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾
وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

تبدأ هذه الآيات بالحديث عن سؤال الصحابة عن (الأهلة) التي ينتفع بها الناس في تحديد المواقيت، وهذا له علاقة بما قبله من (أحكام الصيام ومعرفة شهر رمضان بدايته ونهايته)، كما له علاقة بما بعده من (أحكام الحج) التي ترتبط بالأشهر المعلومات، والأيام المعدودات، فلولا الأهلة ما عرفنا مواقيت كل ذلك. مبينًا أن التقوى ليست مجرد أفعال ظاهرية جوفاء (إتيان البيوت من ظهورها في مناسبات معينة كالرجوع من السفر والحج)، ولكنها أفعال تربط المسلمين بخالقهم وتذكّرهم برقابته الدائمة لهم، فتجعلهم يحرصون على ما ينفعهم ويحقق لهم الفلاح.

ثم يأتي الحديث عن (القتال في سبيل الله) في هذا الموضع إشارة إلى أن بناء المجتمع المسلم لا بد له من شوكة وقوة تحميه، وسياج يحفظ حق الأمة في إقامة أحكامها.

إن آيات القتال قد افتتحت عهدًا جديدًا في مفهوم القتال وأهدافه وضوابطه، فصار في سبيل الله وحده لا شريك له، من أجل قيم عالية وأهداف شريفة هي كف الظلم والعدوان وإخراج الناس من ظلمات القهر والاستعلاء إلى رحابة الحرية والكرامة، وحماية أرض الإسلام وأهلها، مع الإشارة إلى أهمية الجهاد المالي (الإنفاق في سبيل الله) لتوفير كل ما يحتاجه الجهاد من أموال.

5 – تشريع الحج والعمرة وتفصيل أحكامهما: [الآيات: 196 – 203]:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ
ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن
فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ
ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ

جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ
ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ
ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾.

جاء الحديث عن (الحج) مباشرة بعد (القتال لرد العدوان) إشارة إلى أن الحج يحتاج إلى جهاد لتأمينه والدفاع عن البلد الحرام، وإلا وقف المعتدون في طريق إقامة هذه الشعيرة الكبرى.

(ثم هناك ارتباط خاص بين أحكام القتال وأحكام الحج، لأن القتال جهاد لحماية الدولة في الخارج، والحج جهاد لتهذيب النفس وحماية الدولة الإسلامية في الداخل، بالجمع بين أقطارها، والتعارف العام بين شعوبها، ونشر المساواة العادلة بين آحادها)[1].

ولقد جاء الحديث عن الحج من خلال (الحج لله وحده - الحج مدرسة الأخلاق (البعد عن الرفث والفسوق والجدال في الحج) - الحج زاده التقوى- الحج دعوة للوحدة- الحج ومنهجية التيسير والرحمة - الحج تعميق لصلة العبد بربه - الحج والتكافل الاجتماعي)[2].

(1) زهرة التفاسير ج 2/ 598 - الشيخ محمد أبو زهرة.
(2) راجع مجالس النور ج1 / 127 - د. محمد عياش الكبيسي.

المقطع التاسع: مواعظ وتشريعات لبناء المجتمع الإسلامي الجديد: [الآيات: 204 – 220]:

ويمكن تقسيم هذا المقطع إلى 3 محاور:

1 – المحور الأول: الناس صنفان: منافقون مفسدون ومؤمنون مخلصون: [الآيات: 204 – 207]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

في هذه الآيات ذكر نموذجين لا يخفى أمرهما على بصير، أحدهما باع نفسه للدنيا فكان بذرة للفساد والإفساد، وآخر باعها لربه من أجل الآخرة فصلحت به الدنيا، وسلمت له الآخرة.

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو: ما علاقة هذه الآيات بما قبلها من الآيات المتعلقة بـ (الحج والأحكام الأخرى)؟

والإجابة ما ذكره د. بلال طلب رحمه الله:

(إن هذه الأحكام والتكليفات تبني التقوى في المسلم لينطلق في الأرض نحو التزكية والإصلاح، وهي الهدف من هذه العبادات، أما من لم يتبنه هذه الأحكام، ولم تنبت التقوى في قلبه، فإن إسلامه يكون مجرد قول معسول، ينافق به المجتمع، وفي الحقيقة هو رأس الفساد في المجتمع. فالناس إذن صنفان: صنف تستثيره (اتَّقِ اللَّهَ) نحو العمل ليزداد تقوى، وصنف تستثيره (اتَّقِ اللَّهَ) بشكل عكسي ليزداد عتوًا واستعلاء)[1].

(1) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم.. الفاتحة والبقرة ص 258.

وما أجمل ما ذكره د. فريد الأنصاري رحمه الله، فقال: (إن حقيقة التشريع في الإسلام، إيمان يتربع على عرش القلب، وصدق يصفي خواطر النفس، وسلم يضبط خطواتها، ويأخذ بعنانها إلى الله، بعيدًا عن حرائق الفساد في الأرض. فذلك هو الميثاق الذي جعله الله مناط التشريع، والميزان الذي نصبه لتمييز الأعمال والأقوال)[1].

2 - المحور الثاني: ادخلوا في السلم كافة: [الآيات: 208 - 214]:

بعد الإشارة إلى الطائفتين: (المؤمنين المخلصين والمنافقين المفسدين) في الآيات السابقة جاءت هذه الآيات (بمجموعة من الوصايا للمؤمنين حتى لا يقع أحد منهم في شباك أولئك المفسدين):

- دعوة كلّ المؤمنين إلى أن يدخلوا في السّلم كافة، وذلك بالتطبيق العملي لدعوة الإسلام والرعاية الكاملة لأوامره ونواهيه، مع الحذر من وساوس الشيطان الذي يعمل بكل حيلته على أن يغوي المستقيم ويضل المهتدي (208).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾.

- التحذير من التهاون في تطبيق الإسلام بكل جزئياته من خلال تهديد المصرين على المعصية والعناد بما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة (209-210).

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾.

(1) مجالس القرآن ج 3/ 376.

• بيان (سنن الله في المعرضين) من خلال الاعتبار بما جرى لبني إسرائيل نتيجة إصرارهم على الجحود والصدود والعناد. ففي التذكير بمواقف (بني إسرائيل) تثبيت لإيمان المؤمنين، وتقوية لعزائمهم على الخير، وتبصير لهم لئلا ينزلقوا فيما انزلق فيه غيرهم[1].

مع الكشف عن (علة الإعراض عن الحق)، وهو الركون إلى الدنيا وإتباع الأهواء (211 - 212).

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

• بيان (سنة الله في الاختلاف بين الناس)، فالاختلاف بين الخير والشر وأهل الإيمان وأهل الكفر ليس طارئًا في عصر النبوة المحمدية، فقد كان في الأمم قبلهم، وهو حالة ضرورية لطبيعة الابتلاء الذي بنيت عليه الحياة، واقتضت حكمة الله تعالى أن يبعث إليهم الأنبياء والرسل ويجدد لهم أمر الدين، فيهتدي من كتب له الإيمان ويضل من كتبت عليه الشقاوة (213).

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

(1) (لقد جاء الله سبحانه بذكر بني إسرائيل في هذا الموقف، لأنهم هم المثل البين في الإصرار على الكفر، بعد العلم واليقين والشهود للآيات التي تخر لها الجبال سجدًا من حين كانوا مع موسى، وإلى يومنا هذا يضرب بهم المثل لكل إصرار على الباطل، وعناد للحق. فقد أعرض كثير منهم عن الآيات البينات، أي الحجج القاطعة، وبدلوا نعمة الله كفرًا، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها. وهذا حال القلوب المغلفة بظلمة الضلال والكفر: لا تعي ولا ترى، ولا تحس أنها آيات بينات). (نظرات في كتاب الله ص 125).

• بيان (سنة الله في تحمل الشدائد والمصائب) في طريق الحق، وهي سنة مرتبطة بما قبلها من (سنة الاختلاف بين الحق والباطل)، وما يترتب على هذا الاختلاف من امتحان للمؤمنين وابتلاء لهم في سبيل دعوتهم الله ومقارعتهم للطغيان. فالطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، والمؤمنون مبتلون في أموالهم وأنفسهم، ممتحنون في إيمانهم وصبرهم.
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

3 – المحور الثالث: **الإنفاق والقتال قرينان لضمان حفظ المجتمع وترابطه**: [الآيات: 215 – 220]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما ذكرت الآية السابقة حتمية (ابتلاء المؤمنين)، ذكرت هذه الآيات (صورًا من هذا الابتلاء في المال والنفس)، فذكرت مسؤولية المجتمع المسلم في ذلك من خلال أمرين:

• (حفظ الداخل) من أعداء الفقر والتمزق الاجتماعي من خلال الحث على الإنفاق في سبيل الله لحفظ حقوق الضعفاء، ويحصل التكافل داخل المجتمع المسلم، وتحقيق الترابط العائلي بصلة الأرحام (215).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

• (حفظ الخارج) من أعداء الإسلام من خلال القتال في سبيل الله رغم ما يكتنف ذلك من جهد ومشقة. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

ومن صور تلك المشقة ما يبثه العدو من دعايات كاذبة لتوهين الصف المسلم (تشنيع المشركين على المسلمين لقتالهم إياهم في الأشهر الحرم) والرد عليهم، مع التأكيد على أن كيد الأعداء لا مطمح في انتهائه ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن

دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، وهذا يهيج المؤمنين على الصبر والثبات والحذر من فتنة الردة عن هذا الدين، وبيان عواقبها الوخيمة (217)، في مقابل البشرى لمن أطاع أمر ربه وجاهد في سبيله بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة (218).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

ولعلك تسأل: ما علاقة الآيات التالية التي تتحدث عن (أحكام الخمر والميسر والإنفاق) بما سبق من الحديث عن (مشقة الجهاد والثبات على دين الله) والاعتصام به حتى الموت؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾. **والإجابة عن ذلك مفادها:**

لما وجد المسلمون عنتًا في المواءمة بين (مقتضيات العقيدة) التي آمنوا بها وأصبحت قوام حياتهم، وبين بعض (الممارسات التي ألفوها وتعودوا عليها)، واكتشفوا تعارضها مع قيم الفضيلة والمروءة التي يبشر بها الدين الجديد، جاءت هذه الآيات للحديث عن ﴿ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ وهما عادتان متأصلتان في المجتمع الجاهلي، فبينت أن ضررها أكبر من نفعها، وفيه إتلاف للمال، لذا جاء الحديث عن منهجية (حسن ترشيد الإنفاق) في نفس الآية، في إشارة إلى صرف المال الزائد إلى ما ينفعهم في آخرتهم بدلًا من إهداره في الخمر والميسر (219).

ثم وجههم الله تعالى إلى أفضل الطرق لاستثمار المال في الآخرة، من خلال الإنفاق على اليتامى وتقديم ما يصلحهم بهذا المال (220).

المقطع العاشر: (تنظيم البناء الاجتماعي والإصلاح الأسري): [الآيات: 221 - 242]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

في هذا المقطع (ينتقل التشريع القرآني إلى مرحلة أخرى، ويرتقي بمجتمع المؤمنين درجة أعلى من التماسك والانسجام). فقد بَيَّنَ الله سبحانه- كما رأينا بالمقطع السابق - أن هذه الأمة أمة مجاهدة لا تستكين لعدو ولا تلين في دين. وأنها أمة متكافلة متراحمة، لا يجوع فيها فقير ولا مسكين ولا تتشرد فيها أرملة ولا يتيم. وذلك لا يكون إلا بوجود أسر مبنية على أساس متين، محمية بسياج من الدين، تتولى رعاية الأرامل وكفالة الأيتام. ومن ثم ناسب ذلك كله بيان أحكام بناء الأسرة المسلمة، وتفصيل أحكام إدارتها[1].

وقد جاء الحديث عن (الأسرة المسلمة) من خلال 4 نقاط:

1 - الحياة الزوجية: وفاق وولاء (221):

وذلك ببيان الأساس الأول الذي يُبنى عليه البيت المسلم، ألا وهو الإيمان بالله، وأكد ذلك بتحريم زواج المسلم من المشركة، والمسلمة من المشرك.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

2 - أدب المعاشرة الزوجية: (222 - 223):

(المنع من إتيان الزوجة وقت المحيض، النساء موضع حرث الرجال، بحيث يستودعوهن بذور الحياة التي يمتد بها وجود الجنس البشري قرنًا بعد قرن).

---

(1) مجالس القرآن ج3 / 408 - 409.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾.

3 – حكم الإيلاء (وهو أن يحلف الرجل ألا يجامع زوجته): (224 – 226):

وبدأت الآيات بالنهي عن الحلف في الامتناع عن فعل الخيرات عمومًا، وذلك كتمهيد للحديث عن الحلف على حرمان الزوجة من حقها في المعاشرة ليعلم المسلم أنه لا يوجد أي مانع يمنعه من فعل الخير والحفاظ على بيته، وبينت الفرق بين يمين اللغو واليمن المنعقدة.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٢٥ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧﴾.

4 – أحكام في حفظ الحقوق الزوجية: (228 – 242): وهي تشمل:

• **الأحكام المتعلقة بعدة المطلقة وأدب الفراق** (227 – 232).

وفيها: النهي عن الإمساك ضرارًا والعضل (منع المرأة من العودة لزوجها بعد الطلاق).

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ

يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

• مسؤولية الزوجين عما ينجبان من الذرية: أحكام الرضاع والفصال (الفطام) (233):

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

• أحكام متعلقة بالمرأة التي توفي عنها زوجها (عدة الوفاة – خطبة المعتدة) (234 – 235):

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًاۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

- **حفظ حقوق المطلقة والأرملة:** (236 – 242):

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى
ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن
تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ
عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ
فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ
إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَـٰتِ مَتَـٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

ولعلك تسأل: ما مناسبة الحديث عن (الحفاظ على الصلاة) في وسط الأحكام المتعلقة بالأسرة؟

﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾.

ووجه التناسب في ذكر (الصلاة) بعد ذكر بعض أحكام (الأحوال الشخصية) حتى تكون الصلاة مذكرًا عمليًا للإنسان بالمحافظة على هذه الأحكام، إلى جانب المذكر القولي، وهو ربط هذه الأحكام بالإيمان به سبحانه وتعالى.

إن هدف الصلاة النهي عن الفحشاء والمنكر، والطلاق مظنة الوقوع فيهما لما قد يصاحبه من تضييع الحقوق والظلم والفاحش من القول والفعل.

فالدعوة إلى الصّلاة تذكير بالله وبجلاله وعظمته ورحمته وبما يبعث هذا التذكير في نفس المؤمن من استجابة لأوامره وامتثال لأحكامه، إذ كانت الصلاة عماد الدين وأكثر العبادات أثرًا في تثبيت مغارس الإيمان، وفي النهي عن الفحشاء والمنكر.

وفي الجمع بين الصلاة الوسطى[1] وصلاة الخوف في هذا السياق فيه إشارة لطيفة إلى أن هذين الوقتين (وقت الصلاة الوسطى - صلاة الخوف) قد يدفعان العبد إلى نسيان الصلاة أو التكاسل عنها؛ فجاء الحفاظ عليها في هذين الوقتين تأكيدًا على أن الذي يعرف حق الله (الصلاة) في أصعب الظروف يعرف حق العباد في أضيق الأحوال (الطلاق)، وخاصة أن النفوس تميل عند الطلاق إلى الشح بالعطاء وتضييع الحق)[2].

المقطع الحادي عشر: مقومات عزة الأمم (قصة طالوت وجالوت): [الآيات: 243 - 254]:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟
ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ
مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ

---

(1) (وللعلماء أقوال في المراد بالصلاة الوسطى التي أفردها الله - تعالى - من بين الصلوات).
فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة، وأن الوسطى مؤنث الأوسط أي الشيء المتوسط بين شيئين، فالصلاة الوسطى هي الصلاة المتوسطة بين صلاتين، إلا أنهم اختلفوا في تعيينها.
فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس، إذ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان، ولأنها وسط بين صلاتي النهار، وصلاتي الليل، فمعنى التوسط فيها واضح، ولأنها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الظهيرة الذي يكون في الغالب وقت كسل. (راجع التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 1 / 713 - 715) - الشيخ محمد سيد طنطاوي.
(2) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم - الفاتحة والبقرة - ص 337 بتصرف.

قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ
قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ
مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ
تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ
بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم
مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾
وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا
وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ
وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾
تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ
فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا
بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾.

◄ علاقة آيات هذا المقطع بما قبله:

تنتقل الآيات من الحديث عن (الأسرة الصغيرة) إلى الحديث عن (الأسرة الكبيرة) - الأمة - فبينت ما يتعلق بحفظ وجودها وكيانها وعزة استقلالها بمدافعة المعتدين عنها.

(كما أن فيه إشارة إلى أن تطبيق الأحكام يتطلب الجهاد كقوة تدفع عملية التبليغ للعالمين، وتحمي التطبيق من بعد التبليغ بسياج الهيبة التي تحول دون اعتداء قوى الباطل.

والكلام عن الجهاد والقتال يتكيء على مهمتين لابد من تهيئتها لعملية الجهاد:

الأولى: الإعداد النفسي، وعماده الاعتقاد بأن الجهاد لا ينقص من العمر، والكف عنه لا يزيد فيه، فالآجال مكتوبة منذ الأزل ومحددة (243).

والثانية: الإنفاق، وهو العصب الصانع للانطلاقة الجهادية[1] [الآيات: 244 - 245].

وهناك لفتة جميلة في علاقة (قصة طالوت وجالوت) بما قبلها من الآيات التي تتحدث عن النظام الاجتماعي وأحكام الأسرة، ذكرها د. **بلال طلب** رحمه الله:

(إن كل ما سبق في السورة من الحديث عن الأحكام والأسرة، وتأدية الحقوق، والانتصار للحق عند التنازع، ومقاومة أهواء النفوس في الانتقام لها، كل ذلك معارك مع النفس ومجاهدة لها، وهو ميدان اختبار أشد من ميدان المعارك مع العدو، وإذا انتصرت الأمة على نفسها وأدت حق الله تعالى وحقوق الآخرين بنفس راضية مستسلمة لأحكام الله تعالى وأوامره، فقد انتصرت على عدوها وقدمت القربان لله تعالى الذي تستحق به نزول النصر)[2].

◄ **قصة طالوت وجالوت (سنة التدافع بين الحق والباطل)**: [الآيات: 246 - 252]:

بعد أن دعت الآيات السابقة إلى الاعتبار بتجربة الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت على وَجَازَتِها، وبنى عليها الأمر بالجهاد والإنفاق في سبيل الله، التفت إلى التذكير بتجربةَ أخرى أكثر تفصيلًا، هي (تجربة بني إسرائيل) من بعد موسى إذ ضعفوا بعد قوة، وذلوا بعد عز ورفعة، وانحرفوا عن تعاليم التوراة، فغلبهم أعداؤهم ونهبوا مقدساتهم، واستباحوا أعراضهم، فانتفضوا في صحوة

(1) دستور الاستخلاف ص 549 - 550 بتصرف.
(2) الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم الفاتحة والبقرة - ص359.

ضمير وإيمان لاسترجاع الكرامة المداسة والعرض المهان والمقدسات المنتهبة والحرية المفتقدة، يذكر الوحي بهذه التجربة لما انبث في تفاصيلها من عبر وعظات وإشارات ومبادئ متعلقة (بالتربية الجهادية والعقيدة القتالية) اللازمة لبناء المجتمع الإسلامي الجديد.

إنها قصة أمة امتحنها الله بنوع من (الجهاد النفسي) فرسبت وسقطت وأصبحت لا تصلح للجهاد الخارجي إلا قليلًا ممن ثبتوا في ميادين الجهاد، واعتصموا بربهم عبر الصبر والدعاء؛ فكتب الله لهم النصر على عدوهم.

وختمت القصة بتأكيد (بسنة الله في التدافع) بين الحق والباطل، ثم بينت الآيات التالية (سنة الله في الاختلاف بين البشر)، رغم اصطفاف رسل الله المكرمين في وجه الباطل والطغيان، وهذا الاختلاف يترتب عليه الاقتتال بينهم (التدافع) (253).

ولو شاء الله لمنع القتال بينهم، لكن سبقت كلمة ربك لإمضاء سنة التدافع بين البشر، وإمضاء سنّة حرية اختيارهم لما يفعلون.

لذا ينبغي على المسلمين أن يواصلوا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وأعراضهم وعقيدتهم، بإعداد أدوات القتال، وسد ثغرات الضعف في المجتمع المسلم، تكافلًا وتعاونًا وقيامًا بحاجات الفقراء والمحتاجين، لذلك أشارت الآية إلى أحد الواجبات المهمّة عليهم التي تتسبب في تقوية بنيتهم الدّفاعيّة وتوحّد كلمتهم، وهي (الإنفاق في سبيل الله)، مقرون بتهديد واضح ووعيد شديد لمن يبخلون (254).

المقطع الثاني عشر: (أولياء الله وأولياء الطاغوت): [الآيات: 255 – 260]:

يستهل هذا المقطع بأعظم آية في كتاب الله وهي (آية الكرسي).. فما حكمة وضعها في هذا السياق؟

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

أقول - والله أعلم بمراده - بعد الاستفاضة في عرض الأحكام والتشريعات في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والعسكرية، جاءت (آية الكرسي) وهي تحمل أنوار الجلال والجمال، وفيوضات العظمة والكمال بما يسكب في القلب الخشية والخشوع لهذا الإله العظيم، فينطلق لسان حاله قبل مقاله ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فكل صفة من صفات الله ﷻ في هذه الآية العظيمة تملأ القلب مهابةً وتعظيماً، وتقود العبد إلى محراب العبودية الخالصة.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط:

(ولعل ورود آية الكرسي أعظم آية في القرآن بين آيات الجهاد وآيات الإنفاق تذكير للعباد بعظمة الله ربهم فتهون أنفسهم وأموالهم في سبيله، فيبذلونها طواعية ابتغاء مرضاته سبحانه، وإعلاء لكلمة التوحيد)

وهناك مناسبة قريبة للآية السابقة التي تحدثت عن (الإنفاق) ذكرها د. محمد عناية الله سبحاني:

لما ختمت الآية السابقة بأن (يوم القيامة لا يكون فيه بيع، ولا تجدي فيه خلة خليل ولا شفاعة شافع، انتهز السياق هذه الفرصة السانحة، وجاء بعدها مباشرة بآية الكرسي، وهي أجمع آية وأشملها وأقواها في إبطال الشفاعة وتهديم بنياتها، فإن الشفاعة التي يعتقدها الغافلون أو الكافرون الظالمون تتعارض تعارضًا مباشرًا مع صفات الله وأسمائه الحسنى.

هي تتعارض مع قدرته الكاملة وسلطته الواسعة ومراقبته الدقيقة وعلمه المحيط، الذي لا نهاية له. هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإننا علمنا قبل قليل أن قصة طالوت جاءت تكشف عن حقيقة - فيما تبين - أن الصلة بالله والقتال في سبيله هو سر الحياة، والأمة المجاهدة في سبيله والمتصلة به هي التي تذوق لذة الحياة، وأما الأمة المتقاعسة المتخاذلة، التي تحذر الموت وتقعد عن الجهاد فلا حظ لها من الحياة، وإنما لها الموت. وفي آية الكرسي بيان أن الله هو الحي القيوم، فهو الذي يملك الحياة ويمنح الحياة وهو القائم بأمر العباد والبلاد، فمن كان يريد الحياة والبقاء فليسرع إليه، ولا يعدل عنه إلى غيره)[1].

(1) البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران ص383 - 384 بتصرف.

وبعد بيان (هيمنة الله التامة) على السموات والأرض، وأنه لا يقوم أمر إلا به أوضحت الآية التالية أن الله مع كمال قدرته وعظيم سلطانه ونفوذ مشيئته لا يجبر الناس كرهًا على الإيمان، وإنما يبين لهم طريق الرشد وطريق الغي، وعاقبة اختيار كل منهما (256).

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾.

فشتان شتان بين ولاية الله لعباده المؤمنين، وولاية الطاغوت من شياطين الإنس والجن، وأين يذهب من كان الشيطان وليه ممن كان الله معه ووليه وناصره؟! (257)

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ ﴾

وبعد أن ذكر الفرق بين ولاية الله وولاية الطاغوت، ذكر هنا ثلاثة نماذج من (ولاية الله لعباده المؤمنين):

1 - (ولاية الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام) بإيتائه الحجة الساطعة والبرهان السديد في مواجهة الطاغوت (النمروذ) المنهزم في الدفاع عن باطله وادعائه الألوهية (258).

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ ﴾.

2 - (ولاية الله تعالى للرجل الذي مر على قرية خاوية)، وتعجب من إحياء الله تعالى لها، فكانت تجربة ولاية الله له للارتقاء في منازل اليقين (259).

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩ ﴾.

3 - (ولاية الله ﷻ لإبراهيم عليه السلام) إذ أراه إحياء الموتى رأي العين، وهي ولاية الهداية والكشف (260).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٦٠﴾.

وهناك مناسبة لطيفة بين قصة (إبراهيم عليه السلام مع الملك الظالم) وبين (طلبه من الله تعالى رؤية كيفية إحياء الموتى) ذكرتها الأستاذة زينب الغزالي رحمها الله:

(لقد شهدنا لإبراهيم من قبل مع النمروذ ما يدل على إيمانه الواثق بأن الله يحيى ويميت، وها هو ذا هنا يجب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين، أرقى مراتب العلم من الله. إنه الشوق لرؤية الحقائق المستورة. إنها أشواق قلب وروح لتشهد آية من آيات القدرة تزيد القلب على نجاح الدعوة اطمئنانًا، وتعطى الحجة على المخالفين قوة وسلطانًا، وتضيف إلى الدلائل الكثيرة برهانًا جديدًا. بل إن إبراهيم يطلب درسًا عمليًا باعتباره معلمًا، ولا بد من تربية عملية تسبق العملية التعليمية)[1].

المقطع الثالث عشر: (النظام الاقتصادي في الإسلام (فقه المعاملات المالية):

[الآيات: 261 - 274]:

تمهيد:

(يأتي الأمر بالإنفاق في سبيل الله في هذا المقطع، بصفته لبنة أساسية في بناء جانب من نظام الاجتماع الإنساني متعلق بالاقتصاد في وجهه (التكافلي التراحمي) صدقة في سبيل الله تعالى، وفي وجهه (التعففي) عن استغلال حاجات الناس وابتزازهم مراباةً أو ديونًا مجحفة أو رهنًا قاسيًا ظالمًا.. وتميزت هذه الآيات بتفصيل أمر الإنفاق والترغيب فيه وبيان أدبه وأخلاقه، وتمييز حلاله من حرامه، ونافعه من ضاره، وما يقبل منه في ميزان الله وما لا يقبل، كما عالجت أمراضًا نفسية واجتماعية واقتصادية

(1) نظرات في كتاب الله ص 162.

تنخر المجتمعات، وتجعل التصرف في الأموال أداة فساد وإفساد، مثلما هو شأن الذين يبخلون عن مساعدة الفقراء والمحتاجين، والذين يجعلون من الإنفاق أداة للتطاول والفخر والرياء)[1].

والحديث عن (النظام الاقتصادي في الإسلام) يشمل ثلاثة أمور:

1 – الحث على الإنفاق في سبيل الله والترغيب فيه، لتنتفي الحاجة إلى التعامل بالربا.

2 – التحذير من الربا وبيان خطره على الفرد وعلى الأمة.

3 – أحكام الدين والرهن (بدائل الربا).

أولًا: الحث على الإنفاق في سبيل الله والترغيب فيه: [الآيات: 261 – 274]:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ
سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ
ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ
صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ
أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ
فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟
ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

(1) تفسير القرآن الكريم ج 1/ 758 – 759 بتصرف – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ
وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ
يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا
وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ
وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ
لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

ما علاقة الحديث عن (الإنفاق في سبيل الله) بالآيات السابقة؟

لما تضمنت القصص الثلاث السابقة مشاهد مثيرة لقدرة اللّه العظيمة وتدبيره الحكيم، وهذا من شأنه أن يشعل أنوار الإيمان في النفوس ويفتح القلوب إلى الخير ويهيئها لاستقبال دعوات الحق وتقبلها، جاءت الآية التالية تدعو إلى البر والإحسان عبر الإنفاق في سبيل الله.

وهناك مناسبتان لطيفتان للآية (261) في علاقتها بسابقتها التي تناولت طلب (إبراهيم عليه السلام رؤية كيفية إحياء الموتى):

1 - لما ركزت القصص الثلاث السابقة على قدرة الله من خلال (الإحياء والإماتة) اللذين زعم الملك الطاغية أنه يقدر عليهما، جاءت الآية التالية لتعرض صورة (الإحياء والإماتة في النبات) بعدما عرضتها الآيات السابقة من خلال (الإنسان - الحيوان - الطير)[1].

(1) مستفاد من التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج1 / 354 - 355.

2 - (إنبات الحبة شكل من أشكال إحياء الموتى، فناسب ذكرها بعد ذكر الطير، فإذا كان (سعي الطير) إلى صاحبه مثالًا واضحًا لإحياء الموتى في الدُّنيا، فإن (سعي الحسنات) إلى صاحبها مثال جلي في قبول نفقات المؤمنين وإحيائها في الآخرة، (كما) أن المنفق أمواله في سبيل الله تعالى، هو أشد الناس إيمانًا بالإحياء بعد الموت؛ فإنَّ من ينفق ماله في سبيل الله مطمئنًا قلبه بسعي نفقته إليه يوم القيامة، فهو كالذي جَعَلَ على كل جبل من الطير جزءًا، وهي إشارة صريحة في أن شرط الإنفاق هو الإيمان بالله تعالى وبالبعث رجاء ما عنده تعالى)[1].

وقد جاء الحديث عن (الإنفاق في سبيل الله) من خلال محورين:

1 - **المحور الأول**: التحريض على الإنفاق في سبيل الله تعالى والترغيب فيه وبيان فضله على المنفق وعلى المجتمع من خلال ضرب مثل رائع يبرز مضاعفة الرزق والأجر إلى أقصى الحدود (261).

2 - **المحور الثاني**: ضوابط وشروط وآداب (الإنفاق المقبول) عند الله ﷻ:

- ابتغاء وجه الله والبعد عن المن والأذى (262 - 263).
- ضرب المثل للمنفق المرائي والمتصدق بالمن والأذى في مقابل المنفق ابتغاء وجه الله (264 - 265).
- التحذير من نتائج الرياء والمن والأذى عبر مثل قرآني بليغ (266).
- دعوة إلى (الإنفاق من حلال الكسب وطيب الأرزاق)، والحذر من إنفاق الخبيث والرديء، والتحذير من الشيطان الذي يمنع العبد من الإنفاق الحسن ويزين له إنفاق الخبيث من أمواله (267 - 268).
- بيان أن حسن التصرف في المال بإيتاء ذوي الحقوق حقوقهم منه، وعدم غمطهم شيئًا منها، هو من أبين الحكمة. فشتان بين وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس! (269).

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج4 / 190.

• التأكيد على أن هذا الإنفاق تحت عين الله، فهو يثيبهم عليه، ويخلفهم خيرًا (270).

• تنوّع طرق إخراج الصدقات بين الإسرار والإعلان والليل والنهار، وبيان أن هداية البشر إنما هي بيد الله تعالى وحده. وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إشارة إلى أن دعوة إيتاء الصدقات للفقراء يشمل جميع الفقراء، سواء المهتدون إلى الحق، أو المعرضون عنه (271 - 272).

• بيان صفات بعض المستحقين للصدقة، والثناء على المنفقين ببيان حسن عاقبتهم، وعظيم ثوابهم (273 - 274).

2 - التحذير من الربا وبيان خطره: الآيات (275 - 281):

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ
ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

إذا كان (الإنفاق في سبيل الله) = بذل المال من غير مقابل، فإن (الربا)= بذل المال في مقابل الحصول على مزيد منه استغلالًا لحاجات الناس، وهو يمثل صورة مشوهة لنفوس بشرية لوثها الجشع وأماتت القسوة فيها كل معاني الرحمة والشفقة والإنسانية.

فالصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل. والربا شح وقذارة، ودنس وأثرة، وفردية واستغلال مقيت لحاجة الناس.

وهذه الآيات توجه أقوى الحملات إلى الربا، وأقسى الطعنات إلى المرابين المستغلين، إلى حد أن ينذرهم بإشهار حرب عليهم هي أخطر الحروب وأفتكها، إذ يشنها عليهم الله ورسوله، فلا مناص لهم من الخذلان والبوار (275 – 279).

وبين الله ﷻ ما يجب على المرابين عند توبتهم عن التعامل بالربا، ثم أمر سبحانه الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدون منه ديونهم (280).

وختم بالتذكير بملاقاة الناس ربهم ليحاسبهم على أعمالهم، والتأكيد على قيمة التقوى في هذا اليوم العظيم (281).

3 – أحكام الدين والرهن (بدائل الربا): الآية (282 – 283):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ
كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي
عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا
أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ
يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا
إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً
حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ
أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن
يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما بينت الآيات السابقة طبيعة (الأموال التي تنفق) فيقبلها الله تعالى ويضاعفها ويدخرها لصاحبها ويثيبه عليها، وطبيعة (الأموال الربوية الخبيثة) التي يركسها الله مع صاحبها في نار جهنم، جاءت هذه الآيات لتبين للناس (طرق حفظ أموالهم) عند التعامل بها وتسخيرها لما ينفعهم ويشيع بينهم روح التعاون والتكافل والتسامح، بيعًا وشراءً ومعاملات تجارية مبرأة من الربا، وقرضًا حسنًا يراد به وجه الله تعالى.

وجاءت الآيات تحث على كتابة الدين وتوثيقه والإشهاد عليه، وأحكام الرهان لمن كان على سفر. وهي أطول آية في كتاب الله، وتختم بالتذكير بالتقوى وهي ضمانة تنفيذ الأحكام الربانية وحفظ الحقوق الإنسانية.

المقطع الرابع عشر(الأخير): سمعنا وأطعنا: الآيات (284 – 286):

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرٗا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾.

◄ مناسبة هذا المقطع للسياق العام للسورة:

(جاءت هذه الخاتمة للسورة مناسبة لما تضمنته على الإجمال، من العقائد والقصص، والتشريع، والوعد والوعيد الدائر جميعه على معنى إخلاص التطبيق لله، وعدم التلجلج في تلقي أحكامه وحِكَمِه جَلَّ عُلاه، والتحذير من مغبة التمرد عليه تعالى، أو التحايل على شريعته، كما تمردت بنو إسرائيل من قبل وتحايلت، فكانت هذه الخواتيم الكريمة إذن تمييزًا لِأُمَّة ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عن أُمَّةِ ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾)[1].

---

(1) مجالس القرآن ج3 / 616.

وتفصيل ذلك ذكره الشيخ محمد المكي الناصري، فقال:

(بعدما تعرضت سورة البقرة للتكاليف الدينية والتشريعات الإسلامية في مختلف الشؤون الروحية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نجدها تختتم بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾، مؤكدة بذلك مدى التكليف في الشريعة الإسلامية، وأنه لا يتجاوز حدود الطاقة الإنسانية.

وبعدما قَصّت سورة البقرة على المسلمين قصةَ بني إسرائيلَ، وما عاقبهم الله به على عنادهم وجحودهم من التكاليف الصعبة والكفارات الثقيلة، تختتم بدعاء الخشوع والضراعة إلى الله، رجاء رفقه بعباده المؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ﴾.

وكما طالب الله المسلمين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وحضهم على ذلك في عشرات الآيات من سورة البقرة، وبشتى وجوه الحض والإغراء، تختتم نفس السورة برجاء الحق سبحانه وتعالى أن يحقق للمسلمين وعده، وذلك قوله تعالى على لسانهم: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾)[1].

◄ مناسبة هذا المقطع لما قبله:

(لما ختمت الآيات السابقة بالحديث عن أمانة الكتبة والشهود، وما كان فيها من النهي عن المخالفة إلى الغدر والخيانة وكتمان الشهادة. جَاءَتِ الخواتيم تُحَذِّرُ العباد، وَتُذَكِّرُهُمْ بعظمة الله وسَعَةِ ملكه، وبعلمه المحيط بكل شيء، الخبير ببواطن الأنفس وظواهرها، وأنه تعالى أعلم بما في صدور عباده، وبما قد يُسِرُّونَهُ من الخيانات، أو نقض العهود والأمانات، أو تزوير الوثائق والشهادات)[2].

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 1/ 200 - 201.
(2) مجالس القرآن ج3 / 615.

(وفي بدء الآية بقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة لطيفة إلى أن من انقادت له السماوات بعظمتها وشدتها والأرض بما عليها، حق على الإنسان أن ينقاد له، فينسجم مع كل ما في الكون من الانقياد والخضوع والتسبيح)[1].

لذا جاءت الآيات التالية للثناء على المؤمنين الذين صدقوا بالوحي، واستجابوا لتكاليفه وتبعاته، وخضعوا لأحكامه وتشريعاته، ومبشرة لهم بأن الله لا يكلفهم من الدين إلا ما يطيقون، في مقابل عقاب الله تعالى لبني إسرائيل من التكاليف الصعبة والكفارات الثقيلة، وذلك نتيجة لعنادهم وجحودهم، وختمت بدعاء خاشع ضارع يعبر عن إحساس مرهف بضخامة المهمة وعظم المسؤولية، وهو دليل على صفاء نيتهم وصدق عزيمتهم وعلو همتهم. فكانوا مثلًا فذًا في السمع والطاعة والبذل والتضحية.

❊ ❊ ❊

(1) دستور الاستخلاف ص 644.

سورة آل عمران

موضوع السورة

(الثبات على المنهج الرباني)

تركز سورة (آل عمران) على (تحصين البناء الفكري للأمة) عبر ترسيخ مفاهيم إيمانية وسنن ربانية.

- فالجزء (الأول) منها في مواجهة (أهل الكتاب) يتناول (معركة الحجة والبرهان) ويركز على بناء المفاهيم والتصورات الإيمانية، من خلال كشف شبهات أهل الكتاب وفضح مخططاتهم، وإظهار عوارهم الفكري، وتدينهم المغشوش، وقيمهم الزائفة.
- والجزء (الثاني) منها حديث عن غزوة أحد (معركة السيف والميدان)، ويركز على سنن ربانية وقوانين إلهية تحصن المجتمع من شرور الهزيمة النفسية، وتمنحه مناعة إيمانية في أوقات الانكسارات والإخفاقات، فهذا الجزء مليء بالسنن المتعلقة (بالنصر والهزيمة - الحياة والموت- الاصطفاء والشهادة - المداولة - الفرز والتمحيص - الأسباب والمسببات - الصبر والجهاد - الثبات والإخلاص - وغيرها...).

(على هذا النهج تمضي السورة المباركة مفعمة بالرشد والهداية تعيد تربية الإنسان الذي ولد من جديد بالتحاقه بركب الإيمان والإحسان، وتصور صراعه مع نفسه وهواجسها ومخاوفها، ومع ذوي العقائد الضالة من خصومه، مجادلًا ومحاججًا بالجنان واللسان، أو مجاهدًا بالسيف والسنان، أو مهاجرًا مفارقًا للأهل والأوطان، لا يصده عن دينه صاد ولا يرده راد، سمع نداء الإيمان فصدع بالاستجابة، وسقته غمائم الرحمة فأسرع بالإنابة، وأدركته نسائم الجنة فاشتاق إليها وعمل لها)[(1)].

(1) تفسير سورة آل عمران ص 14 - الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

والجو الذي يظلل (سورة آل عمران) هو الصراع والتحدي، والصبر والصمود، والجهاد والتضحية، والمعركة والدفاع عن العقيدة، والثبات في مواجهة طوفان الباطل.

ولعل تسمية السورة (بآل عمران) يشير إلى ثبات هذه الأسرة المؤمنة على الحق، وإخلاصها في توحيدها، وتضحيتها في سبيل الدعوة وإقامة الدين.

◄ مناسبتها لما قبلها:

1 - (لئن كانت سورة البقرة قد عرضت لمهمة الاستخلاف على هذه البسيطة وما يستلزمه من أغراض، فقد جاءت سورة آل عمران لتُفَصِّل ببعض ما يلزم هذا الاستخلاف من ثبات على العقيدة ورسوخ فيها، وتعرض النماذج الحية على ذلك من الأخبار الماضية ومما شهده الجيل الأول الذي عاش نزول القرآن فيما جرى معهم في أحد)(1).

2 - (ولئن كانت سورة البقرة مرحلة إعداد وتربية للجهاد، وكانت مرحلة حث وتحريض عليه، فإن سورة آل عمران جاءت لتنتقل بهؤلاء المؤمنين من مرحلة الإعداد والتربية إلى مرحلة التطبيق والتنفيذ، فدخلت بهم في معركة فاصلة بين الإسلام والكفر، ثم تناولت أحداث تلك المعركة بالتفصيل، ليكون ذلك إعدادًا لما سيتبعها من المعارك.

ولئن كانت سورة البقرة تخاطب جماهير اليهود والنصارى، وتتحدث عنهم، فإن سورة آل عمران تخاطب علماءهم وأحبارهم. ولعل هذا السر في أن هذه السورة يغلبها جو الحجاج واللجاج)(2).

3 - (ولئن تميَّزت سورة البقرة (بالأسلوب المنهجي) في بناء الدولة المسلمة الأولى، فإن سورة آل عمران تميَّزت (بالأسلوب العاطفي والتربوي) في بناء ذات الدولة المسلمة، ذلك أن المنهج هو الأصل الذي يُقاس عليه، والتطبيق قد يتماشى مع

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 4/ 492.
(2) البرهان في نظام القرآن ص 643 - 644 بتصرف - د. محمد عناية الله سبحاني.

المنهج وقد يختلف عنه، وبالتالي فإن سورة البقرة وإن كانت قد صوَّبت المنهج، فإن سورة آل عمران صوَّبت التطبيق، وكان في غزوة أحد خيرُ شاهدٍ لحاجة المسلمين على تصويب حركتهم وفهمهم، وحاجتهم لإعادة تنظيم صفوفهم وتجديد الثقة فيهم، وتأهيلهم نفسيًّا لأنْ يُجابِهوا الكافرين مرَّات ومرَّات قادمة.

ولئن شرعت سورة البقرة في الاستطراد في الأحكام المنهجية لبناء دستور المدينة المنورة والتشريعات الضرورية لحفظ مقاصد الدين الضرورية، فإن سورة آل عمران شرعت في بيان الأحكام التربوية والأصول الاعتقادية لبناء الأمة المسلمة والصف المسلم على حبل الله المتين، وخصَّت بالتربية أهل المعروف وإنكار المنكر، فأسهبت في نصيحتهم ودعوتهم لأن يتميزوا عن الذين كفروا والمنافقين، وأن يعتزوا بإيمانهم)[1].

علاقة خاتمة (سورة البقرة) بافتتاحية (آل عمران):

لما ختمت سورة البقرة بدعاء النصر على الكافرين: ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (286) جاءت سورة آل عمران تتوعد الكافرين من أولها، وتبشرهم بالهزيمة وسوء العاقبة: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (12).

•• مقاطع السورة:

1 – المقطع الأول: التوحيد الخالص جوهر الإسلام: الآيات (1 – 9).

2 – المقطع الثاني: التوحيد والتمايز بين الحق والباطل: الآيات (10 – 17).

3 – المقطع الثالث: إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ: الآيات (18 – 32).

4 – المقطع الرابع: اصطفاء الأنبياء: الآيات (33 – 63).

5 – المقطع الخامس: محاجة أهل الكتاب: الآيات (64 – 99).

6 – المقطع السادس: توجيهات لأهل الإيمان (تثبيت مقومات بناء الأمة المسلمة): الآيات (100 – 120).

(1) اصطفاء المرابطين في سورة آل عمران ص 14 – 15 بتصرف – د.أحمد مصطفى نصير.

7 - المقطع السابع: (غزوة أحد.. والحصانة النفسية): الآيات (121 - 179).

8 - المقطع الثامن: توعية المسلمين بأفاعيل اليهود: الآيات (180 - 189).

9 - المقطع التاسع: أولو الألباب.. سمات ومصير: الآيات (190 - 200).

المقطع الأول: التوحيد الخالص جوهر الإسلام: الآيات (1 - 9):

﴿ الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ
عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥
هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ
يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا
وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩ ﴾.

بدأت السورة بعرض العقيدة السليمة في مواجهة الشرك وعقائد أهل الكتاب التي داخلها الزيغ والتحريف، وذلك من خلال:

• إثبات (التوحيد الخالص) الذي هو أساس الدين، مع بيان أحقية الكتب السماوية كلها ووحدة مصدرها، مؤكدة أن (القرآن هو الفرقان) الذي يحكم فيها ويفرق بين الحق والباطل مما ورد فيها نتيجة تعرضها للتبديل والتحريف. محذرة الذين تنكبوا عن هدي الله، ومنبهة لهم بقدرة الله المحيطة بكل شيء، العالمة بكل شيء [الآيات: 1 - 6].

• الحديث عن (طبيعة الكتاب المنزل) على محمد ﷺ، وتصنيف آياته حسب ما تنطوي عليه من ابتلاء، ليقيم الحجة على المتشككين والمرتابين الذين تعاموا عن محكم آياته وتعلقوا بالمتشابه من آياته، ليفتنوا الناس ويضلوهم بما يتأولون لهم من مقولات عمياء (7) في مقابل المؤمنين الذين يتوجهون إلى ربهم بالدعاء ألا تزيغ قلوبهم كهؤلاء الضالين، وأن يثبتهم على الإيمان (8 - 9).

وآيات هذا المقطع تعتبر (تأسيسًا منهاجيًّا لمقدمات حجاجية، لمجادلة النصارى في عقيدتهم من جهة، ولفضح منهج الملاحدة في التعامل مع القرآن الكريم، وتثبيت المؤمنين على حقائقه الإيمانية المحكمة، والتسليم بما تشابه منه إيمانًا بالله واستسلامًا)[(1)].

المقطع الثاني: التوحيد والتمايز بين الحق والباطل: [الآيات: 10 – 17]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ
وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ
ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن
ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ
مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ
وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكر الله الرَّاسخين في العلم، أصحاب العقول والبصائر، وزكَّاهم لقوَّة إيمانهم، وشدَّة إخلاصهم، وكثرة تضرُّعهم إلى خالقهم سبحانه وبشرهم بحسن العاقبة؛ ذمَّ الكافرين وتوعَّدهم بسوء المصير وشديد العقاب. محذرة لهم من أن اغترارهم بأموالهم وأولادهم لن يغني عنهم من عذاب الله من شيء.

(1) مجالس القرآن ج3 / 669.

وبينت أنه إن لم يكن عندهم استعداد لأن يتعظوا بالماضي البعيد (آل فرعون نموذج)، فليتعظوا بالحاضر القريب (هزيمة المشركين في غزوة بدر). [الآيات: 10 - 13][(1)].

وهكذا تكون نتائج الحروب حين يعتصم المسلمون بحبل الله تعالى، وتكون المعركة لرفع راية الحق وإحقاق كلمة التَّوحيد دون أن تشوبها أغراض دنيويَّة.

ثم تأتي الآية التالية للتحدث عن (دوافع كفرهم) التي تصدهم عن الإيمان، وهي الاغترار بالشهوات المزينة، التي لا تعدو أن تكون متاع الحياة الدنيا، في مقابل النعيم الأبقى الذي أعده الله للمتقين، الذين يأخذون من متاع الدنيا بالنصيب المباح الطاهر الحلال الذي حددته حدود الله، ويمتنعون عن المتاع الزائد على تلك الحدود (15)، وبينت صفاتهم التي استحقوا بها هذا النعيم والرضوان (16 - 17).

المقطع الثالث: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ: [الآيات: 18 - 32]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن بين سبحانه (جزاء المتقين) وشرح أوصافهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، ذكر هنا (أساس التقوى) وهو عقيدة التوحيد، وبين أن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله تعالى للناس، وأن من يعارض في ذلك معارضته داحضة، وسيعاقبه الله بما يستحقه، وذلك من خلال:

(1) وردت روايات في سبب نزول هذه الآية والتي بعدها. من أشهرها: ما ذكره ابن إسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة أن رسول الله ﷺ لما أصاب من قريش ما أصاب في غزوة بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم» فقالوا يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة. إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس. فأنزل الله - تعالى - ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ﴾ إلى قوله - تعالى - ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾» (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 2/ 55).

• الحديث عن أعظم شهادة في كتاب الله تعالى، وهي شهادة التوحيد، وهي بذلك تقيم الحجة على المعارضين بأنهم ضلّالٌ عن علم ومعاندة، وتبشر المؤمنين بالمعية الإلهية بيانًا وشهادةً وهدايةً، ومعهم بعد ذلك الملائكة الأخيار وعلماء الأمة الأبرار، على النهج القويم والتصور الإيماني الواضح السليم (18).

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾.

• وبعد إثبات (الكمال للدّين الإسلامي) وأنّه الدّين الذي ارتضاه الله لخلقه إلى قيام السّاعة، عطف عليه بيان (موقف أهل الكتاب منه)، وموقفهم من دينهم والأسباب التي دفعتهم إلى ذلك (19)، وأمر النبي ﷺ أن يوجه إلى الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم الكلمة الفاصلة، المميزة بين الإيمان والكفر (20).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

• بيان (سبب إعراض أهل الكتاب عن الدين الحق) وتنكرهم له، وهو البغي بعد أن جاءهم العلم، مع أن المفروض فيمن يحمل علم الكتاب أن يكون أسرع الناس إليه، وأحرصهم على الاحتكام إليه. وهذا البغي دفعهم لقتل الأنبياء والصالحين، ثم أتبعه ببيان فساد أعمالهم في الدنيا والآخرة (21 – 22):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾.

• بيان أن إعراضهم عن كتابهم هو الذي جرأهم على ما يرددون من أكاذيب وافتراء ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، غافلين عما ينتظرهم من الحساب العسير (23 – 25).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ
فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي
دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

- **ترسيخ جذور الإسلام في قلوب المسلمين:** (26 – 27):

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن
تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ
ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(بعد أن وصفت الآيات السابقة الداء الذي يعاني منه أهل الكتاب، والذي كان يحملهم على أن يتخذوا موقف العداء ضد الإسلام وأهله، جاءت الآيات التالية لتبين للمسلم حقيقة الإسلام، وهي أن يعتقد المرء من صميم قلبه أن الله هو مالك الملك، فهو الذي يرفع من يشاء ويضع من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، والخير كله بيده. وليس شيء إلا وهو آخذ بناصيته. حتى هذا الكون الواسع العريض خاضع لقدرته، فهو الذي يقلب الليل والنهار وهو الذي يملك الموت ويمنح الحياة)[1].

وفيها تعريض بأهل الكتاب في إزاحة النّبوة عنهم لإعراضهم عن آيات الله بغيًا وحسدًا.

وإذا استقرت الحقيقة السابقة في الوجدان، جاءت الآية التالية تحذّر المؤمنين من موالاة الكافرين، منذرة لهم بالمصير السيء يوم القيامة (28 – 30).

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ
فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ

(1) البرهان في نظام القرآن ص 454 – 455.

مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾.

وختمت بذكر (مقياس الحب والولاء) وهو الطاعة والاتباع (31 – 32).

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

المقطع الرابع: اصطفاء المخلصين: [الآيات: 33 – 63]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما ختمت الآية السابقة بذكر (محبة الله لمن اتّبع الرّسول ﷺ) أتبع ذلك ببيان (من أحبّهم واصطفاهم من صفوة خلقه)، وقد اقتضت حكمته سبحانه أن يصطفي من يشاء من عباده لتلقي هباته وعطاياه.. وإن من عباده الذين اصطفاهم لأفضاله ومنحه آدم، ونوح، وآل إبراهيم، وآل عمران.

والحديث عن هذا الاصطفاء هنا يستهدف ربط بعثة رسول الله ﷺ – وهي محل شبهة وإنكار من الخصم المجادل – بموكب المصطفين الأخيار من صفوة خلق الله في المسار البشري من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيّدنا محمد ﷺ.

والغرض من هذا الإخبار هو تذكير أهل الكتاب بتلك العلاقة الحميمة بين أنبيائهم ورسول الله محمد ﷺ، مما يقتضي الأخوّة والتآزر لا العكس، ولكن واقع أغلبهم كان خلاف ذلك.

كما أنها تناسب – والله أعلم – ما سبق من إيتاء الله تعالى الملك لمن يشاء. فإذا كان اختيار ملوك الدنيا بأمر الله، أفلا يكون اختيار حملة رسالة الله للعالمين بأمره سبحانه؟ فلا نقاش ولا مجادلة في هذا الاختيار، إنما الرضا والقبول والاتّباع.

واصطفاء آل عمران من ضمن المذكورين من الأنبياء مقدّمة للتأكيد على (بشرية عيسى) بذكر جذوره وأجداده، دحضًا لمزاعم أهل الكتاب الذين غالوا فيه وألّهوه.

ويمكن تقسيم الآيات إلى محورين:

• **المحور الأول: مقدمات (قصة ولادة مريم):**

ويبرز في هذه الآيات الدعاء الخاشع والابتهال الضارع لوالدتها (إمرأة عمران) حين نذرت ما في بطنها لله، ثم كفالة زكريا عليه السلام لمريم، وحنينه إلى الذرية الطيبة عندما عاين فضل الله وفيض نعمه على مريم، والاستجابة الإلهية السريعة له (33 – 41).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ
بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ
ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا
رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ
عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ
٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨
فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ
وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ
وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾.

• **المحور الثاني: الحديث عن (قصة مريم وولادة عيسى عليهما السلام):**

وقد تفرغت مريم لعبادة الله وخدمة بيته كما نذرت بذلك أمّها، ثم تلقيها البشارة الربانية بميلاد عيسى العجيب والخارق للسنن المعهودة، ثم الشروع في خبر عيسى عليه السلام من خلال الحديث عن رسالته ومعجزاته، وموقف الناس من دعوته وانقسامهم إلى فريقين: المؤمنين والكفار، وبيان عاقبة كل فريق (42 – 58).

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ
ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ
لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ
عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا
وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ
مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ
وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ
ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ
وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ
إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي
حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ
إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ
ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ
فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٥٧﴾
ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾.

- بعد بيان قصة عيسى عليه السلام في ميلاده وموقف قومه من دعوته، انتقل السّياق إلى (الرّدّ على وهم المغالين) في وصفه بأنّه كلمة الله وروحه إلى حدّ تأليهه، فمن أصر على العناد والمكابرة بعد وضوح الحق فلم يبق أمامه إلا المباهلة (وهي التّضرّع إلى الله بالدّعاء أن يصبّ لعنته على الكاذبين).

وهكذا جاءت قصة عيسى عليه السلام في هذا السياق لتفنيد شبهات أهل الكتاب التي أثاروها ليعكروا بها صفو عقيدة التوحيد، والتأكيد على أن عيسى بشر خلقه الله كما خلق آدم وليس إلهًا ولا شبه إله. وما من إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته. وإن الله لهو العزيز الحكيم القادر الذي يفعل كل شيء بقدرته (62 – 63).

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ٦١ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٦٢ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾.

ولب اللباب الذي تدور حوله القصة المفصلة في هذا المقطع أمران أساسيان:

- **الأمر الأول**: الرد على (اليهود) وإبطال ما اتهموا به مريم العذراء بنت عمران وأم عيسى، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٢﴾، فإثبات القرآن الكريم لطهارة مريم إبطال لتهمة اليهود المغرضة، التي حاولوا إلصاقها بأم المسيح، ونقض لتهجمهم على عرضها من الأساس.

- **الأمر الثاني**: الرد على (النصارى)، وتأكيد أن عيسى المسيح إنما هو ابن مريم وولدها، وليس ابن الله ولا ولده، كما يدعي النصارى، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وإثبات أن ولادة مريم لعيسى، دون أن يمسها بشر، أمر اقتضته حكمة الخالق البالغة، ونفذته قدرته الباهرة، التي لا يحدها حد ولا يقيدها قيد، وذلك قوله تعالى على لسان مريم نفسها ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وهكذا يقف القرآن الكريم موقف الصدق والحق يرد لمريم العذراء اعتبارها، ويدفع عن عيسى بن مريم ما ألصقته به الخرافات والأساطير، فيغسل العار الذي ألحقه اليهود بمريم، ويرفع الوهم الذي ألحقه النصارى بعيسى ابن مريم، والظلم

الذي ألحقوه بمقام العلي الأعلى، إذ جعلوا له الشريك والولد، وهو سبحانه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1].

المقطع الخامس: محاجة أهل الكتاب: (64 – 99):

بعدما ختمت الآيات السابقة بتقرير (حقيقة عبودية عيسى عليه السلام وتأكيد التوحيد الخالص لله جل جلاله)، جاءت الآيات التالية (تدعو أهل الكتاب إلى هذا التوحيد وتحذرهم من الإصرار على الضلال والعناد، وذلك من خلال:

1 – دعوة عادلة إلى أهل الكتاب إلى التوحيد الخالص لله توحيدًا مصفّى من كل ضلالات الشرك وأوهامه. (وهي الأرضية المشتركة لكل عباد الله فقد ارتضى الله لهم الإسلام دينًا). ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

2 – تفنيد دعواهم بالانتساب إلى إبراهيم عليه السلام، وبيان أحق الناس بولايته.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

3 – بيان مكايد أهل الكتاب وكشف نواياهم السيئة في إضلال المسلمين من خلال وسائل خبيثة مسمومة تتضمن (الرغبة في الإضلال – تلبيس الحق بالباطل – كتمان الحق – الحيلة والمخادعة – التزوير والتزييف)، وهذا يكشف عن نفسيات مريضة أعماها الحسد والحقد (69 – 74).

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 1/ 222 – 223 بتصرف.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا
يَشۡعُرُونَ ٦٩ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠ يَٰٓأَهۡلَ
ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ
ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢
وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ
عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن
يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

4 – بيان أصناف أهل الكتاب في أداء الأمانة والوفاء بالعهد (75 – 77).

﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ
إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ
وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

(وهذه الآية تكشف القناع عما تنطوي عليه صدور أهل الكتاب من البغض والحقد على المسلمين من ناحية أخرى، فقد بلغ من بغضهم وحقدهم عليه أنهم استباحوا أموالهم واستباحوا حرماتهم ولم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. فإذا كان هذا حالهم معهم في أمر دنياهم، فماذا يكون حالهم معهم في أمر دينهم؟ فلا ينخدع المسلمون من كيدهم وخداعهم وليحذروهم كل الحذر)[1].

5 – كشف أساليب أهل الكتاب في الطعن في الدين من خلال التحريف والتزييف، والتنبيه على كذبهم وسفاهتهم وبيان أن دعواهم إلى الشرك مما يأباه العقل السليم ويرفضه المنطق المستقيم، والتاريخ الصحيح المتمثل في إقرار الأنبياء بميثاق الله الدال على وحدة الدين.

(1) البرهان في نظام القرآن ص 493.

فيا للمفارقة البعيدة بين دعوات الأنبياء وبين ما يدخله أتباعهم على تلك الدعوات من افتراء وبهتان، فالنبيّون صلوات الله عليهم قائمون على أمر واحد هو الدعوة إلى التوحيد وكشف معالم الطريق للناس إليه. وما أعجب عدول أهل الكتاب عن الإسلام ورغبتهم عنه مع أنه دين هذا الكون، وكل من في السماوات والأرض خاضعون له ومنتظمون في سلكه (78 - 83).

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

لذا لا عجب أن تأتي الآيات التالية تدعو المسلمين إلى (الجهر بالحق الذي رفضه أهل الكتاب)، وهو الإيمان بالله وما أنزل على محمد ﷺ من كتاب ربه، وما أنزل على الأنبياء قبله وما تلقى النبيون جميعًا من ربهم لا تفرقة في هذا بين أحد منهم، محذرة من أعرض عن الإسلام بالهوان والخسران (84 - 85).

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

6 – بيان المصير المشؤوم الذي سيقع على هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب نتيجة سوء موقفهم من هذا الرسول والذي يناقض تمامًا ذلك العهد والميثاق الذي أخذ من أنبيائهم، والذي كان يوجب عليهم أن يبادروا بالإيمان به (86 – 88). ثم فتح باب الرحمة لمن نزع منهم عن غيّه وضلاله ورجع إلى الحق (89).

﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

7 – بيان عاقبة المتعنتين من هؤلاء الضالين الظالمين الذين دعاهم الله تعالى إلى جناب رحمته ومغفرته، فأبوا أن يستجيبوا ولم يزدهم هذا الدعاء الكريم إلا إصرارًا وعنادًا، وإغراقًا في الإثم والضلال (90 – 91).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

(ومما نلاحظه في هذه الآيات أنها تتفق تمامًا مع طبيعة الموقف الذي تتناوله، فكما أن هؤلاء الأعداء شنوا غارة شعواء على هذا الدين ليغزوه من كل جانب ويحاربوه بكل أسلوب، فكذلك نرى هذه الآيات تصبُّ عليهم اللعنة وكأنها تنصب عليهم من كل جانب: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾. وكما أنهم لم يفتروا ساعة عن حرب هذا الدين وأهله فكذلك لا يفتر عنهم العذاب يوم القيامة. ﴿ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[1]).

ولما بين الله ﷻ في الآية السابقة أن (إنفاق الكافر لا ينفعه البتة في الآخرة)، أرشد عقب ذلك إلى كيفية (الإنفاق النافع) في الآخرة. ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

(1) البرهان في نظام القرآن ص 495–496.

8 – إثارة اليهود الشبهات للتشكيك في صحة النبوة المباركة من خلال:

• إدعائهم مخالفة النبي ﷺ ملة إبراهيم عليه السلام في تحليل طعام كان محرمًا عندهم في التوراة، والرد عليهم في ذلك (93 – 95)[1].

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

• الرد على شبهتهم في تحويل القبلة عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة مبينًا أن البيت الذي نستقبله في صلاتنا هو أوّل بيت بني لعبادة الله وتوحيده، بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فالاتجاه إلى الكعبة هو الأصل (96 – 97).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

• توبيخ أهل الكتاب على ضلالهم وإضلالاهم (98 – 99):

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

وفيه إشارة إلى ما يستوجب على المسلمين من اليقظة والحذر، وعدم الغفلة عن دسائس خصوم الإسلام ومؤامراتهم ومحاولاتهم المضللة، وأساليبهم الملتوية لصرف المسلمين عن دينهم.

(1) ذكر بعض المفسرين أن النبى ﷺ قال لليهود في معرض مناقشته لهم: أنا على ملة إبراهيم. فقال بعض اليهود: كيف تدعى ذلك وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبى ﷺ، كان ذلك حلالًا لإبراهيم فنحن نحله. فقالوا: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان محرمًا على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله هذه الآيات تكذيبًا لهم. (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 2 / 240).

وعند هذه الآية ينتهي الجدال مع أهل الكتاب، بعد فضح عقائدهم المنحرفة. ثم تتوجه الآيات إلى نصيحة وتوجيه الأمة المسلمة، محذرة من أعدائها، مبينة لهم وسائل تحقيق منهج الله في حياتهم، وهذا ما سنلاحظه في المقطع التالي.

المقطع السادس: توجيهات لأهل الإيمان (تثبيت مقومات بناء الأمة المسلمة):

[الآيات: 100 - 120]:

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن كشف الله سبحانه أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب وما يبيّتون للمؤمنين من مكايد وفتن ليفسدوا عليهم دينهم، دعا الله المؤمنين إلى اليقظة والحذر، وعدم الغفلة عن دسائسهم ومؤامراتهم ومحاولاتهم المضللة، وأساليبهم الملتوية، التي يرمون من ورائها إلى قتل الروح الإسلامية في نفوس المسلمين، وإلى تجريد حياتهم من كل المعاني والقيم الإسلامية.

وقد جاءت هذه الآيات محملة بتوجيهات كثيرة، منها:

1 - الحذر من الوقوع في حبائل إغواء الكافرين: وذلك بطاعتهم، محذرًا من الكفر بعد الإيمان (100 - 101).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

2 - دعوة إلى الاعتصام بالتقوى والثبات على الدين حتى الممات:

وذلك من خلال الاعتصام بهداية القرآن والحذر من التفرق، وتذكر نعمة الله في تأليف القلوب على محبة الله ورسوله بعد أن توزعتها الضغائن (102 - 103).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

3 – قيادة الناس وهدايتهم إلى سبل الرشاد عبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (الذي هو من مميزات خيرية الأمة المسلمة)(1):

فهو سبيل اجتماع كلمتها وتوحيد صفوفها، محذرًا لهم من الاختلاف والتفرق الذي وقع فيه أهل الكتاب، مبينًا عاقبة المفلحين والمعرضين يوم الجزاء ترغيبًا وترهيبًا (104 – 107).

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

4 – بيان لطف الله ﷻ بنبيه الكريم ﷺ بما ساق إليه من آيات قرآنية تهدي إلى الرشد وتشهد بوحدانية الله – تعالى – وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه. وبذلك لا يكون للنّاس على الله حجة بعد هذا البلاغ المبين (108 – 109).

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

5 – تعريف المؤمنين بمكانتهم وبيان عظم مسؤوليتهم وإشعارهم بتلك الكرامة التي ألبسها الله هؤلاء المؤمنين، موبخة أهل الكتاب على عدم إنضمامهم لركب المؤمنين (110).

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

(1) لقد كان من الأسباب الأساسية في استحقاق بني إسرائيل لعنة الله تركهم واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الله تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79).. وفي ذلك تحذير للأمة المسلمة من أن تسلك مسلكهم؛ فينزل عليها غضب الله ونقمته.

6 – حث المؤمنين على مواصلة السير في طريقهم، غير مبالين بما يفعله أهل الكتاب لعرقلة مسيرهم، ومبينًا سننه فيما كتبه على أهل الكتاب من الذلة والمسكنة جراء تماديهم في العصيان والطغيان (111 – 112).

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

7 – ثم بعد كلّ ذلك الذم لليهود الذي تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة وأفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائمًا- يراعي جانب العدل والإنصاف؛ فيثني على (الفئة المؤمنة من أهل الكتاب) الذين بادروا إلى الإيمان وسارعوا إلى الخيرات. وفي ذلك تحريض للفئة المعرضة للانضمام إلى هذه الزمرة المتميزة (113 – 115).

﴿لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

8 – وعيد الكافرين وتيئيسهم من دفع غاشية العذاب عنهم يوم القيامة بما يغترون به في الدنيا من الأموال والأولاد. مبينًا أن نفقاتهم التي يرجون جزاءها يمحق الله ثوابها فيذهب هباءً منثورًا، مثل الحرث الذي أوشك على الحصاد إذا نفخ فيه ريح شديد البرودة، فإنه يجف ويحترق (116 – 117).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

ولك أن تقارن بين ما ينفقه أهل الإيمان في سبيل الله، بنية خالصة ابتغاء رضاه، لا يضيع أبدًا، بل يدخره لهم الحق سبحانه وتعالى ليوم المعاد، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ١١٥﴾.

9 – تحذير المؤمنين مرة أخرى من دسائس خصوم الإسلام، فينهاهم نهيًا باتًا عن اتخاذهم بطانة لهم من دون المؤمنين، ويمنع المسلمين من الإفضاء إليهم بأسرارهم، وذلك حتى لا يستعين عليهم بها أعداؤهم. مبينة نواياهم الخبيثة وحقدهم الدفين، داعية المؤمنين إلى التمسك بدرع الصبر والتقوى (118 – 120).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾.

■ وقفة هامة: (من الحرب النفسية إلى الحرب العسكرية):

(إن السورة الكريمة من مطلعها إلى هنا قد ساقت – من بين ما ساقت – ألوانًا من الحرب النفسية التي شنها أهل الكتاب على الدعوة الإسلامية، وردت عليهم بما يخرس ألسنتهم، ويبصرهم بالحق – إن كانوا طلاب حق – وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات، ما يهدي قلوبهم ويثبتها على الحق، ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم.

وبعد هذا السبح الطويل في الحديث عما دار بين المسلمين وبين أعدائهم من حرب كلامية وفكرية ونفسية، انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن حروب السيف والسنان، وما صاحبها من أفكار وأقوال وأفعال.

فقد حدثتنا السورة الكريمة عن جوانب متعددة من غزوة «أحد»، تلك الغزوة التي كان لها آثارها الهامة في حياة المسلمين وأحوالهم)[1].

المقطع السابع: (غزوة أحد.. والحصانة النفسية): [الآيات: 121 – 179]:

في إطار بيان مكايد الكفار من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين وتحذير المؤمنين من دسائسهم ومناوراتهم، وذلك كله في مجال (الجدال والحوار) انتقل النّصّ إلى بيان تلك المكايد مجسّدة في (ميدان المعركة)- «معركة أحد»- تلك المعركة التي تأخذ من حيّز هذه السّورة الكريمة نحوًا من ستين آية.

في هذه الآيات وصف كاشف لحالة المسلمين عندما ذاقوا في أحد (مرارة الهزيمة) بعدما ذاقوا في بدر (حلاوة النصر)، وفيها كذلك تحليل عميق لأسباب الهزيمة والنصر في كلتا الحالتين.

و(لئن كانت غزوة بدر صفحة من كتاب الكون، فيها نصر للمؤمنين وهزيمة ماحقة للكافرين، صفحة مبهجة تجلت فيها عناية الله بجنده، ونصره لهم على عدوه نصرًا مؤزرًا، فإن غزوة أحد صفحة أخرى منه لا تقل وضاءة عن سابقتها عند التحقيق والتدقيق، تجلت فيها عناية الله بجنده على نحو آخر، هو نصره لهم على أنفسهم بتهذيبها وتنقيتها وسبكها وصقلها، وتعليمهم من سنن الله ما لم يكونوا يعلمون، وتثبيت ذلك في أنفسهم بوقوعه أحداثًا ترتبت عليها آثارها ليكون الدرس أبقى وأخلد.

فلا غنى للمسلمين عن هذه وتلك، لا غنى لهم عن بدر وبهجة صفحتها وإشراقها، كما وأنه لا غنى لهم عن أحد ومس حرها، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥ ﴾ [الأنبياء: 35])[2].

(1) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج2 / 241 – 242 بتصرف.
(2) فلسفة البلاء في ضوء الكتاب والسنة: غزوة أحد ص 290 – د. الحسيني أبو فرحة.

ويمكن تقسيم الآيات إلي ثلاثة محاور ليسهل تدبرها:

1 - المحور الأول: التمهيد لأحداث غزوة أحد، والتذكير بنصر بدر: [الآيات: 121 - 130]:

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّت
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ
بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ
رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ
وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ
فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129) ﴾.

وأول ما يتبادر إلى الذهن: ما علاقة هذه الآيات بما قبلها؟

لما ختمت الآية السابقة (بالتّحريض على الصّبر والتّقوى) في مواجهة مكايد ودسائس أعداء الإسلام، انتقل السّياق إلى استعراض أحداث (غزوة أحد) التي تعتبر المحكّ القويّ لتمحيص الجماعة المسلمة أمام المحن والشّدائد حيث كانت للباطل وأعوانه صولة وجولة، لم يخضد المؤمنين شوكتها إلاّ بالصّبر وتقوى الله، وهم ملتفّون حول رسول الله ﷺ يفدونه بالنّفس والنّفيس. وفي ذلك التّذكير استثارة للمؤمنين وتحريضهم على مزيد من الصّبر والتّقوى المطالبين به في الآية السّابقة، إذ يستعرض النّصّ لهم وقائع مفجعة وأحداثًا أليمة يلمسون من خلالها كيد الأعداء ونواياهم الدّنيئة[1].

(1) نفحات الرحمن في رياض القرآن ج 2 / 391، 397 - الشيخ محمد بن إبراهيم كعباش.

• بدأت الآيات بالحديث عن تجهيز الرسول ﷺ صفوف المؤمنين للقتال، مبينة ما كان من تردّد بعض المؤمنين في الخروج وعزيمة الرّسول ﷺ في مناجزة العدوّ بعد أن تمّت المشورة (121 – 122)[1].

• وللتّخفيف عن قلوب المؤمنين من وقع انكسارهم في (وقعة أحد) – وهم يومئذ أعزة نسبيًّا– ذكّرهم الله بما كان من نصره إياهم في (وقعة بدر الكبرى) وهم يومئذ ضعفاء أذلاء لقلتهم وكثرة عدوّهم، ولكنهم كانوا على أتمّ ثبات ويقين بنصر الله.

وفي التذكير بنصر بدر في هذا الموضع هو ربط النصر بالله، حتى يدرك المسلمون أن النصر ليس بكثرة العَدد والعُدد، وإنما النصر يأتي مع صفاء النفوس، ونقاء القلوب، ومضاء العزائم والطاعة التامة لله ولرسوله ﷺ، وحتى لا يعودوا إلى ما حدث من بعضهم في غزوة أحد من مخالفة رسول الله ﷺ، ومن طمع في زينة الحياة الدنيا.

وليس ذلك بالذي يعفي المؤمنين من النظر في إعداد العدة للقاء العدو، واتخاذ الحيطة والحذر منه، وسدّ المنافذ والثغرات التي ينفذ منها إليهم، فهذا كلّه وكثير غيره هو من عدد النصر وأسلحته (123 – 126).

• وبعد تطمين المؤمنين وتبشيرهم بالنصر على المشركين، تتناول الآيات (التدابير الإلهية في شأن المشركين)، مع تأكيد الملكية المطلقة لله تعالى في السّماوات والأرض، ومن ثمّ فله مطلق التّصرّف في ما خلق، ويدبّر أمره بحكمة وعدل في حالتي العفو والغفران أو العقاب والعذاب (127 – 129).

---

(1) (وهاتان الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانتا جناحى الجيش في يوم أحد).

روى الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآيِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقوله – تعالى – ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

أى: لفوط الاستبشار بما حصل لهم من الشرف بثناء الله – تعالى – عليهم، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية. وأن ما حدثوا به أنفسهم لم يخرجهم عن ولايته سبحانه لأنهم لم ينساقوا وراء هذا الهم الباطل، بل سرعان ما عادوا إلى يقينهم وإيمانهم الصادق، وطاعتهم لرسولهم ﷺ). (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 2 / 327 – 328).

2 – المحور الثاني: تنقية وتقوية (الجبهة الداخلية) من أسباب النصر: [الآيات: 130 – 136]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

وفي جو المعركة والقتال ينهى الله ﷻ المؤمنين عن الربا، ويوجههم إلى المسارعة إلى المغفرة، والإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والاستغفار للذنوب.

فما السر في ذلك؟

إن (الإعداد الروحي والخلقي والنفسي) للمعركة لا يقل أهمية بحال عن (الإعداد الحربي) لها، سواء بالتدريب على السلاح أو بإعداد السلاح ذاته، بل إن هذا الإعداد الروحي لهو صاحب التأثير الأول والأقوى، وتأتي بعد ذلك العوامل الأخرى، على كل أهميتها.

وفي ذلك إشارة لطيفة لارتباط النظام الاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي للأمة بمتانة بنيانها وحفظ ثغورها وتلاحم نسيجها، خاصة في ميادين الحرب والقتال، فالمجتمع الذي يجتمع أهله على الإخلاص والإيثار والتسابق على فعل الخير والتنافس في الطاعات والقربات، والحذر من الوقوع في المخالفات، لهو مجتمع يمتلك مقومات النصر، أمّا المجتمع الذي تملّكت أفراده حبّ اكتناز المال وتأصّلت في نفوسهم خصال البخل والشح والإصرار على ارتكاب المعاصي، لهو مجتمع أقرب للهزيمة والفشل.

وهذا ما يؤكده الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

(والذى يبدو أن الهدف إصلاح الجبهة الداخلية وتطهيرها من كل انحراف حتى تكون أهلًا للنصر، فالمعارك الدينية ليست انتصارًا لأشخاص قدر ما هي انتصار لمبادئ طاهرة، ومسالك قويمة)[1].

وأما سر الحديث عن (الربا) بالذات، فهذا ما ذكره الشيخ محمد إبراهيم شقرة في بيان رائع:

(إنَّ الجهاد في سبيل الله يحتاج إلى المال الذي به تظل راية الجهاد مرتفعة تخفق فوق رؤوس المجاهدين، وكما يجب أن تكون نفوس المجاهدين نقية من الشوائب التي تبطل الجهاد، يجب أن يكون المال المبذول للجهاد أيضًا نقيًا من الشوائب، وأوخم شائبة تذهب بنقاء جوهر المال هي الربا، فإذا نزل الربا بساحة المال زال رونقه ومحيت بركته، فلا ينفع الجهاد صفاء نفوس المجاهدين حينئذ وحده، وحينئذ إما أن تقف عجلة الجهاد عن الاندفاع، وإما أن تعود إلى الوراء، لذا ناسب أن يذكر الله حكم الرّبا، فلا يظل للقلوب متعلّق أبدًا بما قد يرد إليهم من ربا المال، ثمَّ إنَّ في ذكر حكم الرّبا تحريضًا للمجاهدين أن يعقروا الربا حيثما لقوه، لئلا يكون له سلطان)[2].

وبعد أن ينهى الله ﷻ عن الربا يأتي الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله، والمسارعة إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدها الله للمتقين من عباده. وفيها إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي على المؤمنين المسارعة إلى (نعيم الجنان الخالد)، وليس إلى (المتاع الدنيوي الزائل) كما سارع بعض الصحابة إلى الغنائم، متناسين تحذير الرسول لهم من مغادرة الجبل مهما كانت نتيجة المعركة. والتحرر من التعلّق بما يخدش إخلاص قلوبهم لله وفي سبيل الله، فلا يضعف ثباتها أبدًا.

ولا ريب أن النصر لا يحرزه المجاهدون إلا إذا تحققت فيهم الصفات التي ذكرتها هذه الآيات: (طاعة الله ورسوله، وإيثار الجنة بالعمل الصالح على الدنيا، والبذل

(1) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 38.
(2) السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة ص 359.

والإنفاق في سبيل الله، وكظم الغيظ والعفو والصفح، والإحسان وصفاء القلوب، والإسراع إلى الإقلاع عن الذنب والتوبة منه).

3 - المحور الثالث: **هذا بيان للناس (تدابير وقائية من الهزيمة النفسية)**: [الآيات: 137 - 179]:

بعد الوقفة السابقة التي تناولت (تثبيت مقومات النصر المعنوية) ، تعود الآيات مرة أخرى لاستكمال الحديث عن (غزوة أحد) من خلال حض المسلمين على الاستفادة مما مر بهم من أحداث، وما مر بالأمم قبلهم من تجارب، كي يتعمق وعيهم بسنن الصراع بين الحق والباطل في التاريخ الإنساني (137 - 138)، وفي ذلك وقاية لهم من شرور الهزيمة النفسية والفكرية التي قد تترتب على الهزيمة العسكرية.

وتتنزل آيات الله بالحق يقشع ظلام الباطل، ويفضح ضلال المبطلين، وتتلى كلمات الله فتلتئم بها جراحات المؤمنين، وتمتلىء بها قلوبهم سكينة ورضى وإيمانًا، وفي هذه الآيات المنزّلة عزاء ورحمة وشفاء.

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

ويمكن تلخيص أبرز هذه السنن والتوجيهات فيما يلي:

1 - العلو الصحيح هو علو المبدأ والمنهج، أما علو الكافرين والظالمين فهو علو مغشوش، وعاقبته إلى زوال. (139) فإن الجماعة المسلمة هي الأعلى دائمًا، ما تمسكت بمقتضيات الإيمان.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

2 - مداولة النصر والهزيمة، والشدة والرخاء، من شأنه أن يكشف عن معادن الناس، ومستوى إيمانهم وإخلاصهم، وفيه أيضًا تكريم بالشهادة لمستحقيها ومحق وهلاك للكافرين (140 - 141).

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

3 – الطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره والفتن والشدائد، لذا فهي تحتاج إلى صبر دائب وجهاد مستمر (142 – 143).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

4 – العمل للإسلام قضية لا تتوقف على حياة أحد ولو كان القائد رسول الله ﷺ، وهذا ما يدفع المؤمنين إلى الصمود على المبدأ والثبات على الإيمان، مهما تأزمت الحالة وتحرج الموقف، حتى لو مات قائدهم أو قتل (144).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

4 – تقرير حقيقة أن لكل نفس أجلًا، ولن تموت حتى تستوفيه، وهذا من شأنه أن يقتلع من نفوس المؤمنين الخوف من الموت، وتأكيد أن الجبن والفرار لا يزيدان في الأجل ولا يدفعان الموت لحظة واحدة (145).

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

5 – تثبيت المؤمنين من خلال الحديث عن الأنبياء السابقين، وأتباعهم من المؤمنين المجاهدين، وما لاقوا في سبيل الله من محن ومتاعب، وما بذلوه في نصرته من تضحيات، وما آتاهم الله بعد ذلك من نصر في الدنيا، وجزاء حسن في الآخرة. (146 – 148).

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا

فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾.

6 – تحذير المؤمنين من طاعة الكافرين وأذيالهم المنافقين المتسترين الذين يسعون لتثبيط عزائم المؤمنين وزعزعة إيمانهم (149 – 150).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾.

7 – تطمين المؤمنين بأن العاقبة ستكون لهم، وأنه سبحانه سيلقي الرعب في قلوب أعدائهم، ويغلبهم عليهم في المستقبل كما غلبهم عليهم في الماضي. وهذا من صور نصرة الله تعالى للمؤمنين (151).

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾.

8 – تنبيه المؤمنين إلى تجنب عوامل الهزيمة وأسبابها، ويمكن تلخيصها في أربعة أمور (152):

- الفشل المثبِّط الذي يصيب بعض ضعفاء النفوس، فيجرون الهزيمة على من معهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ﴾.
- التنازع بين المحاربين وعدم الاتفاق فيما بينهم. ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾.
- عصيان المحاربين لأوامر القيادة العليا وعدم تنفيذهم لتلك الأوامر تنفيذًا حرفيًا. ﴿وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.
- اختلاف الوجهة وعدم الاتحاد في الهدف ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾.

9 – تذكير المؤمنين بأحداث المعركة حية متحركة، وبما كان من بعضهم بعد أن اضطربت أحوالهم وجاءهم أعداؤهم من أمامهم ومن خلفهم، وما لحقهم من غم الهزيمة التي أصابتهم، وغم الدعاية والإشاعة الكاذبة التي روجها المشركون بين المسلمين، وفحواها أن الرسول ﷺ قد قتل في المعركة. مع التنبيه على أن المؤمن الحق لا ينبغي له أن يحزن على ما فاته من نصر، ولا على ما أصابه من هزيمة (153).

﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾.

10 – إنزاله سبحانه السكينة في نفوس المؤمنين، بإلقاء نعاس يغشاهم فيكسبهم أمنة من الله. في مقابل كشف حقيقة الطائفة المنافقة ووصف جبنها وأنانيتها وسوء ظنها بالله وبرسوله (154).

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾.

11 – بشارة المؤمنين بالعفو عما صدر منهم، ذلك لأن الذنوب تثبط الهمم والعزائم، وتسهل السبيل للشيطان في وسوسته وإغرائه وتقنيطه للعاصي من رحمة ربه. وفي ذلك ما يحيي فيهم الأمل والرجاء، ويدفع عنهم معرة المخالفة (155).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾.

12 – (تحذير المؤمنين) من مشابهة المنافقين فيما يتناقلونه من شبهات فاسدة تستهدف بث البلبلة في صفوف المسلمين، وإضعاف روحهم المعنوية أمام المشركين (156).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

13 - (تبشير المؤمنين) بحسن عاقبتهم ومصيرهم إن ماتوا أو قتلوا في سبيل الله، فإن الحياة الدنيا ليست هي غاية ما يمنحه الله لهم، وإنما وراءها الفوز العظيم والرضوان في جنات النعيم (157 - 158).

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

14 - تعليم الله نبيه ﷺ العفو عن المخالفين لأمره من خلال التنويه بما أتاه الله من الرفق واللين والسماحة، وتبيين ما لهذه الشمائل المحمدية من تأثير عميق في تأليف قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم في السلم والحرب، مؤكدًا على أهمية الشورى في مهمات الأمور وتفويض الأمور إلى الله (159).

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

15 - التأكيد على أن ما يصيب الناس من خير وشر ونصر وهزيمة لا يخرج أبدًا عن إرادة الله المطلقة وسنته الكونية التي أقام عليه هذا الوجود. فهو سبحانه الذي يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء (160).

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

16 – بعد بيان جانب من أخلاق الرّسول ﷺ في معاملة أصحابه (الآية 159) جاء هذا النّفي المبالغ فيه لما لا يليق بمقام الرّسول، فلا يمكن أن يتهم بالغلول كما يروّج لذلك المنافقون، فقسمته للغنائم لا تكون إلا وفق ما أمره الله به (161)[1].

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وفي ورود هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن (غزوة أحد)، حكمة عظيمة، وتأديب من الله للمؤمنين، وتحذير لهم من الغلول، ذلك أن الرماة الذين تركوا أماكنهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ قد دفعهم لذلك خشيتهم من أن ينفرد المقاتلون بالغنائم، ففعلوا ما فعلوا[2].

17 – التأكيد على عدم تساوي الأخيار والأشرار في المآل والعاقبة (162 – 163)، وفي هاتين الآيتين إشارة إلى ما هو أعظم من الغنائم وجميع حظوظ الدنيا المادية، وهي القيم الدينية التي فيها صفاء الضمائر، وطيب الصدور، وطهارة الجوارح وعفة النفوس، مما يحصل لهم به خيرا الدنيا والآخرة.

(1)) الغلول هو الأخذ من الغنيمة خفية قبل قسمتها. وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر. فقال بعض الناس: لعل رسول الله ﷺ أخذها، وأكثروا في ذلك فأنزل الله الآية».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أيضًا أن المنافقين اتهموا رسول الله ﷺ بشيء فُقِد، فأنزل الله – تعالى – ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾. قال ابن كثير – بعد أن ساق هاتين الروايتين – وهذا تنزيه له ﷺ من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسمة الغنيمة وغير ذلك). (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 2 / 435).

(2) (في ديننا لا يختلف الحكم باختلاف الشخص، فالدين الذي عاقب من خالفوا أمر القائد سعيًا وراء الغنائم لا يسمح للقائد بالغلول أبدًا. والمسؤولية فردية والكل محاسب يوم القيامة وحده، وأما ما نشهده في مجتمعاتنا المسلمة من اختلاف الأحكام باختلاف الأشخاص ومكانتهم فهو أمر خارج عن الدين). (د. سمر الأرناؤوط).

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[1].

18 – تذكير المؤمنين بمنة الله عليهم في بعث نبي فيهم من أنفسهم خاصة يهديهم من الضلال. وذلك في مقابل وصف المنافقين والكفار لرسول الله بالخيانة والغلول، وحاشاه أن يفعل ذلك. لذا فالواجب على المؤمنين تعظيمه وإعزازه والقيام بنصرته ومحاربة أعدائه بجميع الوسائل بدلًا من خذلانه أو تهمته. فإنما أُرسِل مُعلِّمًا مهذِّبًا مبلِّغًا رسالة ربه (164).

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

كما أن هذا التذكير للنبيّ الكريم ﷺ بأنه رحمة أرسلها الله للناس ومنّة منّ الله بها عليهم يجعله مستعدًا لتحمّل الأذى في سبيل رسالته، متجاوزًا عن كل ما يعرض له في طريقه من حماقات الحمقى وسفاهات السفهاء.

19 – تذكير المؤمنين بما نالوا أضعافه من النصر في يوم بدر ليزنوا مكاسبهم وخسارتهم بالميزان الصحيح، فلا يجزعهم تهويل العدو وتبجحه (165).

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

20 – (تسلية المؤمنين) بأن ما أصابهم من الهزيمة والنكبة صادر بإرادة الله الكونية التي لا مبدل لها، والتي هي من ربط الأسباب بمسبباتها قدرًا وشرعًا. مع التأكيد على أن ما أصابهم ليس مجرد عقوبة وتنكيل، وإنما اختبارٌ لإيمانهم وكشفٌ للمنافقين أصحاب التصورات المنحرفة والشبهات الفاسدة (166 – 168).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ

(1) (من أساليب القرآن التربوية العظيمة أن يبين للمخاطبين المسألة وضدها وعاقبتها ويترك لهم حرية الاختيار وتحمل تبعاته في الدنيا والآخرة). (د. سمر الأرناؤوط).

أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

21 – (تبشير المؤمنين) بحسن المصير والحياة الطيبة للشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لإخلاص قصدهم في إعلاء كلمته، عسى أن يلحقوا بهم من خلفهم، ويشاركوهم فيما آتاهم الله من نعمة، ومنحهم من فضل، جزاء إيمانهم بالله ورسوله، وجهادهم في سبيله، وتأسيهم بهم في بذل المهج رخيصة من أجله (169 – 171).

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

22 – إخباره تعالى عن صفة المؤمنين الذين يحب الشهداء أن تقر أعينهم بلحوقهم بهم، والذين لم تقعدهم الجراحات عن مواصلة الجهاد والتصميم على النكاية بالعدو، ولم يرهبهم تجمعه، ولم يتأثروا بإرجاف المتخذلين (172 – 174)(1).

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾.

---

(1) نزلت هذه الآيات في غزوة حمراء الأسد، وملخصها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد وبلغوا الروحاء، ندموا وقالوا: إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل فَلِمَ تركناهم؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم، فهموا بالرجوع.
فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة. فندب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان وقال: لا اريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال في أحد.
فخرج الرسول ﷺ مع قوم من أصحابه حتى بلغوا حمراء الأسد، وهى مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا.

23 - نهي المؤمنين عن خوف غيره سبحانه، والتأكيد على أن الشيطان هو الذي يجند أولياءه من الإنس للتخذيل والإرجاف وإثارة الرعب (175).

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

24 - تسلية ومواساة لرسوله ﷺ، وتطمين لقلبه مما يساوره من الحزن والأسى على ضلال من يريد هدايتهم، وشقاء من يريد سعادتهم، خصوصًا المنافقين المصرين على الانحراف والمسارعين إلى الكفر (176 - 177).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

25 - بيان (سنة الله في إمهال المصرين على الكفر) ليزدادوا إثمًا على إثم، فتتضاعف عقوبتهم، وذلك كي لا يغتر المؤمنون بما عندهم من النعيم والرفاهية والقوة (178).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

26 - بيان سنة الله ﷻ في (ابتلاء المؤمنين وتمحيصهم) بالنكبات والتضحيات من أجل إظهار الصادقين المخلصين وتميزهم عن المنافقين (179).

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

■ وقفة هامة:

(بهذه الآية (179) تتم الآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد شاء الله تعالى أن تكون أحداثها نصرًا للمسلمين مشوبًا بتأديب وتربية وتمحيص وتزكية، وتطهيرًا للصف من أرتال المنافقين وعبيد المصالح والأهواء، وأن يجعلها سبيلًا لبناء الشخصية المسلمة القوية الثابتة الحصينة التي لا تهزها الشدائد ولا تنال منها المحن، وميزانًا لتمييز قيم الآخرة من قيم الدنيا وفرز أولياء الله من أولياء غيره، فاتضحت

بذلك معالم الطريق لسالكها ومنارات الجنة لطالبها. كل ذلك تم بإشراف نبي كريم ومرب حكيم وقائد فذ رحيم، صبر على قومه فلم تضجره رعوناتهم وإعراضهم وعداواتهم، وساس أتباعه برفق ولين فلم تبرمه أخطاؤهم، ولم تُحفِظه مخالفاتهم، ولا ضاق بمبطئهم ولا مستعجلهم)(1).

المقطع الثامن: توعية المسلمين بأفاعيل اليهود: [الآيات: 180 – 189]:

◄ ما مناسبة آيات هذا المقطع لما سبقها من الحديث عن (غزوة أحد)؟

بعدما تناولت الآيات السابقة موقف (المنافقين) بالتفنيد والتنديد والوعيد جراء ما أثاروه من شبهات باطلة واتهامات كاذبة وتثبيط للمؤمنين، ونشر للإشاعات والأراجيف، جاءت الآيات التالية للحديث عن (كبرائهم من اليهود) الذين جمعوا من صفات السوء والشر ما لم يجتمع في شعب واحد على مدار التاريخ، من بخل وسوء أدب مع الله سبحانه وتعالى، وقتل للأنبياء، وتكذيب للرسل، ومعاندة للحق.

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى ثلاثة محاور:

• **المحور الأول: فضح يهود وتعداد جرائمهم والتنديد بها تهديدًا لهم وتهوينًا من شأنهم في نفوس المؤمنين: (180 – 183). وإليك أبرز جرائمهم:**

1 – البخل بنعم الله، وعدم أداء حقها ولا القيام بشكرها. ومن أبرز صور البخل كتمان علمهم بصفات النبي ﷺ الذي بشرت به التوراة (180).

2 – التطاول على ذات الله، والكذب عليه، ووصفه بما لا يليق به سبحانه، وقتل الأنبياء بغير حق، وتكذيبهم في دعوى اتباعهم الحق (181 – 183).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ

(1) تفسير سورة آل عمران ص 447 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

﴿لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ
يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ
قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

• **المحور الثاني: عزاء وتسلية للنبي ﷺ على ما يلقاه من إعراض وتكذيب:** (184 – 186):

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤
كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ
وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥ ۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ
أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ
ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

وذلك من خلال:

1 – بيان (سنة أصحاب الرسالات مع السفهاء) أصحاب الطبائع النكدة والضمائر الفاسدة. لا يلقون منهم إلا التطاول الأحمق والسّفه اللئيم، وخاصة هذا الصنف من الناس (اليهود) الذين انتظم تاريخهم الأسود سلسلة مترابطة الحلقات من مواقف الفساد والشر في مواجهة كل خير (184).

2 – بيان الأجور الحقيقية التي تستحق أن يحرص الإنسان عليها ويسعى إليها سعيًا، ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾. هذا هو الفوز الحقيقي. أما متاع الحياة الدنيا الزائل الزائف، فما يستحق أن يضيع الإنسان من أجله ذلك المتاع الخالد الدائم العظيم (185).

2 – بيان طبيعة طريق الحق وما يكتنفه من متاعب وابتلاءات ستواجه المؤمنين على طول هذا الطريق، ولا تنتهي إلا بانتهائه، فليكن الصبر والتقوى هو زادهم وشعارهم في جميع مراحله. لذا كانت الآية السابقة تمهيدًا لكي تتقبل نفوس المؤمنين ذلك الابتلاء بصبر ورضا، ولا تأسى على متاع الحياة الدنيا، الذي تفقده في ذلك الابتلاء (186).

• المحور الثالث: عودة للحديث عن (مخازي اليهود وقبائحهم): (187 – 189):

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

1 – نقض عهودهم مع الله، وكتمانهم لما في كتابهم من حقائق إرضاءً للشهوات وللأهواء الباطلة (187).

2 – محبتهم أن يمدحهم الناس على ما لم يفعلوه من الوفاء بالعهود، بل ويطلبون من الناس أن يمدحوهم على ما ارتكبوه من منكرات. مع توعدهم بالعذاب الأليم. (188) مؤكدة بأنهم لن يخرجوا – بكل أفعالهم – من ملك الله الذي له ملك السماوات والأرض. وإنه على كل شيء قدير. ومن قدرته أن يعذبهم العذاب الذي يستحقونه على ما جنت أيديهم من آثام (189).

المقطع التاسع: أولو الألباب.. سمات ومصير: [الآيات: 190 – 200]:

◄ مناسبة آيات هذا المقطع للحديث عن (غزوة أحد):

(في الآيات السابقة التي بدأت بالحديث عن أحد، والأحداث التي جرت فيها، وما تكشّف في تلك الأحداث من وجوه المنافقين، وصبر المؤمنين، وكيد الكافرين، في هذه الآيات طال وقوف المسلمين في دخان هذه المعركة، وفي التطلع إلى وجوه شهدائهم الذين مثّلت بهم قريش بعد قتلهم، تشفّيًا وانتقامًا لقتلاهم في «بدر»، كما طال الوقوف أيضًا في مواجهة الكافرين والمشركين والمنافقين، الذين عرضهم القرآن الكريم وفضحهم..

وفي هذا الجوّ كانت تهبّ من الله نفحة رحمة وعزاء للمسلمين، فتلقاهم بين الفينة والفينة، وهم في هذه المسيرة الطويلة مع أحد وأحداثها، فتهدأ أنفسهم وتطيب خواطرهم، وتتجه قلوبهم، وتشخص أبصارهم إلى الله، بالحمد والشكران، لما منّ

اللّه عليهم به من الإيمان، وهداهم إليه، ولكن سرعان ما تنقلهم الآيات القرآنية إلى المعركة وجوّها، فتهتز مشاعرهم تلك المتجهة إلى اللّه، ثم يعودون إليها بعد أن تلقاهم آية رحمة وعزاء. وهكذا تظل أنظار المسلمين تتقلب بين الأرض والسماء، بين معركة أحد وأرضها، وبين رحمة اللّه ورضوانه، فكان من تمام رحمة الله بالمسلمين، ورضوانه عليهم، أن ختم هذا الموقف، وأنهى تلك الأحداث، بهذه الآيات التي تتيح للمسلمين لقاء خالصًا مع اللّه، في آفاق سماوية عالية، بعيدة عن تراب هذه الأرض ودخانها، ولقاء هنا مع اللّه، والنفوس مهتاجة، والقلوب مضطربة، من شأنه أن يحدث أثرًا مضاعفًا في الاتصال باللّه، وملء القلب والنفس ولاءً وخشيةً لجلاله وعظمته. وبهذا يزداد المؤمنون إيمانًا باللّه، ويقينًا بحكمته، ورضى بحكمه، وولاء لأمره ونهيه)[1].

◄ مناسبة آيات هذا المقطع لما سبقها من الحديث عن (قبائح اليهود):

□ لما توعدت الآيات السابقة اليهود على (سوء أدبهم) في حق الله وعلى سوء موقفهم من عهوده ومواثيقه، ومن رسله ورسالاته، جاءت هذه الآيات لتشيد بذكر المؤمنين و(حسن أدبهم) في حق الله، فهم عباد ربانيون لا يفترون عن ذكر الله، في جميع أحوالهم وجميع أعمالهم، قلوبهم متصلة بالله، متعلقة به، ترجو رحمته وتخاف عذابه. إنها قلوب مؤمنة صادقة الإيمان، تفكرت وتذكرت وتدبرت، فهداها التدبر إلى ما اهتدت إليه من الحق، فتوجهت إلى الله بمشاعر إيمانية صادقة، وتوسل حار إلى الله، فشتان شتان بين (إنابة وتضرع المؤمنين) و(استكبار وعناد اليهود المجرمين). (190 – 194).

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾.

(1) التفسير القرآني للقرآن ج 2 / 670 – 671.

(وكأن الآيات تقول للنبي ﷺ: دعك من هؤلاء الذين يكتمون الحق ويتبجحون، دعك من أصحاب المواقف الهزيلة، وانظر فيما يشغل بال أصحاب العقول والألباب، إنهم يتفكرون في خلق الكون ويذكرون خالق الكون)(1).

□ وبعدما ذكرت الآيات نماذج من مناجاة المؤمنين الذين يذكرون الله ويتفكرون في خلقه، وكشفت النقاب عن دخائل نفوسهم، ومكنونات ضمائرهم، ليعرفهم على حقيقتهم إلى بقية الناس، عاد فأثبت أن الحق سبحانه وتعالى لم يخيب رجاءهم، بل حقق أملهم واستجاب دعاءهم وتقبل تضحياتهم (195).

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾.

□ وفي مقابل تبشير المؤمنين وحسن التنويه بأعمالهم، يأتي التحذير من الانخداع بما يتقلب فيه الكفار من متاع الحياة وزخرفها، فإنما ذلك يجري وفق سنته تعالى في إمهال المجرمين واستدراجهم (196).

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾.

وكأني بهذه الآية (تزيل الأسى الذي يثيره ذلك الهاجس في القلوب وهو: لماذا يبتلى المؤمنون هذا الابتلاء الشاق، فيضطرون للهجرة من ديارهم أو يُخرجون منها، ويؤذون، ويخوضون للقتال فيموت منهم من يموت. بينما الذين كفروا يتقلبون في البلاد، آمنين مطمئنين، وفوق ذلك مسيطرين؟!

إن هذا المتاع، حتى لو دام إلى نهاية أعمارهم، ولم يؤخذوا بالعذاب قبل موتهم، فإنه ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾، وهل متاع الأرض كله، ومتاع العمر كله، إلا قليل؟! ما هو حين

(1) من هدي سورة آل عمران ص 245 - حنان لحام.

يقاس إلى متاع الخلد؟! ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ (الشعراء 205-207)[1].

□ ثم يعود السياق إلى ما كان عليه من الحديث عن حسن مثوبة المؤمنين ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

فشتان بين مصير ومصير.. عذاب قليل في الدنيا ونعيم الخلد في الآخرة.. ومتاع قليل في الدنيا ومأواهم جهنم وبئس المهاد!

□ ثم تجيء الآية التالية (199) تشجيعًا للآخرين من أهل الكتاب أن يؤمنوا قبل أن يوصد في وجوههم الباب: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾.

□ ثم يجيء الختام الأخير للسورة ببيان (أسس تحصين الجبهة الداخلية) للدولة المسلمة ورفع مناعتها وهي: (الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله)..
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

وفي تلك البشارة تنبيه للمؤمنين إلى عظم التبعة وضخامة المسؤولية، ثم حث وتحريض لهم على مزيد من الحماس والصمود والثبات، والبذل والتضحية، ومواصلة الخطو ومضاعفة الجهد. فالنجاح لا يتم بسهولة، والفوز لا يناله إلا أصحاب الهمم العالية والعزائم الصلبة والقلوب الراسخة.

---

(1) دراسات قرآنية ص 420 بتصرف – محمد قطب.

(2) (والصبر معناه: حبس النفس عن أهوائها وشهواتها وترويضها على تحمل المكره وتعويدها على أداء الطاعات.

والمصابرة: هي المغالبة بالصبر: بأن يكون المؤمن أشد صبرًا من عدوه).

ورابطوا: من المرابطة وهى القيام على الثغور الإسلامية لحمياتها من الأعداء، فهي استعداد ودفاع وحماية لديار الإسلام من مهاجمة الأعداء). (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 2 / 506).

وما أجمل ما ذكره الشيخ محمود شلتوت رحمه الله عن (علاقة خاتمة السورة بما سبق من مواقف وأحداث):

«إذا تذكرنا ما عرضت له السورة من مواقف المؤمنين مع (أهل الكتاب يهوديهم ونصرانيهم)، ومواقف (الحرب بين المؤمنين والمشركين) في حالة النصر مع قلة العَدد والعُدد، بسبب الصبر وحسن الطاعة والاعتماد على الله، وحالة الهزيمة مع الكثرة بسبب المخالفة والعصيان، و(مواقف المؤمنين مع المنافقين) الذين كانوا يرجفون عليهم بأساليب التغرير والتخذيل والكيد، ومن إرشادات الله في كل هذه المواقف إلى ما يحفظ على الأمة كيانها ويثبت أقدامها، ويحقق لها نصر الله الذي وعدها، سواء فيما يقع بينهم وبين أعدائهم، أو فيما يقع بين بعضهم وبعض، إذا تذكرنا هذا كله، واستحضرناه أمام أعيننا، واستحضرنا أن القيام به ليس بالشيء الهين اليسير، عرفنا كيف قضت الحكمة بأن تختم هذه السورة بالإرشاد إلى العلاج فيما حدث، والوقاية مما عسى أن يحدث، ولا يكون هذا العلاج إلا بالصبر والمصابرة، ولا تكون هذه الوقاية إلا بالرباط والوقوف أمام منافذ الشر بما يدرؤه (أي يدفعه) ويرده من حيث أتى. والتقوى ملاك العلاج والوقاية كليهما، وسبيل الحصول على الكمال المقدر للإنسان في هذه الحياة باجتناب ما يضر، واجتلاب ما ينفع، وذلك عين الفلاح الذي وعد الله به المؤمنين»[1].

❋ ❋ ❋

(1) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ص 129.

سورة النساء

موضوع السورة

(العدل وحفظ الحقوق)

تستهدف السورة أسس (البناء الاجتماعي) للمجتمع المسلم، وذلك من خلال الحديث عن ثلاثة ضمانات (لحفظ الحقوق) وإرساء القيم الفاضلة، وهي:

1 - العدل من خلال تحكيم شرع الله والحذر من مخالفته.

2 - الجهاد في سبيل الله لإنقاذ المستضعفين وإعادة الحقوق المغتصبة. (لا بد للحق من قوة تحميه من أيدي العابثين والمفسدين).

3 - كشف انحرافات وضلالات أهل الكتاب والمنافقين، وهما من أكثر الفئات التي تحرص على إضاعة الحقوق عبر تزييف الحقائق وتحريف المفاهيم وإثارة الشبهات. كما يسعى أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والمنافقون في كل عصر إلى صرف المؤمنين عن حق الله وهدايته، لذا وجب تحذير المؤمنين من مكائدهم ومؤامراتهم.

والحقوق التي تناولتها السورة كثيرة، منها:

(حق الله ﷻ بتقواه ورقابته - حق الأرحام - حق حماية الضعفاء (النساء واليتامى) - حق صيانة الأعراض والأموال والدماء - حق التكافل المعاشي - حق تحرير المستضعفين من ظلم الطغاة)

ولعل تخصيص السورة باسم (النساء) إشارة إلى اهتمام الإسلام بحقوق المستضعفين، خاصة النساء، فقد كفل الإسلام للمرأة كافة حقوقها ومنع عنها الظلم والاستغلال وأعطاها الحرية والكرامة، وهذه الحقوق كانت مهدورة في الجاهلية الأولى، وفي كل جاهلية[1].

وما أجمل ما ذكره الشيخ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله وهو يلخص موضوع السورة:

(ان احتفاظ الأمم بكيانها يرتبط بأمرين عظيمين: الاستقرار الداخلي والاستقرار الخارجي. والاستقرار الداخلي أساسه صلاح الاسرة، وصلاح المال في ظل تشريع قوي عادل، مبني على مقتضيات الطبيعة الإنسانية، مجرد من تحكيم الأهواء والشهوات، وذلك إنما يكون إذا كان صادرًا عن حكيم خبير بنزعات النفوس واتجاهاتها، تمتلئ النفس بعظمته وقوته، وغيرته على تشريعه ومحارمه.

والاستقرار الخارجي أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها، والاستعداد لمقاومة الشر الذي يطرأ عليها، والعدو الذي يطمع فيها)[2].

◄ علاقتها بما قبلها:

إذا كانت سورة آل عمران قد ركزت على (الحصانة الفكرية والنفسية) للمجتمع المسلم عبر كشف شبهات فكرية وتثبيت سنن ربانية، فإن سورة النساء ركزت على (الحصانة الاجتماعية) للمجتمع المسلم عبر حفظ الحقوق وصيانتها.

فإن المجتمع الذي لا تتماسك فيه روابط الأخوة الإنسانية، ولا تسري في كيانه

(1) (ولعل ورود سورة النساء في السبع الطوال التي تؤسس الأمة والدولة المسلمة وتسمية السورة باسم النساء للتأكيد على أن للنساء دورًا كالرجال ومسؤولية تجاه الأمة كمسؤوليتهم، وقد كانت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها نصف الأمة أول البعثة، وكانت أول شهيدة في الإسلام امرأة، وأول ممرضة للجرحى في الحروب امرأة، وتؤكد أن الأسرة ابتداء ثم المجتمع، والأمة لا تكون إلا باجتماع النساء والرجال في ميثاق غليظ هو ميثاق الزوجية المقدّس وضمان حقوق أفراد الأسرة يخلق مجتمعًا سليمًا قادرًا على مواجهة التحديات). (د. سمر الأرناؤوط).

(2) تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) ص 137 بتصرف.

مشاعر الرحمة والمودة التي تنتظم أفراده، هو مجتمع هزيل العود، متداعي البناء، لا يثبت لأقلّ هزّة تمرّ به، أو يقوم في وجه أية عاصفة تهبّ عليه.

◄ مناسبة أواخر سورة (آل عمران) لفاتحة سورة (النساء):

(لما ختمت سورة آل عمران بالدعوة إلى الصبر والمصابرة (قوة الاحتمال)، والرباط (الثبات والمتانة)، والتقوى(ملاك الأمر كله في إقامة الإنسان على طريق الحق والخير)، افتتحت سورة النساء بالتأكيد على أهمية التقوى.﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ...﴾ في إشارة إلى أن في السورة تكاليف تشق على النفوس، وتثقل على الطباع، وتحتاج إلى الصبر والمصابرة اللذين دعت إليهما أواخر سورة آل عمران)[1].

•• مقاطع السورة:

1 - المقطع الأول: حقوق الضعفاء: [الآيات: 1 - 43].

2 - المقطع الثاني: المتلاعبون بالحقوق والمتمردون على التشريع: [الآيات: 44 - 70].

3 - المقطع الثالث: الجهاد في سبيل الله وحماية حقوق المستضعفين: [الآيات: 71 - 104].

4 - المقطع الرابع: حفظ الحقوق وعدم المحاباة في الأحكام (موازين العدل الصادق): [الآيات: 105 - 135].

5 - المقطع الخامس: معالم الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح: (136 - 176).

(1) الفتوحات الربانية في الربط بين السور القرآنية ص 22 - 23 بتصرف - أحمد عبد اللطيف بدر.
(إن كانت سورة آل عمران قد ختمت بخطاب ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تحديدًا، فإن سورة النساء افتتحت بخطاب (الناس) عامة، فأحكامها تجعل المؤمن وغير المؤمن يأخذ حقه كإنسان في كون الله عز وجل. ونداء الناس عامة في مفتتح سورة النساء هو ثاني نداء في ترتيب المصحف، فقد سبقه نداء في سورة البقرة يأمر الناس بعبادة ربهم الذي خلقهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (21)، فهو خالق الناس جميعهم وربهم جميعًا. وسورة النساء يدعوهم سبحانه إلى تقواه ربًا خالقًا للبشرية من نفس واحدة على السواء وتقواه إلهًا رقيبًا على الناس جميعًا). (د. سمر الأرناؤوط).

المقطع الأول: حقوق الضعفاء: [الآيات: 1 – 43]:

بدأت السورة دعوتها إلى الناس جميعًا إلى تقوى الله ومراقبته، مؤكدة على تقرير مبدأ المساواة أمام الله، وفي كون جميع الأفراد من رجال ونساء منبثين من زوجين (ذكر وأنثى)، موجهة أن يكون لهذه المساواة جناحان من مراقبة الله، ومن عاطفة الرحم، فالأول يحول بين المتساوين وأن يظلم أحدهما الآخر، والثاني يحث كلًا منهما على معاملة الآخر بما هو إحسان وفضل يناسب الأخوة والرحم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

ويمكن تقسيم هذا المقطع إلى 9 محاور:

1 – المحور الأول: حقوق اليتامى والنساء والسفهاء: (2 – 6)

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ
وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ
صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ
أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا
وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾.

في هذه الآيات أول (اختبار عملي للتقوى) التي دعا الله ﷻ إليها في مطلع السورة، وذلك من خلال:

• الدعوة إلى رعاية (حقوق اليتامى) واتقاء الله فيهم وفي أموالهم، وتحريم تبديلها أو أكلها ظلمًا (2)[1].

• حماية أضعف صنف من الأيتام وهو(صنف النساء)، لمعالجة شأنهن المتعلق بحريتهن وكرامتهن وحقهن في الاختيار والحياة الزوجية السوية (3).

• حماية حق آخر للنساء هو لهن على أزواجهن واجب، ولهن من ربهن هبة وعطاء، وهو إيتاء المهر (4).

وجوب (اختبار اليتيم) من طرف القائم عليه قبل دفع أمواله إليه، ونهي القائم على أمر اليتيم عن الإسراف والتبذير في الصرف من مال اليتيم، ونهيه أيضًا عن استغلال صغر سنه، والمبادرة بتبديد ماله قبل بلوغه وكبره. ووجوب الإشهاد على اليتامى بدفع أموالهم إليهم حين الدفع من طرف القائمين عليهم. ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (5 – 6)[2].

2 – المحور الثاني: (حقوق الورثة في التّركة)، وإعطاء الأقارب واليتامى والمساكين عند القسمة: (7 – 10)

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟

(1) (ورد المال في سورة النساء 14 مرة وهذا أعلى معدل في سور القرآن. ولعل مناسبة هذا التكرار لموضوع السورة أن المال عصب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإعداد وإغاثة المستضعفين والمهور والمواريث.
وفلسفة النظرة إلى المال في القرآن أنه قوام الحياة، ومادة امتحان، ورزق إلهي لقضاء الحاجيات الحياتية، وخادم معاون.. فحاذِر أن يتحوّل إلى صنم، وحضارة اليوم حوّلته، فلنعُد إلى النّبع). (من تفريغ د. سمر الأرناؤوط إحدى محاضرات د. أحمد نوفل).
(2) وما أبلغ ختم الآية باسم الله تعالى (حسيبًا) تهديدًا للأوصياء لئلا يكتموا شيئًا من مال اليتامى، فإذا علموا أنَّ الله يحاسبهم على النقير والقطمير، ويعاقبهم عليه، انزجروا عن التلاعب بأموال اليتامى وتضييع حقوقهم.

مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

يجيء ذكر (الميراث وأحكامه) بعد ذكر (اليتامى وأموالهم) على الأوصياء الذين هم من أقارب المورّث غالبًا. فاليتم لا يكون إلا بعد موت الوالدين، موت الأب تحديدًا، وكذلك الميراث لا تقوم أحكامه إلا بعد موت المورّث (7 – 8).

ولما كان في الورثة غالبًا كبار أقوياء قد يستأثرون، وصغار ضعفاء قد يؤثر عليهم فيضيعون، فإن الله تعالى خاطب الورثة الكبار والأوصياء محذرًا من أن يحيفوا على ضعفائهم ظلمًا أو خذلانًا أو تخليًا، واستنفر فيهم مكامن الخوف من بلاء الدنيا وفتنها، ومن عقاب الآخرة وشدته (9 – 10).

3 – المحور الثالث: أحكام المواريث: (11 – 14)

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ
فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ
مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ
السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ
أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ
مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن
لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ
تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ
فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ
مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾
تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

حددت هذه الآيات (نظام الإرث بين الأزواج وبين الأقارب)، مما يحقق تكافل الأسرة، ويضمن استمرارها وانتفاعها بما يؤول إليها من أفرادها (11 – 12).

وختمت الآيات بالوعد والوعيد ترغيبًا في طاعة الله ورسوله، وتحذيرًا من مخالفة أمره أو تعدي حدود ما شرعه، بحيث يكون الوحي الإلهيّ وحده مصدر التّلقي لتلك الأحكام التي ترسم للمؤمنين حدود الله (13 – 14).

4 – **المحور الرابع: حق صيانة الأعراض (حماية الأسرة من الرذيلة):** [الآيات: 15 – 18]

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

◄ ما مناسبة هذه الآيات لما قبلها؟

لما أمرت الآيات السابقة بالإحسان إلى الأرحام ورعاية حقوق المستضعفين يتامى ونساء، وموتى موروثين وأحياء وارثين، عقبت هذه الآيات بإشارة واضحة بينة إلى أن هذه الفضائل لا تؤتي أكلها في مجتمع تشيع فيه الفاحشة والتسيب، ما لم يحاصر الفساد ويقمع الانحراف وتتطهر الأخلاق، ثم عرضت من هذا الفساد أسوأ نماذجه (الزنا – اللواط) وبينت العقوبة المترتبة على ذلك (15 – 16)[1].

(1) ذكر جمهور المفسرين أن المقصود بالفاحشة في هذه الآية هي الزنا، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هي الإمساك في البيوت إلى أحد الأمرين المذكورين، أما العقوبة بالنسبة للرجل فهي الإيذاء فقط، وقد نسخت سورة النور هذه العقوبة.. ويرى الشيخ محمد المدني رحمه الله أن الآيتين في جريمتين خاصتين غير جريمة الزنا، وأن القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث: الجريمة =

ثم فتح الحق سبحانه (باب التوبة) لهؤلاء المنحرفين عن الفطرة السوية مبينًا مفهوم التوبة النصوح ووقتها وشروطها، مرغبًا في تعجيلها والمبادرة بها وعدم تأخيرها، ومميزًا بين توبة المشمولين برحمته تعالى وتوبة المطرودين منها (17 – 18).

5 – المحور الخامس: تكريم الإسلام للنّساء بإثبات حقوقهن وإبطال عادات الجاهلية: [الآيات: 19 – 28]

ذكر الله فيما سبق (القوانين التي تضبط حقوق الـمجتمع) وتضبط حقوق أسارى الشهوات الـمحرمة الـمتجاوزين لحدود النظام الأسري والسلامة الـمجتمعية، وهنا يبين كيف يتم بناء الكيان الأسري بالاهتمام (بحقوق الزوجات في المعاشرة)، وذلك من خلال عدة تشريعات:

- **وجوب ترفع الأزواج عن استغلال زوجاتهم:**

من خلال الضغط عليهن بحبسهن إلى الموت، للتمتع بإرثهن، أو الإضرار بهن، لاسترجاع ما قدموا إليهن من الصداق عند الزواج، وضرورة تحمل الزوج لبعض المتاعب من زوجته حفظًا للأسرة من الانهيار، وتفاديًا للفراق بينهما والطلاق (19– 20)، مع التأكيد على تحريم استرداد شيء من المال الذي أخذته المرأة صداقًا أو هدية أو هبة وذلك في حالة الانفصال (21).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾.

= التي تكون بين رجل وامرأة (الزنا)، والجريمة التي تكون بين امرأة وامرأة (السحاق)، والجريمة التي تكون بين رجل ورجل (اللواط)، فالأولى جاء حكمها في سورة النور والثانية جاء حكمها في سورة النساء. (راجع المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء ص 174 – 175) ففيه تفصيل مفيد لرأي الشيخ ﵀ في تأويل هذه الآية.

• تحديد المحرمات من النساء في الزواج: (22-24)

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وهذا التحريم إما بسبب النسب، وإما بسبب المصاهرة، وإما بسبب الرضاع الذي يترتب عليه ما يترتب على النسب. ثم شرع في بيان ما يحل نكاحهن مما سوى ذلك، وأتبع هذا التحليل شروطه وهي أن يكون الصداق المقدم للمرأة بنية الإحصان وهو الزواج الشرعي، مع بيان أن لكل منهما أن يراضي الثاني ويلبي رغبته بما لا يخل بأحكام الشرع (الآية 24).

• بيان حكم التزوّج بالإماء وحكم عقوبتهن عند ارتكابهن الفاحشة: (الآية 25)

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• **اتباع منهج الله سبيل السعادة والاستقرار للمجتمع المسلم:** (26 – 28)

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾(1).

في هذه الآيات الثلاث يكشف الله سبحانه وتعالى عن رحمته بالناس فيما شرع لهم، وفضله عليهم فيما أباح لهم من طيبات، وفي هذا وذاك خير الناس وسعادتهم إذا هم استقاموا على شرع الله ووقفوا عند حدوده.

وفيها علاوة على ذلك تنبيه إلى أن عبيد الشهوات سوف لا يرتاحون لهذا النظام الإلهي الأخلاقي وأحكامه الطاهرة، لأنه يقف في وجوههم، ويسد أمامهم طريق الفوضى والتلاعب بالأعراض، بل إنهم سيحاولون إغواء بقية المسلمين وإغراءهم على تعدي الحدود التي رسمها الحق سبحانه وتعالى، وسيدعونهم إلى نبذ أحكامه وتعاليمه.

6 – المحور السادس: المعاملات المالية العادلة سبيل تحقيق التنمية والسلم:

[الآيات: 29 – 33].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾.

(1) (إن الله تعالى عليم بحالات الضعف البشري لا يتركهم لقمة سائغة لأهل الشهوات المضلّين، بل يفتح للعباد باب التوبة حتى لا يقنطوا إن هم زلّت بهم القدم وانقادوا وراء شهواتهم ودعوات من يريد إضلالهم فإن لهم ربًا يريد أن يتوب عليهم). (د. سمر الأرناؤوط).

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما بيَّن تعالى في الآيات السابقة (منهج التصرف في الأموال) أداءً للحقوق ورعايةً للعهود، وإحسانًا إلى المستضعفين، اتجه في هذه الآيات إلى نهي المؤمنين عن (الاستخدام المحرم للأموال) مبينًا عاقبة المعاملات المالية الفاسدة ومآل مخالفة تشريعاتها الإسلامية الرشيدة في الآخرة (29 – 30).

ثم فتح الوحي الكريم للناس بعد هذا الوعيد الشديد باب العفو حتى لا يقنطوا من رحمته، وذلك ببشارة المطيعين بتكفير السيئات لمن اتقى المهلكات (31).

وبعد أن حرم ﷻ (أكل الأموال بالباطل) ونهى عنه، انتقلت الآيات إلى معالجة جذور هذه الآفة في النفس البشرية لكبتها واستئصالها، وذلك من خلال (النهي عن التمني) الذي يقود إلى الطمع والحسد والتنافس والتكالب على ما في يد الغير مبينًا أن لكل من الرجال والنساء حظًّا يكتسبونه مما يبذلونه من جهد وأعمال، أو نصيبًا مقدرًا مما يصيبونه من ميراث وأرزاق، على حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية (32).

ثم بين ﷻ حق الورثة من الأقارب وحق أصحاب العقود الموثقة بالأيمان (33).

7 – المحور السابع: قوامة الرجل على المرأة والحثّ على تسوية النزاع بين الزوجين من بدايته: (34 – 35)

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

في معرض عناية الإسلام بالأسرة، وتنظيمه تنظيمًا دقيقًا لكل علاقاتها لكي تؤدي وظيفتها الحيوية في المجتمع.. يجيء ذكر القوامة، ويحدّد من يقوم بها في الأسرة.

مبينًا حقوق الرجال وحقوق النساء، وما يجب لكل فريق نحو الآخر، ودعا أهل الخير إلى محاولة الإصلاح بين الزوجين إذا ما دب الخلاف بينهما.

إن (تلك التنظيمات تدل على عناية الله بصيانة الأسرة وحفظ كيانها من التفتت.. لذا ينبغي للزوجين أن يدركا قداسة هذا الرباط الذي يربط بينهما وخطورة هذه المؤسسة التي يشرفان عليها فلا يعرضانها للدمار إرضاءً لنزوة عابرة أو أنانية طارئة)[1].

8 - المحور الثامن: العلاقات الإنسانية في ضوء عقيدة التوحيد (التضامن الاجتماعي العام): (36 - 42)

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

تنتقل بنا الآيات من (الأسرة الصغيرة) إلى (المجتمع المسلم) الذي يمثل الأسرة الكبيرة للمسلم. فتضع لنا خطة المسلم في علاقاته الاجتماعية.

وفي بدء هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ إشارة هامة إلى أن هذا الخيط الذي ينتظم الأحكام والتشريعات والتوجيهات هو خيط العقيدة، والذي افتتحت به السورة بقوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾.. إنه الأساس الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي، وتقوم عليه كل حياة الفرد المسلم. وفي هذه الآيات:

---

(1) من هدي سورة النساء ص 130 بتصرف - حنان لحام.

• **أمر بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين**، ومن إحسان للجار القريب ذي الرحم، إلى الإحسان للجار البعيد من غير الأرحام، ومن إحسان للرفيق، إلى الإحسان لعابر السبيل والرقيق (36).

وقد جاء ختام الآية (36) بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ مناسبًا بعد الأمر بالإحسان، وهو ذمّ لبعض موانعه من صفتي الاختيال والفخر الغالبة على بعض النّاس لضعف الوازع الإيماني، لا سيما عند الطّغيان الماديّ.

• **التحذير من البخل ومن الرياء في الإنفاق:** (37 – 42)

والحديث عن البخل والرياء يناقض الإحسان المأمور به في الآية السابقة، وذلك من خلال إعلان غضب الله ﷻ على البخلاء الذين لا يجودون ولا ينفقون، واستنكار ما يتظاهر به عشاق السمعة وعبيد الرياء من مظاهر الإنفاق والإحسان، وهم في الحقيقة قرناء الشيطان، مع توبيخ هؤلاء على تثاقلهم عن تكاليف الإيمان والإنفاق، ثم توعدهم بعدالته المطلقة يوم القيامة التي لا تحابي برًّا ولا فاجرًا، ولا يُحرم ثوابَها مؤمن، ولا يفلت من عقابها مجرم (40).

وتصف الآيات التالية مشهدًا من أعظم المشاهد المؤثرة في يوم القيامة، عندما يقف الرسول ﷺ شهيدًا على أمته، مبينًا حال أولئك الذين عصوا الله ورسوله، حيث يودون لو أن الأرض ابتلعتهم فلم يبق منهم أثر ولا خبر، ولكن أين المفر؟ (41 – 42)

9 – المحور التاسع: التّطهّر للصّلاة، ومجانبة حالة السُّكر فيها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

ولسائل أن يسأل: ما مناسبة الحديث عن (الصلاة) في هذا السياق؟

لما ذم الله تعالى البخلاء والمرائين باعتبارهم أهم من يمنع حقوق الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع الإنساني، بين في هذه الآية أن (إقامة الصلاة وعيًا بالله لا يغشاه السكر وطهرًا لا تغشاه الجنابة تزكِّي المؤمن، فلا يغشى المصلِّي الفتنة مع المال رياءً للناس أو تنجسًا بالفخر والخيلاء غفلة عن الله ونعمه في الدنيا.. فإن ذكر الصلاة يتخلل سياقات القرآن كما تتخلل الصلاة بدوامها ومواقيتها شعاب حياة الإنسان المؤمن)(1).

المقطع الثاني: المتلاعبون بالحقوق والمتمردون على التشريع: [الآيات: 44 – 70]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن استكملت الآيات السابقة الحديث عن (منظومة العلاقات العامة داخل الأسرة المسلمة) بما يحفظ تماسكها وحقوق أعضائها، انتقلت الآيات للحديث عن بعض الفئات الضالة التي تمثل (أخطر عدوٍّ للحقوق الإنسانية) سواء من أهل الكتاب (اليهود: عدو خارجي)، وهو العدو الذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، أو من المنافقين (عدو داخلي) وهم الذين يمنعون البشرية من حقها في وجود الحكم العادل المستمد من الكتاب والسنة.

---

(1) التفسير التوحيدي ج 1/ 378 – د. حسن الترابي.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط: (وتذكر الصلاة في القرآن بين آيات الأحكام كما في سورة البقرة حيث وردت بين آيات الطلاق، ووردت الاستعانة بها قبل آية الابتلاء، وقبل الحج والعمرة، فالصلاة هدفها النهي عن الفحشاء والمنكر وهي تذكرة للعبد بالله ربه حتى يتقيه وتطهير لقلبه حتى يتزكّى. والصلاة وردت 9 مرات في سورة النساء وهي ملمح بارز فيها لا يمكن إغفاله لمن أراد أن يحقق مقصد السورة ويعمل بأحكامها كلها، فالصلاة خير معين له على ذلك، الصلاة وقوف يومي للعبد بين يدي ربه في الدنيا استعدادًا لوقوفه بين يديه للحساب في الآخرة، وعلى قدر إقامته للصلاة في الدنيا يكون قيامه بأداء الأمانة في حكم الله وشرعه وفي حقوقه وواجباته نحو نفسه ونحو الآخرين بالعدل والإحسان).

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى محورين:

1 – المحور الأول: أهل الكتاب.. ضلال وانحراف: (44 – 59)

وقد جاء الحديث عن (اليهود) في هذه الآيات من خلال:

- بيان سوء استغلالهم للقسم الضئيل الباقي عندهم من الكتاب في خدمة مصالحهم المادية، وترضية أهوائهم الشخصية، وأوضحت سعيهم إلى تضليل المسلمين، وما هم عليه من عداوة ثابتة للمؤمنين (44 – 45).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

- تحريف اليهود وتأويلهم لنصوص الوحي وأوامره عن مواضعها ومقاصدها (46).

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

- توجيه الخطاب لأهل الكتاب لإقامة الحجة عليهم، داعيًا إياهم إلى الإيمان برسالة القرآن، محذرًا لهم من عقاب الله لهم بطمس وجوههم وردهم على أدبارهم، أو لعنتهم كما لعن الله أصحاب السبت من قبلهم (47).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

- إدانة أهل الكتاب بالشرك من خلال التأكيد على أن الشرك بالله ذنب عظيم لا يمكن أن يغفره لأحد من خلقه، وأن غيره من بقية الذنوب يمكن أن يكون محلًا للمغفرة بإذنه ومشيئته (48).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾.

• إبطال تزكيتهم الملفقة لأنفسهم وادعائهم الكاذب بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم لا تمسّهم النّار إلا أيامًا معدودات (49 – 50).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمًا مُّبِينًا﴾.

• الإشهاد للباطل ضدّ الحق إذا كان ذلك في صالحهم. فهم يفضلون المشركين على المسلمين بدعوى أنهم أحسن منهم حالًا وأفضل اعتقادًا. ثم تكر عليهم الآيات باللعن والطرد وتنذرهم بالفشل (51 – 52).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

• وصفهم بَشرّ الخصال الحاضنة لكل المخازي والشرور: البخل والحسد، وهما خصلتان تشتركان في أن صاحبها يريد منع الخير عن الناس، إلا أن البخيل يمنع الناس ما عنده، والحاسد يريد أن يمنع الناس ما عند الله. (53 – 54) وختمت ببيان مآل من كفر وهو الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة (55).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

• بعد ذكر الوعيد الخاص بطائفة أهل الكتاب، عمّم الله ذلك الوعيد ليشمل جميع الكافرين بآيات الله مطلقًا، بأيّ نوع من أنواع الكفر جحودًا أو شكًّا أو افتراءً على الله، وفي مقابل هذا الجزاء الوفاق للكافرين يسوق الرب الكريم جزاء عباد الله الصالحين، في نعيم الجنة وخلود السعادة (56 – 57).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾.

وفي مقابل (خيانة اليهود للأمانة) تدعو هذه الآيات المؤمنين إلى (تحقيق الأمانة والعدل)، مبينة أن الانقياد لله هو المظهر العملي الواضح لأداء هذه الأمانة، وغير هذا الانقياد هو التضييع للأمانة والعدوان عليها.

والانقياد لله يتبعه الانقياد لرسول الله ﷺ إذ كان هو السفير بين الله وبين عباده، والانقياد لأولي الأمر ليس انقيادًا مطلقًا بل هو انقياد محكوم بحدود العدل والخير والإحسان (58 – 59).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

2 – المحور الثاني: **المنافقون والتمرد على الشريعة:** (60 – 70)

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ

تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا
قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم
مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ
رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾.

والمنافق أشد خطرًا على الأمة في أمرها الجامع وشأنها العام، لسانه يدعي الإيمان وعمله يعلن الكفر، وغاية جهده التشكيك في صلاحية التشريع الإلهي للتطبيق، وفي صدق العاملين به والساعين من أجله.

ويأتي الحديث عن المنافقين من خلال:

- استنكار موقف الذين يزعمون أنهم مؤمنون، ومع ذلك يرفضون التحاكم إلى الله ورسوله، مفضلين التحاكم إلى غيرهما، وبذلك يخرجون من دائرة الحق والحكمة إلى دائرة الباطل والشهوة (60).
- تهربهم من حكم الله ورسوله، وامتعاضهم منه، وإعراضهم عنه (61).
- التنبيه إلى ما ينتظرهم من محن ومصائب وفتن جزاء تمردهم على ثوابت الدين، وتلاعبهم بأحكام الشرع سرًا، مع إعلانهم الإيمان بها جهرًا. مع بيان طريقة إصلاحهم بالحلم والموعظة الحسنة والتوعية المؤثرة (62 – 63).
- التأكيد على وجوب طاعة المؤمنين لرسولهم واتباعه والتحاكم إليه وتحكيمه في كل ما يختلفون فيه. وبيان أنه لا يتم إيمان امرئ حتى ينقاد لحكم رسوله ﷺ ويطيع أمره ظاهرًا وباطنًا، ويسلم الأمر كله لمنهج الإسلام تسليمًا تامًا برضا نفس وإقبال قلب (64 – 65).
- يُسْر شريعة الله تعالى، فهي لا تكلف الناس ما يعنتهم ولا ما يشق عليهم. فماذا على المنافقين لو استجابوا لوعظ الرسول ﷺ وتوجيهاته التي تهديهم إلى الصراط المستقيم، ونيل صحبة الصالحين في جنات النعيم؟ وأنعم بها من رفقة! (66 – 70)

المقطع الثالث: الجهاد في سبيل الله وحماية حقوق المستضعفين: [الآيات: 71 – 104].

◄ مناسبة هذا (المقطع) لما قبله:

لما حذرت آيات المقطع السابق من (مكر اليهود ودسائس المنافقين) الذين يعملون جهدهم في زعزعة الحكم الإسلامي، ومحاولة سلب سلطانه، والقضاء على أمنه واطمئنانه، جاءت هذه الآيات للحديث عن (مشروعية الجهاد لحماية حقوق المستضعفين) وصد عدوان الظالمين. وفيه إشارة إلى أن الحق لا بد لبقائه وتمتع الناس به من قوة تحميه.

◄ أما مناسبة (الآيات) لما قبلها:

(فإن الجهاد ربما يثقل على بعض النفوس لما فيه من تضحية بالمال واستعداد للجود بالنفس، لهذا مهد له بأن مقتضى الإيمان هو الطاعة لله ورسوله والامتثال لأمره، وجاء ذكر الطاعة في هذا السياق أربع مرات: ثلاث منها قبل هذه الآية التي تتضمن الأمر بالجهاد (الآية 5964 – الآية 64 – الآية 69)، والرابعة جاءت لاحقة لآية النفر والجهاد في السياق البعدي، قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء 80). ومع أن الطاعة في هذه الآيات وردت بخصوص أمور معينة تدل عليها المواقع، فإن اجتماعها متقاربة في ذلك السياق الكلي يلقي بظلاله على الأمر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾. لا سيما وأن طاعة الله سبحانه في تلك الآيات موصولة بطاعة الرسول القائد الذي يبلغ عن ربه ويدعو للجهاد امتثالاً لأمر ربه، وعلى الصف المسلم أن يطيعوا هذا الأمر مهما استثقلوه)[1].

وقد جاء الحديث عن الجهاد من خلال 5 محاور:

1 – المحور الأول: منارات على طريق الجهاد في سبيل الله: (71 – 77)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج 1/ 220 – 221 – د. محمد إبراهيم شادي.

أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ
فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا
بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ
لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا
مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ
كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ
عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ
فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ...﴾.

- الاستعداد للجهاد في سبيل الله باتقاء مكر العدو والحذر من خداعه (71).
- وصف كاشف لشعور المنافقين الدفين، وموقفهم الحقيقي من الجهاد والمجاهدين، وتصوير موقفهم في التلكؤ والتخاذل والتثبيط، والإشارة إلى جبنهم وأنانيتهم وانتهازيتهم (72).
- تحريض المؤمنين على القتال في سبيل الله، غير ملتفتين إلى تخلف المنافقين وتثبيط المثبطين (74).
- بيان هدف القتال في سبيل الله وهو إنقاذ المستضعفين، وإقامة العدل بإنصاف المظلومين. ومقارنته بأهداف القتال لدى غير المسلمين (75 – 76).
- بيان مواقف بعض الطوائف تجاه تشريع القتال في سبيل الله والتي حرصت على الحياة وتشبثت بمصالحها المادية، وذلك إمّا لضعف في الإيمان، أو لتصوّر ساذج لحقيقة هذا الدّين ومنهجيته في الحياة (77). مع التأكيد على أن الموت الذي يخشونه سيدركهم لا محالة حيثما كانوا قاعدين أو مجاهدين (78).

2 – المحور الثاني: التنديد بمواقف المنافقين وكشف دسائسهم والتحذير من الانخداع بهم، وموقف التعامل معهم (78 – 87).

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

والتنديد بمواقف المنافقين في سياق الحديث عن الجهاد في سبيل الله لأنهم من أكثر الفئات الضالة التي تثبط المسلمين عن الجهاد، وتسعى لبث روح الانهزامية والفشل في الصف المسلم.

وفي هذه الآيات:

- تحذير من المنافقين والمرجفين الذين يعملون على إحداث الفتن وبلبلة الأفكار دائماً، من خلال الأوهام الباطلة، والدعاوى الكاذبة، والرد على مزاعمهم الباطلة، وبيان لجلال منصبه وعلو مكانته ﷺ من خلال التأكيد على أن طاعة الرسول من طاعة الله (78 – 80).

- كشف خبث المنافقين من خلال التظاهر بالطاعة وإضمار العصيان (80). لذلك دعاهم الحق سبحانه إلى تدبر القرآن وفهمه لعل الغشاوة التي على قلوبهم تنقشع وتنجلي (81).

• كشف لمناورات المنافقين ومكرهم بالمجتمع المسلم قيادة ومجاهدين من خلال إشاعة الأراجيف والتسرع في نقل الأخبار قبل التأكد من صحتها والتي من شأنها أن تربك الصف وتضعف معنويات جهلة العامة وأغرارهم، من الذين يتلقفونها وينشرونها سذاجة دون تمحيص أو تبين وتثبت (83).

■ **وقفة هامة:** [الآيات: 84 – 87]

بعد التنديد بمواقف المنافقين السابقة، خاطب الله تعالى رسوله داعيًا إياه إلى القيام بواجب الجهاد الذي كلفه الله به، وأن يحض المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، غير حافل بما يضعه المنافقون في طريقه من العوائق تثبيطًا لأصحابه وتبطئةً وتخويفًا (84).

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾.

وفيه إشارة إلى أنه لئن حدث أن تخلفت الجماعات عن أداء الواجب فليس ذلك عذرًا للآحاد في التخلف عنه، أو التنصل من تبعة القيام به.

• وما دام التحريض على القتال يستدعي من المستجيبين له أن ينضم بعضهم إلى بعض في (تكتل عسكري متراص)، فقد بيّن سبحانه أجرَ الاستجابة لدعوة الجهاد والتعاون عليه، ووزرَ المتخلفين عنها والمشككين فيها.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾.

(والنص عام يشمل كل شفاعة حسنة وكل شفاعة سيئة. ولكن مناسبته هنا في السياق أن الذي يشفع شفاعة حسنة يكون مؤداها تحريض المؤمنين على قتال أعدائهم يكون له الجزاء الحسن عند الله، والذي يشفع شفاعة سيئة (بمعنى يسعى مسعاة سوء) تكون نتيجتها تخذيل الصف وإشاعة الخلخلة والاضطراب فيه، فإن له عند الله ما يناسبه من الجزاء)[1].

(1) دراسات قرآنية ص 479 – محمد قطب.

• (تقرير للقاعدة الأساسية في حياة الإسلام: إنه يسعى إلى السلام أبدًا. ويسعى إلى الحرب والقتال كوسيلة لإقرار السلام فحسب، لا من أجل القتال ذاته. ولكنه السلام الذي يرضاه الله سبحانه وليس أي سلام، (السلام الذي يعزّ أهله لا سلام الاستسلام المذلّ)، السلام الذي لا تكون فيه فتنة، ويكون الدين فيه كله لله)[1].

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾.

• وختمت الآيات بتأكيد جمع العباد يوم القيامة، ذلك أن الإيمان باليوم الآخر هو الضمان الأول للالتزام بأوامر الله والبعد عن نواهيه. وهو الدافع الأول لتحمل مشقات الحياة وصعوباتها.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾.

3 – المحور الثالث: (وحدة الصف المسلم تجاه موقفهم من المنافقين): (88 – 91)

وذلك من خلال بيان الموقف المحدد الذي ينبغي أن يتخذه المسلمون إزاء الفئات المختلفة خارج المجتمع، من (منافقين خارج أرض الدولة) وهي يومئذ دولة المدينة، و(كفار محالفين) لقوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، و(محايدين) لا يريدون أن يدخلوا في حرب مع المسلمين ولا حرب مع قومهم الذين هم على دينهم، و(متلاعبين) يظهرون الإسلام إذا جاءوا إلى المسلمين ويرتدون إلى الكفر إذا رجعوا إلى الكفار ليأمنوا هؤلاء وهؤلاء (88 – 91).

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ

(1) المرجع السابق ص 480 بتصرف.

وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ
جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾.

4 – المحور الرابع: **أحكام في القتل الخطأ والقتل العمد:** (91 – 94)

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ
فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ
مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا
عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ
إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

بعد عرض (أحكام القتل المباح) جهادًا في سبيل الله أو تطهيرًا للصف بقتل المنافقين المحاربين المُصرّين على تخريب مجتمع المسلمين ما لم يكفوا أيديهم ويجنحوا للسلم، انتقلت الآيات إلى أحكام (عدوان المسلمين على بعضهم) وتحريم القتال فيما بينهم. (حكم القتل الخطأ والقتل العمد) (91 – 93).

ثم وجهت الآيات تحذيرًا للمؤمنين – أثناء القيام بالجهاد – من الاندفاع وراء الهوى حتى لا يحدث قتل خطأ أو عمد، لأن مرتكبها قد تأول الحالة وتسرع بدون تثبت إلى القتل (94).

5 – المحور الخامس: فضل الجهاد وعلو مرتبته: (95 – 104)

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد بيان أهمية الأحكام الشرعية المتعلقة (بفقه القتال للمجاهدين)، وبيان الحال في القتل الخطأ والقتل العمد والقتل بالتأويل الفاسد، وما ينبغي فعله لتدارك مثل هذه الأخطاء والتطهر من تبعاتها، كفارةً وعتقًا وديةً ووعيدًا بالعقوبة والعقاب، تأتي الآيات التالية للحديث عن الجهاد في سبيل الله مرة أخرى من خلال (ذكر الجهاد وفضله وعلو مرتبته)، وذلك من خلال:

1 – نفي التّساوي بين المجاهدين والقاعدين في الفضل والأجر (95 – 96).

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

2 – حكم المستضعفين القاعدين عن الهجرة (الوعيد للمقصرين القادرين على الهجرة، وإعذار العاجزين (المستضعفين الحقيقيين) (97 – 99).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

3 – التنويه بشأن الهجرة وتذليل الصّعاب والمشقّات المتخيّلة فيها، بما ييسّره الله تعالى للمهاجر شريطة أن تكون هجرته في سبيل الله لإعلاء كلمته ونصرة دينه (100). وفي ذلك ترغيب لمن تخلفوا بمكة عن الهجرة إلى المدينة، للالتحاق بجمهرة المسلمين، وتحريض لهم على مفارقة المشركين.

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

4 – وبمناسبة الهجرة – وهذه الرحلة التي تحوطها المخاوف – يأتي حكم (صلاة الخوف) وبيان الصورة التي تؤدى بها (101 – 103).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾.

وهكذا يحافظ المؤمنون على صلواتهم التي هي صلتهم بالله في كل الظروف، يستمدون عن طريقها المدد الإلهي والعون الروحي لمواجهة مسؤولياتهم بقلب ثابت، وعزم صادق، ويقين في الله لا يداخله أدنى شك أو وهن(1).

5 – دعوة من الله تستحثّ عزائم المسلمين وتوقظ مشاعرهم للجهاد في سبيل الله بعد أن طال وقوفهم في هذا المقام وما واجهوا فيه من شدائد وأهوال. ونعم، إن أعباء الجهاد ثقيلة ولكنها على نفس المؤمن أخفّ وأهون مما هي على غير المؤمنين. فالكافرون

(1) ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد ما قرره الشارع في كيفية هذه الصلاة من الجمع بين مقتضيات العبادة ومقتضيات الدفاع على أكمل وجه من التوفيق والتنسيق، فأعطى لواجب العبادة حقه من جهة، وأعطى لضرورة الدفاع حقها من جهة أخرى، وهكذا لم يكتف الإسلام من جنوده بالعبادة وحدها مع التفريط في مقتضيات الدفاع والتعرض للخطر، كما لم يكتف منهم بالواجب العسكري وحده والتحرز من العدو، مع نسيان الله وإهمال الصلاة. (التيسير في أحاديث التفسير ج 1/ 374).

يجدون من أهوال الحرب وشدائدها ما يجد المؤمنون، ولكن المؤمنين يستعذبون هذا المورد الذي يفتح لهم طريق الرحمة، وينزلهم عند الله منازل الرضوان(104).

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

■ وقفة سريعة مع آيات هذا المقطع:

(لقد بدأ الحديث عن القتال من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ (71). وظل السياق متصلًا في موضع القتال فشمل دعوة المؤمنين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة إلى القتال في سبيل الله ولاستنقاذ المستضعفين من المؤمنين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ويدعون ربهم أن يجعل لهم من لدنه وليًا ونصيرًا، وشمل مواقف الفئات الزائغة كلها التي تخذّل نفسها أو غيرها عن القتال في داخل المجتمع المسلم، ثم مواقف الفئات الأخرى خارج المجتمع المسلم مع تحديد موقف المسلمين من كل منها، وشمل حكم القتل الخطأ والقتل العمد، ثم بيان فضل المجاهدين على القاعدين، وبيان وضع الذين يرضون بالقعود في دار الكفر حرصًا على مصالحهم الأرضية حتى تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، ومأواهم جهنم وساءت مصيرًا، والترغيب في الهجرة، وبيان حكم صلاة الخوف.. كل هذا في سياق متصل تُسْلِم كل نقطة منه للأخرى.

ويختتم هذا السياق المتصل بهذه الآية الدقيقة التي تلخص الموقف كله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

ولا شك أنه مما يشجعك على القتال أن تعلم أنك قد أحدثت في عدوك جراحًا وخسائر في الأموال والأرواح، وأنك لست وحدك الذي تتألم، بل إنك تؤلم عدوّك في ذات الوقت.

ولكن شتان بين ألم وألم. وهذا ألم ذاهب إلى الجنة، حيث تغسل الجراحات ويمسح الألم ويزول العذاب. وذلك ألم ذاهب إلى جهنم، ليزدادوا عذابًا فوق العذاب،

وليبقوا هناك: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾. (فاطر 36)
فما أبعد الشقة بين هذين الفريقين المتقابلين المتلاحمين في القتال!)[1].

المقطع الرابع: حفظ الحقوق وعدم المحاباة في الأحكام (موازين العدل الصادق):

[الآيات: 105 – 135].

ولسائل أن يسأل: ما علاقة هذا المقطع بسابقه؟

لئن تناول الحديث في الآيات السابقة الجهاد، وبين أن هدفه (تحرير الناس من التسلط والظلم وإقامة الحق والعدل)، جاءت آيات هذا المقطع للحديث عن (أهمية العدل في حفظ الحقوق)، ليكون مرجع التحاكم وميزان تمييز الحق من الباطل عند كل خلاف أو نزاع أو طغيان.

وقد جاء الحديث عن العدل من خلال ثلاثة محاور:

1 – المحور الأول: الدفاع عن حقوق المظلومين والتحذير من خطوات الشيطان المضلِّلة: (105 – 126).

عرضت هذه الآيات لونًا من ألوان التمرد على أحكام الله[2]، (ويرجع هذا اللون إلى استخدام القوى والمواهب والتدبير لإظهار الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، خديعة للحاكم وتضليلاً للقضاء. عرضت السورة إلى هؤلاء الذين

---

(1) دراسات قرآنية ص 485-486 بتصرف.

(2) تقول القصة إن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت لأحدهم درع فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ واتهم السارق (في رواية أنه طعمة بن أبيرق، وفي رواية أخرى أنه بشير بن أبيرق، وهو منافق كان يقول الشعر في ذم الصحابة وينسبه إلى غيره)، فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي يسمى زيد ابن السمين ووجّه قومه إلى الرسول ﷺ فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان (اليهودي) فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. فلما عرف رسول الله ﷺ أن الدرع وجدت في بيت اليهودي قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس، فنزلت هذه الآيات لتبرئة واحد من هؤلاء اليهود اتهم ظلمًا بسرقة درع لواحد من المسلمين. (دراسات قرآنية ص 487 – محمد قطب).

يتخذون هذا اللون من التمرد سبيلًا لتبرئة نفوسهم وهم الجناة، وإدانة غيرهم من البرآء، وهم المدينون، أو سبيلًا إلى كسب خبيث يحصلون عليه من الدفاع والمحاولة بالباطل ليخفوا به الحق، عرضت لهذا الفريق من الناس وحذرت الرسول أن يخدع بأساليبهم، أو يتهاون في تحري الحق اعتمادًا على ظن الصدق فيهم، وعلى ظاهر حالهم في دعوى الإيمان والخوف من الله، وقد جاء ذلك في جملة من الآيات نزلت في حادثة حاول فيها أهل الجاني أن يصرفوا عنه الجناية وأن يرموا بها بريئًا من اليهود، واتخذوا التدبير السيئ وطرق الخداع سبيلًا لصرف الرسول عن الحق)[1].

وقد جاء الحديث عن هذه القصة من خلال النقاط التالية:

1 - الأمر بتحكيم كتاب الله ﷻ وتحقيق عدالته المطلقة في قضايا الناس كلهم، والحذر من التأثر بمحاولات الخصوم في تلبيس الحق وإخفائه.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا﴾.

2 - التّعجيب من حال هؤلاء الخونة، كيف يخافون النّاس ولا يخافون الله؟ مما يدلّ على ضعف إيمانهم (بهدف تفعيل الرقابة لله ﷻ التي بها افتتحت بها السورة). مع تحذير للمؤمنين من التعاطف مع الخائنين أو مساعدتهم على باطلهم أو المجادلة عنهم.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾.

3 - فتح باب التوبة في وجه العصاة وإطماع كل مذنب تائب في المغفرة. وتقرير المسؤولية الفردية للعبد، ذنبًا وجزاءً ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ مع مضاعفة الذنب لمن يرتكب إثمًا ويرمي به غيره كي يتخلص من تبعاته الاجتماعية أو السياسية أو القضائية في الدنيا.

(1) تفسير القرآن الكريم ص 169 - الشيخ محمود شلتوت.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾.

4 – بيان فضل الله تعالى على نبيه ﷺ وعصمته له من الخطأ في التقدير والحكم.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾.

5 – تحذير المسلمين من الآثار السيئة والعواقب الوخيمة للتناجي في تدبير المكايد والتهم الباطلة مع استثناء التناجي بالخير والإصلاح (114). مع التحذير من مُشاقَّة الرسول ﷺ واتباع غير سبيل المؤمنين (115).

﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

6 – التحذير من الشرك وبيان خسارة المشركين في الآخرة[1]، وبيان بعض أوجه تضليل الشيطان لأوليائه استدراجًا لهم إلى الشرك ومكرًا بهم، مفصلًا أساليب إغواء الشيطان لأوليائه (115 – 120)[2].

---

(1) (ولئن كان نزول هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ...﴾ بسبب سارق الدرع الذي افتضح أمره فارتد وهرب إلى مكة، فإنها في الوقت نفسه تحذير من عاقبة الخيانة والردة، ودعوة للأمة الإسلامية كي تتحد وتعتصم بالدين، وتلتحم بمنهج الإسلام، وتجتنب الفرقة والتنازع). (تفسير سورة النساء ص 249 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي).

(2) (ولا بد من تأمل ورود أساليب الشيطان في المكر والإغواء خاصة في تغيير خلق الله في سورة النساء ونحن نرى واقع هذا الإغواء والمكر يتحقق بين نساء المسلمين إلا من رحم ربي وما ذاك إلا للكيد بدور المرأة في الأسرة والمجتمع بإشغالها في نفسها وما يهيأ لها أنه يزيدها جمالًا لتصبح سلعة رخيصة تتقاذفها الشياطين). (د. سمر الأرناؤوط).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾

9 – عقد مقارنة بين مصير (أولياء الشيطان) وعاقبة أمرهم في الجحيم، وبين مصير (أولياء الرحمن) وعاقبة أمرهم في النعيم (121 – 122).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

10 – تقرير (قاعدة العدالة الكبرى في الإسلام) وميزان الثواب والعقاب عند الحساب، وبهذا يقطع الطريق على أصحاب الأفهام الخاطئة والأماني الكاذبة. مبينًا طريق اللحاق بزمرة الصالحين الفائزين (123 – 125).

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾.

11 – تذكير الغافلين بملكية الله ﷻ للكون أرضه وسمائه، وإحاطة علمه بجميع مخلوقاته (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126) ومن كان هذا شأنه وتلك صفته فإن من السفه والضلال أن يولّى الإنسان وجهه إلى غيره أو يعبد معبودًا سواه (126).

2 - المحور الثاني: ميزان العدل والإصلاح في العلاقات الأسرية: (127 - 134)

◄ مناسبتها لما قبلها:

(بعد ختام ذكر العلاقة بين النبي راعيًا حاكمًا بما أنزل الله عادلًا والمؤمنين رعيةً تختصم وتُبتلى بميزان البينة والقسط، وبعد تأصيل ذلك على اتباع هدى الرسول لا مشاقته، وسبيل المؤمنين لا التولي عنه، والتوحيد لله لا موالاة الشيطان، يعود السياق إلى ذكر الأسرة المنزل على النبي في صدر السورة، ليخاطب النبي ﷺ فيما تستفتيه فيه رعيته المؤمنة حكمًا عدلًا في شأن النساء)[1].

وقد جاء الحديث من خلال النقاط التالية:

• تحريم هضم حقوق النساء عامة، وعدم ظلم اليتيمات منهن بصفة خاصة حين يبلغن مبلغ الزواج. والوصية بالعدل في أمور جميع اليتامى ذكورًا وإناثًا، فقراء أو أغنياء.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾.

• علاج حالة الزوجة المهددة بنشوز زوجها ونفوره منها وإعراضه عنها بالترغيب في الصلح والحث عليه[2].

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾.

---

(1) التفسير التوحيدي ج 1/ 430 بتصرف.

(2) النشوز: مصدر نشزت المرأة نشوزا إذا استعصت على بعلها وأبغضته، ونشز بعلها عليها إذا هجرها وجفاها.

• التأكيد على أن (العدل القلبي بين النساء في حالة التعدد) لا سبيل له ولو حرص المرء على القيام به. مع الدعوة إلى عدم الميل كل الميل إلى إحداهن بأن تبالغوا في إرضائها والإقبال عليها حتى تصير الأخرى التي ملتم عنها وهجرتموها كالمعلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة[1].

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

• إذن الله بالفراق بعد استنفاد وسائل الوفاق، مع الوعد الرباني بخير العوض.

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾.

• بعد أن وَعَدَ الله ﷻ الزوجين إن احتد الشقاق بينهما وتقرر الفراق بأن يغني كلًا منهما بواسع فضله، عقب - تثبيتًا للمأمورين وتطمينًا لنفوس الجزعين - بتذكيرهم (بسعة ملكه) وقدرته على حسن إثابتهم وإبدالهم خيرًا مما ضاع منهم. مع (التذكير بفريضة التقوى) وعدم التعدي على حدود الله، مبينًا أن التقوى وصية عامة وصى الله بها أهل الكتاب كما وصى بها المسلمين على السواء (131)[2].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾.

وكأن في هذا التذكير إشارة إلى أن من اعتصم بتقوى الله يتفادى الوقوع في كثير من المشاكل، ويعينه الحق سبحانه وتعالى على تخطي العقبات عندما تنزل بساحته النوازل. ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: 2].

(1) الشعور القلبي غير مؤاخذ به ما لم يظهر علانية على صورة ظلم واقع على إحدى الزوجات.

(2) (والتقوى المأمور بها هنا هي فرع من التقوى العامة التي أمر الله تعالى بها الناس في مفتتح السورة، ففي سياق الفراق يأمرنا بتقوى الإحسان بين الطرفين رعاية لحق الله تعالى وتقوى الإحسان في الرضا بتدبير الله والثقة بوعده). (د. سمر الأرناؤوط).

• تهديد الله ﷻ كل من تسول له نفسه الشرك والكفر والتمرد والخروج عن الطاعة باستغنائه عنهم وقدرته على أن يفنيهم ويأتي بخير منهم وأتقى، فهو سبحانه له الغنى المطلق عن خلقه، أساؤوا أم أحسنوا، أطاعوا أم عصوا (132 – 133).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٣٢ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾.

وما دام الأمر حقًا وأزلًا وأبدًا بيد الغني الحميد، فسؤالُ الناس ما عنده، ومطالبُهم منه بحسب قوة إيمانهم، وصدق نواياهم وصواب أعمالهم، وصفاء تصورهم للدنيا والآخرة والمآل والعاقبة، وهم في كل ذلك بين إرادتين: إرادة الدنيا وإرادة الآخرة. (134).

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

3 – المحور الثالث: **العدل المجرد من الهوى، والشهادة الخالصة من الزور:** (135):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

لما كان كل ما تقدم من آيات هذا المقطع يهدف إلى (إنصاف النّاس في حقوقهم وإقامة العدل بينهم)، جاءت هذه الآية لتؤكد ذلك بهذا الأمر الإلهي العامّ (بالقيام على العدل في جميع التّكاليف بمعايير شرع الله الحنيف)، لا بداعية الهوى لرغبات النّفس أو عاطفة القرابة.

فحق الله أولى بالرعاية والإشفاق، كما أنه لا يسوغ لك الميل بالهوى مع الفقير والتساهل معه لضعفه، والميل على الغني والتحامل عليه لغناه.

المقطع الخامس: معالم الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح: (136 – 176)

ما علاقة آيات هذا المقطع بالآيات السابقة؟

في هذه الآيات تنبيه (للذين آمنوا حقًا أن يؤصلوا الطاعة الصادقة لكل ما سبق من أوامر ووصايا على عقيدة الاستجابة لأمر الإيمان بأصول الدين، وأن يجددوا إيمانهم بعد إيمان ويرتقوا به درجة بعد درجة، يؤمنون بالله ربًا وملكًا وإلهًا للناس، وبرسوله مبلغًا أمانة الرسالة إمامًا وقدوة لحياة المؤمن، وبالكتاب الذي نزل من قبل وحيًا من الله الواحد يصدق بعضه بعضًا)[1].

وقد جاء الحديث عن (معالم الاعتقاد الحق) من خلال 3 محاور:

1 – المحور الأول: تحريض المؤمنين على رفع درجة إيمانهم وتصحيح تصورهم الاعتقادي:

محذرًا من يكفر بتلك الأركان ابتداءً ومن يتكرر منهم الارتداد والإصرار على الكفر والتمادي فيه، بالضلال البعيد (136 – 137).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾.

(ولئن كان الخطاب في هذه الآية موجهًا للمؤمنين كي يجددوا إيمانهم ويثبتوا عليه فإنه موجه أيضًا بالتبعية والتضمين للمنافقين الذين أسلموا بألسنتهم ولمَّا يدخلِ الإيمان في قلوبهم، ليَصْدُقوا ويخلصوا وتوافق قلوبهم ما نطقت به ألسنتهم، ولأهل الكتاب كذلك كي يؤمنوا بكل رسول وكل كتاب، لأن الأصل في دينهم الإيمان، وهم يكفرون بما سوى نبيهم وكتابهم)[2].

---

(1) التفسير التوحيدي ج1/ 438.

(2) تفسير سورة النساء ص 271 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

2 - المحور الثاني: الحديث عن فئتين انحرفتا عن مفهوم الإيمان الصحيح: (138 - 173)

الفئة الأولى: المنافقون (المذبذبون بين الإيمان والكفر) وأساليبهم: (138 - 149)

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا
سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ
إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن
كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟
كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ
هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ
ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ
وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾
مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا
يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ
تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

بدأ الحديث عن المنافقين بإنذارهم بالعذاب الأليم، مبينًا الصفات التي أدت بهم إلى هذا المصير السيء:

1 - موالاة الكافرين من دون المؤمنين ومصادقتهم والتودد إليهم سعيًا وراء عزة موهومة (139).

2 - الخوض في مجالس الكُفْر والاستهزاء بآيات الله، محذرًا المؤمنين من حضور هذه المجالس الباطلة (140).

3 - كُمُونهم داخل الصف المسلم لابتزازه في حالة نصره، والإجهاز عليه في حالة هزيمته، مبشرًا المؤمنين- تثبيتًا لهم ورفعًا لهممهم ومعنوياتهم- بألا يسلط عليهم عدوهم ما أخلصوا لله دينهم (141).

4 - المكر والخداع، والتثاقل عن الطاعات، والتردد والتذبذب بين الإيمان والكفر (142 - 143).

وبعد أن شرح الحق سبحانه دخائل المنافقين ودسائسهم أقبل على المؤمنين بالتحذير من موالاتهم أو إيثارهم بالمحبة والنصرة (144).

5 - توعد المنافقين بالعذاب الأليم في النار، مع إرشادهم إلى طريق الإصلاح بالتوبة النصوح القائمة على الصدق (145 - 146). مع تأكيد أنه ﷻ لا يعذب أحدًا من عباده تشفيًا ولا لطلب نفع أو دفع ضرّ، بل إنه تعالى يجري هذا العذاب وفقًا لعدله في الجزاء (147).

6 - بعد أن حذر الله المؤمنين من (عيوب المنافقين ومفاسدهم)، أبان حكم (الجهر بالسوء من القول)، لئلا يستدل المؤمنون بذكر عيوب المنافقين والكافرين في القرآن على استحباب الجهر بالسوء من القول أو مشروعيته. ثم استثنى من هذا التحريم كل من لحقه الظلم، ثم يرتفع بهم التوجيه الرباني من درجة (الامتناع عن السوء) قولًا وفعلًا، إلى درجة أرقى هي (فعل الخير) سرًا وجهرًا والعفو عن السوء لوجه الله تعالى (148 - 149)[1].

---

(1) (وهذه الآية قاعدة في أحكام الأسرة المسلمة، فلا يحق لطرف أن يجهر بالسوء من القول إلا في حدود ما تقتضيه الحالة ويكون الجهر بالظلم للجهة التي تتولى الحكم في المسألة، وإلا فالكل في المشاكل الأسرية والعلاقات الإنسانية يدّعي أنه مظلوم ولا أحد ينسب الظلم لنفسه أبدًا). (د. سمر الأرناؤوط).

الفئة الثانية: أهل الكتاب.. تعنت وعناد: (150 – 173)

في هذه الآيات:

1 – وعيد شديد لمن يدعون الإيمان ببعض الرسل وبعض الكتب، وهم يكفرون ببقية الرسل والكتب، واصفًا لهم بصفة الكفر المطلق، وهو أثر من آثار التعصب البغيض، والتقليد الأعمى، والهوى المتبع. في مقابل وعده لعباده الصالحين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠
أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

2 – تروي الآيات التالية سجلًا كاملًا عن أفاعيل (اليهود) في تاريخهم المليء بالتمرد والعصيان: فمن قولهم: أرنا الله جهرة وأخذ الصاعقة لهم بظلمهم، إلى اتخاذ العجل من بعد ما جاءتهم البينات، إلى أخذ الميثاق الغليظ منهم تحت الصخرة ثم نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتقولهم على مريم البتول واتهامهم لها بأبشع التهم، وقولهم إنهم قتلوا المسيح ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ
ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ
وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا
يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ
عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ
مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨
وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾.

3 - من أجل إصرارهم على الظلم واستمرائهم للبهتان والزور، وأخذهم بالمعاملات الربوية وأكل أموال الناس بالباطل، شدد الله عليهم في الدنيا وفي الآخرة، ومن ذلك في الدنيا تحريم بعض الطيبات عليهم تأديبًا وعقوبة، أما في الآخرة فالنار مثوى المصرِّين منهم (160 - 161). ولما بين تعالى عقاب هذه الطائفة المحرومة من بني إسرائيل استدرك باستثناء الصالحين فيهم فميزهم بصفاتهم وأنصفهم وقرر حسن جزائهم.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

4 - تلقين الرسول ﷺ حجته في الرد على منكري نبوته وجاحدي ما أوحى به إليه، في تعريض واضح بما دأب عليه المشركون واليهود من مشاغبات على الوحي ومحاربة لدعوة الإسلام.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

(والإسلام عندما يقرر وحدة الوحي، ووحدة الرسالة، ووحدة الرسل، إنما يؤكد بذلك وحدة الإنسان نفسه، ووحدة التوجيه الإلهي للناس جميعًا، لا فرق بين مختلف الأجناس والألوان والفئات، فالإنسانية في حقيقتها واحدة، ودين الله كما أوحاه إلى رسله وأنزله في كتبه واحد في مصدره، واحد في جوهره، واحد في أثره،

والأثر الذي يهدف إليه هو هداية الإنسان عن طريق الوحي الإلهي، وإمداد الإنسان عن طريق التوجيه الإلهي، حتى لا يبقى للإنسان على الله حجة)[(1)].

5 – وبعد أن قامت حجة الله على خلقه ببعثة رسله وإنزال كتبه، وثبتت وحدانية الله بطريق الشّرع والعقل، وتمت شهادة الله بنبوءة رسوله محمد ﷺ فقد اهتدى من اهتدى عن بيّنة، وضلّ من ضل عن بيّنة، فناسب بعد ذلك أن يجيء هذا الإنذار لأولئك الذين اختاروا طريق الضّلالة، وما ينتظرهم عند الله من الخلود في عذاب الجحيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

6 – دعوة كافة الناس دون استثناء إلى الإيمان بالحق الذي جاءهم من ربهم، والتحذير من الكفر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

7 – بعد أن انتهى من محاجة (اليهود) وإقامة الحجة عليهم، وهم قد غلوا في (تحقير عيسى وإهانته) وكفروا به، ذكر هنا محاجة (النصارى) ودحض شبهاتهم، وهم قد غلوا في (تعظيم عيسى وتقديسه)، وما أضافوه إلى دين الله من تلقاء أنفسهم من العقائد الباطلة، وما خلعوه على أنبيائهم من صفات الألوهية ودعاوى الربوبية.

مبينًا لهم حقيقة التصور الإيماني الصحيح لله تعالى. ثم بين الحق سبحانه وتعالى عاقبة الموحدين والمشركين (171 – 173).

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 2/ 12.

وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾.

وبهذا كله اتضحت الحقائق، وأعلنت العقيدة الإسلامية الصحيحة، وزيفت العقائد الباطلة، والأوهام الفاسدة، ومن ثم اتجه الخطاب الإلهي إلى كافة الناس، يدعوهم جميعًا إلى الإيمان الصحيح، والنور المبين، والرحمة والفضل والصراط المستقيم (174 - 175).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

8 - وتختم السورة باستكمال الشطر الآخر في (وراثة الكلالة)، وهو من يموت وليس له والد ولا ولد، والمراد بالإخوة هنا (لإخوة للأب والأم، أو للأب).

﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾.

فما السر في ذلك؟

(لما كان محور سورة النساء يدور في مجمله حول حقوق المستضعفين من النساء والرجال والولدان، وقد كان استهلالها باثنتي عشرة آية (من الآية 1 إلى الآية 12) تبين حقوقهم وتحض على رعايتهم وتحرِّم النيل من كرامتهم أو اغتصاب أموالهم أو

ابتزازهم بسلب ممتلكاتهم واستباحة أعراضهم، فإن الله تعالى آثر بحكمته أن يكون آخرُ السورة مشاكلًا لأولها، وخاتمتُها مكملةً لبعض أحكامها، ومذكرةً في نفس الوقت بمحورها العام الذي هو الوفاء بحقوق المستضعفين، وأن تكون أحكام الكلالة أنسب لخاتمة هذه السورة ولمحورها العام وما يأتي بعدها، لا سيما وقد نزلت في أولها آية ميراث الإخوة لأم (راجع الآية 12)[1].

ويختم الحق سبحانه وتعالى هذه السورة المباركة منبهًا إلى أن ما تضمنته من بيان كفيل بهداية المؤمنين إلى جميع مراشدهم الدنيوية والأخروية، حقوقًا فردية وجماعية ونظام أسرة وعلاقات اجتماعية، ونظام حكم وسياسة ومنهجًا للحياة شاملًا. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ (176)

وأضافت د. سمر الأرناؤوط مناسبة لطيفة بين فاتحة السورة وخاتمتها:

(وكما افتتحت السورة العظيمة بكمال قدرة الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ،اختتمت بكمال علم الله ﷻ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ وبالقدرة والعلم تثبت الألوهية والربوبية لله وحده سبحانه.

وبين المفتتح والختام ختمت آيات السورة بـ55 اسمًا من أسماء الله الحسنى. وهذه من خصائص السورة. وكل اسم يناسب الآية التي ختمت به لتزيد العبد ارتباطًا بالله ربه ولتعمر قلبه باليقين بالله ﷻ، فيعبده كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه مطّلع على ظاهره وباطنه قولًا وفعلًا وعملًا فهو سبحانه الرقيب، وهو الحسيب ،وهو الوكيل، وهو العليم والحكيم والخبير، وهو الغفور والرحيم، وهو المحيط، وهو الولي والنصير، فينضبط سلوكه وأخلاقه ومعاملاته، ويقوم بما أمره الله تعالى به، مؤدّيًا الأمانة التي كلّفه بها رجاء ثوابه وجنته.

(1) تفسير سورة النساء ص 316 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

وعليه فينبغي للعبد أن يطيعه فيما أمر به، وينتهي عما نهى عنه، ويلتزم بما شرع له من أحكام اقتضاها علمه سبحانه بخلقه وبيّنها لهم في كتابه الذي أنزله بالحق على رسوله الكريم حتى لا يضلوا ولا يظلموا أنفسهم فيتّقوا بذلك عقوبة الله لهم ويتقوا عذاب النار. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾.

* * *

سورة المائدة

موضوع السورة

(الوفاء بالعقود)

يقتضي عقد الإيمان بين العباد وربهم الوفاء بكافة التكاليف والتشريعات التي أمرهم بها الله، والحذر من عاقبة إهمالها، أو الإخلال بشيء منها.

لذا اعتنت سورة المائدة بإبراز أهم العقود التي شرعها الله لعباده من أجل تنظيم حياتهم الاجتماعية، ونشر قيم الأمن والسلام في جنبات المجتمع. ويتضح ذلك من خلال3 محاور:

1 - الأحكام والتشريعات المتعلقة بالطعام والشراب، والتأكيد على أن حق التحليل والتحريم لله تعالى وحده، مع بيان العقوبات على المخالفات سواء كانت كفارات أم حدودًا، تحقيقًا لمقاصد الشارع في حفظ النفس والعقل والعرض والدين والمال.

2 - التحذير من نقض المواثيق مثلما فعل أهل الكتاب من قبل؛ فبدّلوا دينهم وحرّفوا كتبهم وطمسوا معالم الحق؛ فاستحقوا اللعنة والخزي والهوان.

3 - التأكيد على قيمة الإيمان والتقوى في الاستجابة للأحكام والتكليفات. ولعل تكرر نداء (يا أيها الذين آمنوا) في السورة 16 مرة له دلالات عظيمة في بيان أن الإيمان يحفز صاحبه ويحرك همته للالتزام بالعهود الربانية والحذر من مخالفتها. كما أن التقوى تحرس الإيمان وتحميه من نوازع الهوى والعصبية والحسد والبغي.

و(قصة المائدة) تحذر من نقض الميثاق، وتذكر بعقاب الله للمخالفين، والذي تتجسد صورة منه يوم القيامة عندما يقيم عيسى عليه السلام الحجة على النصارى الذين نقضوا عقد الإيمان وبدلوا معالم الهدى.

(وسميت السورة باسم (المائدة) لأنها الآية الحسية التي طلبها أهل الكتاب لتطمئن قلوبهم بالإيمان، وقد ذكر الله جزاء من يكفر بها: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ليحذر المؤمنون من الكفر والتكذيب بالآية المعنوية - وهي أعظم - والتي هي عظيم أحكامه وشرائعه التي شرعها لأمة محمد، وقد بينت سورة المائدة جملًا منها)[1].

◄ علاقتها بما قبلها:

إذا كانت سورة النساء قد ركزت على (تحصين البناء الاجتماعي للمجتمع المسلم) عبر حفظ الحقوق وصيانتها، فإن سورة المائدة قد ركزت على (تحصين البناء الحضاري للأمة)، وذلك عبر الدعوة إلى الوفاء بالعقود وحفظ المواثيق، والتي تستهدف إقامة دولة القانون من أجل حماية (العقائد) من التحريف والتغيير، وحماية (الحياة) وصيانتها، وحماية (الأموال) وحراستها، وحفظ هوية الأمة وتميزها الحضاري.

وبدء السورة بهذه الآية الكريمة التي تدعو إلى الوفاء بالعقود هو مناسب للسورة التي قبلها «سورة النساء» لما تضمنته من أحكام اليتامى والمواريث والزّواج والتيمم والجهاد وغيرها، وكلها عقود ومواثيق بين الله وبين عباده الذين آمنوا به.

كما أن ختم سورة النساء بقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ بما يدل على توضيح الأحكام فيما يحقق مصالح العباد، وتنظيم حياتهم ومعاملاتهم وحقوق غيرهم بعد موتهم مناسب لبداية سورة المائدة بدعوتها للقيام بما أوجبه الله عز وجل من عقود.

(1) المعاني الإيمانية في فهم مقاصد السور ص 31 - د. هشام عبد الجواد الزهيري.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط مناسبة لطيفة لعلاقة سورة (المائدة) بما قبلها من السور:

(الوفاء بالعهود الذي تدعو إليه سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ والتي بيّنت في خاتمتها عاقبة عدم الوفاء به في قصة المائدة ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يشمل كل العهود التي وردت في السور السابقة بدءًا من الفاتحة، ومن هذه العهود:

سورة الفاتحة: عهد المؤمن مع ربه ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ عهد الإخلاص لله والاستعانة به.

سورة البقرة: عهد السمع والطاعة لأوامر وأحكام وتشريعات الله. ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾

سورة آل عمران: عهد التوحيد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ وعهد الإيمان واتباع الرسول. ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾، ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾

سورة النساء: عهد التوحيد ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾، وعهد الإحسان إلى الوالدين والإحسان للمخلوقين ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، وعهد طاعة الله وطاعة رسوله وأولي الأمر ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، وعهد أداء الأمانات والعدل والقسط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾، وعهد تنفيذ أمر الله في الوصية والميراث والحقوق.

•• مقاطع السورة:

1 – المقطع الأول: أحكام الميثاق مع الله: [الآيات: 1 – 11].

2 – المقطع الثاني: أحوال أهل الكتاب مع الميثاق: (12 – 58).

3 – المقطع الثالث: إقامة الحجة على أهل الكتاب [الآيات: 59 – 86].

4 – المقطع الرابع: أحكام تشريعية لتنظيم حياة المجتمع المسلم وتأكيد هويته الإيمانية: [الآيات: 87 – 108].

5 – المقطع الخامس: مواقف الأنبياء من أقوامهم يوم القيامة: [الآيات: 109 – 120].

المقطع الأول: أحكام الميثاق مع الله: [الآيات: 1 – 11]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ
غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ (١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ
وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ
وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ
أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٢) حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ
وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن
تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ
ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي
مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣) يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ
لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ
وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٤) ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ
وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ
بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ
سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا
فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ
وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞

بدأت السورة بالأمر الإلهي بوجوب (الوفاء بالعقود على اختلاف أنواعها)، ويدخل في الوفاء بالعقد بطريق الأصالة الوفاء بالعقد الذي عقده الله بين المسلمين ورسولهم، على الاعتصام بكتابه الكريم، والتزام العمل بشريعته الفاضلة. ثم شرع بعدها في تفصيل هذه العقود:

1 – (تحليل بهيمة الأنعام)، واستثناء ما يتلى تحريمه في الحل والحرم، وتحريم الصيد على المحرم داخل الحرم وخارجه، وعلى المقيم في الحرم، وتحليل الصيد لغير المحرم خارج الحرم (1).

2 – (تعظيم شعائر الله) والنهي عن انتهاك أحكام دينه والإخلال بمنهجه للحياة، والتّعاون على الخير ومنع الاعتداء (2).

3 – بيان (المحرمات من الأنعام) التي أشير إليها في أول السورة بقوله (إِلَّا ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ) وهى عشرة (3)[1].

4 – إكمال الدين وإتمام النعمة على المسلمين (4).

(إن مجيء هذا التذكير بنعم الله ضمن الحديث عن المحرمات هو أسلوب لإدخال الأوامر الإلهية إلى قلب المؤمن وجعله يستمسك بها، فالذي يأمرك وينهاك هو الذي يرعاك ويحميك من أعدائك ويكمل نعمه عليك.. فليس المقصد هو حرمانك وإعناتك.. بل هو حمايتك وإبعادك عما يضرك.. فالتكليف استمرار في الرعاية ومزيد من النعمة)[2].

ومن تمام النعمة إباحة الأكل من المحرمات السابقة في (حالة الاضطرار) والخوف من الهلاك. (فحفظ النفس من الضرورات الخمسة التي أكّدتها السورة).

5 – بيان الحلال من المطعومات (فما أحلّ الله هو كل طيب، وما حرّمه فهو كلّ خبيث)، وبيانة حكم صيد الجوارح المدربة (4).

6 – حكم مؤاكلة أهل الكتاب والزواج منهم (5).

7 – أحكام الصلاة والطهارة (وضوءًا وغسلًا وتيممًا) (6). (استكمالًا للتيسير على العباد).

---

(1) الميتة: هو كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير تذكية شرعية، مما أحل الله أكله.
﴿ وَٱلدَّمُ ﴾ أي: وحرم عليكم أكل الدم.و المراد به: الدم المسفوح. أي السائل من الحيوان عند التذكية.
﴿ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﴾ واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم.
والمنخنقة: هي التي تموت خنقًا إما قصدًا بأن يخنقها آدمي. وإما اتفاقًا بأن يعرض لها من ذاتها ما يخنقها.
والموقوذة: هي التي تضرب بمثقل غير محدد كخشب أو حجر حتى تموت.
والمتردية: هي التي تتردى أي: تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت من التردي مأخوذ من الردى بمعنى الهلاك سواء تردت بنفسها أم رداها غيرها.
والنطيحة: هي التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح. (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 4/ 42 – 46 – الشيخ محمد سيد طنطاوي).
(2) تأملات في سورة المائدة ص 29 – حنان لحام.

وفيها إشارة إلى أن الصلاة- وهي من طيبات الروح- تزكي النفس وتملأ القلب بالتقوى الضابطة لكل عمل وفق عقد الإيمان طعامًا أو نكاحًا.

8 – التذكير بنعمة الهداية للإيمان، داعيًا إلى شكر الله عليها قيامًا بأحكامه والتزامًا بعقده وانضباطًا بتقواه. ومحذرًا من الجراءة على دينه بنقض هذه المواثيق أو نسيانها أو الغفلة عنها (7).

9 – أهمية (القوامة على تنزيل منهج الله في الحياة)، وشهادة الصدق على البشرية، وإقامة العدل بين الناس. مع التأكيد على ثواب المطيعين، وعقاب العصاة المتمردين. (8 – 10).

10 – التذكير بنعمة خاصة أغدقها الحق سبحانه وتعالى على المسلمين فيها سلامتهم من أعدائهم، وهي نعمة (نصرهم بإلقاء الرعب) في قلوب المتربصين بهم من الكفار والمشركين (11)[1].

المقطع الثاني: أحوال أهل الكتاب مع الميثاق: (11 – 58)

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكَّر الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في الآيات السابقة بنعمته عليهم، وأمرهم بالوفاء بما عاهدوه عليه، عقب بمصير الذين (ينقضون الميثاق)، تحذيرًا للمؤمنين من أن يفعلوا فعلهم، أو يسيروا على نهجهم.

---

(1) (أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة عدة روايات.. رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي وأصحابه فقال: وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال: عني الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به وبرسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيهم ﷺ مما كانت يهودي بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم في الدية التي كان تحملها عن قتيل عمرو بن أمية وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك لأن الله عقب ذكر ذلك برمى اليهود بسوء صنائعها، وقبيح أفعالها، وخيانتها ربها وأنبياءها). (التفسير الوسيط للقرآن الكريم ج 4/ 99).

وقد جاء الحديث في هذا المقطع من خلال 6 محاور:

1 - المحور الأول: مضمون الميثاق المأخوذ على (أهل الكتاب) ونقضهم له، وعقوبة الله ﷻ لهم (12 - 14).

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

وفي ذلك دعوة أن يتعظ المسلمون في كل عصر بحال أهل الكتاب، ويعتبروا بما آل إليه أمرهم من نقض للعهود وترك لأحكام الدين، وتمزق طائفي وتناحر دموي، والعاقل من اتعظ بغيره.

2 - المحور الثاني: دعوة عامة إلى (أهل الكتاب من اليهود والنصارى) إلى النجاة: (15 - 16)

وذلك من خلال الإيمان بمحمد ﷺ وبالكتاب الذي جاء به وأن يصححوا معتقدهم في الله على ما جاء به. فتلك هي فرصتهم للنجاة وتجنب الضياع والهلاك.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

3 – المحور الثالث: من ضلالات وانحرافات أهل الكتاب: (17 – 26)

ومن أبرز هذه الضلالات:

الادعاء الكاذب بأن المسيح هو الله، والرد عليهم بتفنيد هذه العقيدة الباطلة التي يعتقدها النصارى في المسيح ابن مريم وأمه، مذكرًا بعبوديتهما لله، وخضوعهما لمشيئته، ونزولهما عند إرادته (17).

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

• الادعاء الكاذب والأماني الباطلة التي تزعم أنهم أبناء الله وأحباؤه (18).

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

• إقامة الحجة عليهم ببعثة الرسول ﷺ وإتمام الرسالة لهم وللناس كافة، فلم يبق لهم عند الله عذر إذ يصيرون إليه يوم القيامة متلبسين بمخالفة أمره (19).

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

• بنو إسرائيل والتخلف عن الجهاد (تمرّد وجُبْن) (20 – 26).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا

مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ .

هذه صورة من صور (نقض بني إسرائيل للمواثيق)، تتجلى فيها تمردهم وجبنهم عن دخول الأرض المقدسة، وسوء أدبهم مع ربهم ونبيهم.

وقد بدأت الآيات بتذكير قوم موسى بهذه النعم تمهيدًا لاختبار إيمانهم وثقتهم بربهم وأدبهم مع نبيهم وطاعتهم له، ثم أمرهم عقب ذلك مباشرة بالجهاد في سبيل الله تعالى، ولكنهم آثروا الذلة والهوان، فعاقبهم الله ﷻ بنفيهم في التيه وابتلائهم فيه مدة أربعين سنة، جزاء عصيانهم أمر الجهاد، وجراءتهم على مقام الألوهية، وسوء أدبهم مع نبيهم.

4 – المحور الرابع: قصة ابْنَي آدم (حسد وتهوّر): [الآيات: 27 – 32]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ .

وأول ما يتبادر إلى الذهن: ما مناسبة (قصة ابْنَي أدم) لما سبقها من (قصة تخلف بني إسرائيل عن الجهاد)؟

(إن مجيء هذه القصة بعد الحديث عن بني إسرائيل مباشرة يشير إلى الصلة الخفية بينهما، وهي أن ما في اليهود من (نزعة الشر والتمرد والعصيان) تمتد إلى عرق من

أحد ابني آدم، فهي نزعة موروثة، وإذا كان ابنا آدم يمثل أحدهما أصل الخير، ويمثل الثاني أصل الشر، فإن الله سبحانه قدر لبني إسرائيل أن يرثوا الثاني حسب علم الله بهم وبما جبلوا عليه من الجبن والغدر وإثارة الفتن)[1].

كما أن كلًا من القصتين يجسدان (نقض الميثاق الرباني)، والانحراف والفسوق عن مسار التقوى.

ففي (قصة بني إسرائيل) نقض (ميثاق الطاعة) عبر رفضهم الجهاد في سبيل الله نتيجة تخاذلهم وجبنهم، والذي ينقلهم من مرحلة الاستضعاف إلى التمكين.

وفي (قصة ابني أدم) نسيان حق عقد الإخوة ونقض (ميثاق حرمة النفوس) نتيجة الحسد وتزيين الشيطان.

فهما صورتان متعاكستان في نقض الميثاق نتيجة الجبن والإحجام (قصة بني إسرائيل) أو التهور والإقدام (قصة ابني آدم)[2].

وقصة ابني آدم تصف لنا نموذجين من البشر:

النموذج الأول: نموذج الإنسان النزاع إلى الشر، الميال إلى العدوان، المصر على الأذى، المتعدي للحدود.

النموذج الثاني: نموذج الإنسان النزاع للخير، الميال إلى الإنصاف، الحريص على الإحسان، المتمسك بالتقوى.

ومن هنا اقتضت حكمة الله (تشريع الحدود الرادعة) عن ارتكاب الجرائم، وحماية الأرواح، من اعتداء المعتدين حتى لا يعكروا صفو الحياة على بقية الناس الآمنين.

وهذا هو السر في قوله تعالى عقب الانتهاء من (قصة ابني آدم) مباشرة: ﴿ مِنْ

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج 1/ 249.

(2) وأضافت د. سمر مناسبة أخرى لطيفة بين القصتين: (قصة (بني إسرائيل) سلّطت الضوء على واحدة من نوازع النفس البشرية السلبية: الجُبن وكراهة الموت الذي أفضى بهم إلى رفض تنفيذ الأمر الإلهي. وقصة (ابني آدم) سلطت الضوء على نوازع الحسد في النفس البشرية الذي أفضى بصاحبه إلى عدم الرضا بحكم الله ثم التمادي بالاعتداء بالقتل وهي أشنع جريمة في الأرض).

أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ... ﴾ (32) ويأتي التعقيب على بني إسرائيل الذين استخفوا بالشرائع رغم ما جاءهم من الآيات وما فيها من مواعظ وتشريع وتحذير وتهديد. ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

5 - **المحور الخامس: حفظ أمن المجتمع بالعقوبات الزاجرة (33 - 40):**

تنتقل الآيات من الحديث عن أمن (الأرواح) إلى أمن (الطرق والأموال) وذلك من خلال النقاط التالية:

- **الأمن في الطرق (حكم الحرابة): (33 - 34)**

اعتبر الحق سبحانه وتعالى قُطَّاع الطرق المسلحين والعاملين على الإخلال بالأمن العام، (محاربين) لله ولرسوله، ومن ثم سميت جريمتهم بجريمة (الحرابة) إشعارًا لكل من يهمه الأمر، بأن صيانة أمن الناس فريضة عامة من فرائض الدين، والإخلال بها عدوان على حق الله المبين.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

- **دعوة للمؤمنين إلى الثبات على الإيمان والتقوى: (35 - 37)**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

وذلك بأن يعملوا ما بوسعهم للاقتراب من اللّه بالعمل الصالح والجهاد في سبيله حتى يبتعدوا أكثر ما يمكن عن هذه المهالك التي تأخذ المفسدين بأنواع النّكال والبلاء.

ثم لفتة أخرى للمؤمنين إذ يرون فيها أهل الكفر والفساد وما أعدّ لهم من عذاب أليم في الآخرة بعد أن رأوا ما حلّ بهم من نكال في الدنيا، فإذا أفلت منهم أحد من عقاب الدنيا لم يكن له من سبيل إلى الإفلات من عذاب الآخرة، وإنه إذا دفع عن نفسه عذاب الدنيا بمال أو حيلة أو نحو هذا فإنه لا دافع لعذاب اللّه الراصد له في الآخرة.

وفي هاتين الآيتين (36 – 37) تعريض واضح (بابني آدم) إذ قتل أحدهما الثاني إيثارًا لدنيا يصيبها، و(بأهل الكتاب) إذ غرتهم الحياة الدنيا فنقضوا عهدهم مع الله من أجلها، ببيان بتفاهة جميع ما في الدنيا من زينة وأموال ولذائذ يتركها المرء وراءه عند الموت، ولا تدفع عنه شيئًا من عذاب الآخرة، ولو افتدى بالدنيا بأسرها.

- **الأمن على الأموال (حكم السرقة):** (38 – 40)

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾

شرّع الله ﷻ هذه العقوبة نكالًا منه لمثل هؤلاء العصاة عساهم أن يرتدعوا، كما فتح باب الرحمة والتوبة للتائبين، مبينًا بأنه هو مالك الملك، وهو أعلم بما يصلح عباده في تقرير جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة، إن عذابًا وعقابًا، أو عفوًا وغفرانًا، كل ذلك مرهون بمشيئته العلية، لا ينازعه فيها أحد.

6 – المحور السادس: تحصين الأمة في مواجهة اليهود وأعوانهم: (41 – 58)

◄ مناسبتها لما قبلها:

(بعد أن بينت الآيات السابقة حد الحرابة وحد السرقة لتحصين أمن المجتمع في الداخل ومحاربة الجريمة وردع المجرمين، ناسب أن يذكر بعدها ما يتعلق بتحصين المجتمع الإسلامي في مواجهة أعدائه المتربصين به في الداخل والخارج)[1].

وقد جاء الحديث في هذه الآيات من خلال نقطتين:

أولًا: كشف ضلالات وانحرافات أهل الكتاب: (41 – 50)

• بدأت الآيات بتثبيت الرسول ﷺ بما يخفف حزنه ويقوي نفسه ويسليه عما يراه من تهافت ضَعَفَةِ الإيمان على الكفر، ومسارعتهم إلى موالاة العدو. مبينًا له صفات هؤلاء الماكرين من تصديق للأكاذيب، وتحريف للكلم عن مواضعه، وتهالك على أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الرشوة والربا. مرشدًا له ﷺ إلى كيفية التعامل معهم إذا ما تحاكموا إليه مرة أخرى (41 – 42).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾.

• بيان عبث اليهود وعدم جديتهم في الأخذ بدينهم الذي يزعمون أن إيمانهم به يمنعهم من اتباع الإسلام والإيمان برسوله، إذ لو كانوا مؤمنين به حقًا لعملوا

(1) خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة ص 144 – د. إبراهيم الكيلاني.

بأحكامه ولم يحرفوها، وهي تغنيهم - ما لم يبدلوها - عن التحاكم إلى الرسول ﷺ كيدًا ومكرًا وتحايلًا. مع بيان حالهم مع التوراة والإنجيل وكيف بدلوها وجحدوا أحكامها مع أن الله أنزلها لهم فيها هدى ونور يجب الإذعان لحكم الله فيها (43 - 47).

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾.

- بيان منزلة القرآن من الكتب قبله، فهو خاتم الكتب السماوية يصدقها ويهيمن عليها، وشريعته هي خاتمة ما أنزل الله من الشرائع، داعيًا نبيه ﷺ بالحكم بما أنزل الله بينهم، وناهيًا له عن الاغترار بأصحاب الأهواء (48 - 49).

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ﴾.

وتختم الآية (50) ببيان السر الخفي والدافع الحقيقي لخصومة أعداء الشريعة لها، ذلك أنهم يفضلون شريعة الغاب على شريعة الكتاب، لأنهم يجدون في كنف الأولى كل

ما يحقق أغراضهم المنحرفة من الوسائل والأسباب. وذلك لأن في قلوبهم استكبارًا عن اتباع الشريعة واستكبارًا عن تقبل إيقاع العقوبة بهم، وهذا من حكم الجاهلية.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

ثانيًا: المفاصلة بين المسلمين وأهل الكتاب (على قاعدة الولاء والبراء): (51 – 58)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعدما كشفت الآيات السابقة للمسلمين طبيعة (ضلالات وانحرافات أهل الكتاب والمنافقين)، وطرائق تخريبهم للصف المسلم، عادت إلى مخاطبتهم بصفتهم الإيمانية الحقة، محرمة عليهم (موالاة الخصوم المتربصين) بهم الدوائر من سائر الملل والعقائد الضالة، لما في هذه الموالاة من جهل بمقتضيات العقيدة السليمة وتمييع للصف وإضرار بالوحدة.

ويمكن تلخيص ذلك في النقاط التالية:

□ تحريم اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وبيان عاقبة موالاتهم، وفضح المنافقين المسارعين إلى موالاتهم وانكشاف زيف دعواهم الإيمان ووعودهم الكاذبة للمؤمنين بالنصرة (51 – 53).

□ تحذير المؤمنين من الردة عن الدين، سواء كانت ردة نفاق أو ردة كفر معلن صريح. داعية في ذات الوقت إلى التحيز للصف المسلم وموالاته في كل أمر، عاطفةً ومحبةً، وحمايةً ونصرةً، ونصحًا وتكافلًا. مبشرة لهم بالنصر والغلبة والتمكين (54–56).

□ دعوة المؤمنين أن يجتنبوا هؤلاء المنافقين والكافرين الذين يهزءون بهم وبدينهم ويتخذون من أحاديثهم في المجالس معرضًا للسخرية بالمسلمين والاستهزاء بالشعائر الإسلامية (57 – 58).

المقطع الثالث: إقامة الحجة على أهل الكتاب: [الآيات: 59 – 86]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن حذر – سبحانه – المؤمنين تحذيرًا شديدًا من موالاة أعدائه، عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم، ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة والأخلاق الذميمة.

وبتدبر هذه الآيات نستخرج أهم صفاتهم التي دعتهم لرفض رسالة الإسلام:

1 – الغيرة والحسد.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

2 – مكابرة أهل الكتاب بعدم الانتفاع بتأديب الله لهم بعقوبات المسخ واستنزالهم غضب الله ولعنته لسوء حالهم مع أنبيائهم (عدم الاعتبار من سنن الله تعالى في عقوبة المعرضين).

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

3 – الغدر والخيانة، والمكر والتآمر، والانغماس في مستنقع الإثم والعدوان وأكل السحت، وترك علمائهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

4 – التطاول على خالقهم ووصفه عدوانًا بما ليس من صفاته. وهذه أسفل دركات الوقاحة وفساد الفطرة. والإخبار بحالهم وعاقبة أمرهم وما سيحل بهم إذ لجوا في الطغيان والنفور والعناد بعد أن دعوا إلى الإيمان. (هذه الصفة الذميمة فيهم هي السبب لباقي صفاتهم القبيحة، فمن تجرّأ على الله جل جلاله هل يُتوقع منه خير أو يُرجى منه استقامة؟!)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

5 – دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالله وتقواه (رغم قبائح ذنوبهم لغناه سبحانه عنهم ولحاجتهم إليه)، وفتح باب التوبة لهم، وأبواب الخيرات والبركات الدنيوية والأخروية في حالة التزامهم بتنفيذ التوجيهات الإلهية التي تضمنها الوحي المنزل في التوراة والإنجيل والقرآن (65 – 66).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

6 – حض الرسول ﷺ على القيام بواجب التبليغ بقوة وتوكل على الله الذي يحميه ويرعاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

7 – إدانة أهل الكتاب بما هم عليه من مخالفة صريحة للتوراة والإنجيل، مبينًا أن ما يدعونه من التمسك بهما، وما ينسبونه إليهما مما ليس منهما، هو منتهى الزور والتضليل.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

8 – بعد ذكر مصير هذه الفئة (الضالة)، فقد عرض لمصير أربعة أصناف من (التوابين الأوابين للحق) في كل عصر ومن كل دين. هذه الأصناف كلها يبشرها الحق تعالى بسلامة المصير إن هم أدركوا رسالة الإسلام وآمنوا بها واستقاموا على أحكامها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

9 – التنديد بموقف بني إسرائيل من ميثاق الله الذي واثقهم به، والتنديد بموقفهم من رسل الله الذين تعاقبوا عليهم، فأدى بهم التجبر والاغترار بما زُيِّن لهم من الدنيا إلى نسيان سنن الله تعالى في اختبار عباده وفتنتهم، مع ما يستتبعه ذلك من صمم عن سماع الحق وعمىً عن رؤيته (70 – 71).

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾

10 – غلو النصارى وانحرافهم: (72 – 77)

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ
ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ (٧٢) لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ
وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٧٤)
مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ
كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ
يُؤۡفَكُونَ (٧٥) قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ
هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٧٦) قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ
أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

ومن الحديث عن (بني إسرائيل) وموقفهم من أنبيائهم (المغالي في تكذيبهم) انتقلت الآيات إلى الحديث عن موقف المدعين (لاتباع المسيح المغالين فيه حدّ تأليهه والإيمان به)، وذلك من خلال:

- بيان كفرهم الصريح بسبب تأليههم لعيسى ابن مريم، على خلاف تعاليمه ووصاياه التي نادى بها من المهد إلى اللحد ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾، والتأكيد بأن الإله المعبود هو رب العالمين وحده لا شريك له، وبأن الشرك بالله ظلم عظيم لا جزاء له إلا النار، وليس لأهله شفعاء ولا أنصار (72 – 73).
- دعاهم إلى التوبة والاستغفار وفتح لهم باب الرحمة (74).
- وصف الحقيقة الصادقة عن المسيح وأمه مريم دون زيادة ولا نقص، ولا غلو ولا تحريف، ولا تأليه ولا تثليث. وذلك من خلال بيان افتقارهما إلى حاجات الجسد، ومن خلال صفاتهما ضعفًا وعجزًا (75 – 76).

• التحذير من الغلو في الدين واتباع الهوى وهما أس الداء ورأس الضلال (77).

• ولما كان الغلو في الدين واتباع الأهواء أصل فساد العقيدة والعمل في كل أمة، عقبت الآيات بنموذج من (غلو بني إسرائيل) نتيجة تواطؤهم على المنكرات، وحرصهم على موالاة الكافرين، وما أدى إليه هذا السلوك المنحرف من عذاب في الدنيا (سخط الله) والآخرة (خلود في العذاب).

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾.

11 – موقف أهل الكتاب والمشركين من المسلمين: (82 – 86)

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد ذكر مواقف أهل الكتاب من دعوة الإسلام ومحاجتهم في (فساد عقيدتهم)، وولائهم لأعداء الدين وإعراضهم عن الحق المبين، جاءت هذه الآيات لتبين (حالاتهم النفسية) في نظرتهم إلى المسلمين، وأنهم على تفاوت نسبي في الإعراض والعداوة.

وختمت ببيان جزاء المحسنين وعاقبة الكافرين.

وفيه إشارة إلى أن المستكبر المتجرئ على الله عز وجل قلبه غُلفٌ مطبوع عليه لا ينفذ منه شعاع إيمان، أما الضالّ فما زال في قلبه مساحة لدخول نور الحق سرعان ما يملأ قلبه فيؤمن ويصدق إيمانه.

المقطع الرابع: أحكام تشريعية لتنظيم حياة المجتمع المسلم وتأكيد هويته الإيمانية: [الآيات: 87 - 108].

◄ مناسبتها مقاطع السورة:

لما جادلت الآيات السابقة اليهود والنصارى حول (فساد ما يعتقدونه وما يحلونه وما يحرمونه)، وما يغالون في إباحته أو تحريمه ومحبته وكرهه، جاءت هذه الآيات (لتُبيِّن للمؤمنين بقية من الأحكام التشريعية العملية في حياتهم الخاصة والعامة) بدءًا بطيبات من الحياة التي كان بعضهم يحرمها، ثم بعادات سيئة كانت محمودة في مجتمعهم. (فمن تمام الولاء لله ﷻ وتشريعه ومن سلامة عقيدة المسلم أن يتطهر من كل العادات الموروثة التي بدّلت وحرّفت وفق أهواء البشر).

1 - النهي عن تحريم الطيبات والعدوان على حق الله في التحليل والتحريم: (87 - 88)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

وفي مجيء هذه الآية عقب الآيات السابقة التي امتدحت رقة النصارى وقد عرف عنهم الزهد والتقشف حتى حرموا على أنفسهم كثيرًا من الطيبات إشارة لطيفة لتأكيد (هوية الأمة المسلمة) وتجنبها (مظاهر الرهبانية التي ابتدعها النصارى في دينهم). وفي ذلك توجيه للذين آمنوا أن الإسلام دين الوسطية لا إفراط ولا تفريط، لا مادية بغيضة كبني إسرائيل ولا رهبانية مبتدعة كالنصارى، وإنما توازن بين المادة والروح.

2 – حكم الأيمان (يمين اللغو وكفارة اليمين المنعقدة): (89)[1]

ثم بالتفات لطيف إلى بعض المسلمين الذين أقسموا على تحريم بعض ما أبيح لهم من الأطعمة والأنكحة تزهدًا وغلوًا في التعبد، بين لهم الحق سبحانه (تَحِلَّةَ أيمانهم وكفارتها) وما هو منها لغو وما هو منعقد فقال سبحانه مبتدئًا بلغوها:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

3 – تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام: (90 – 93)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

لما نهى الله تعالى في الآيات السابقة عن (تحريم الطيبات)، حرّم هنا ما يعد من (الخبائث المهلكة)، مبينًا بعضًا من حكمة هذا التحريم على الصعيدين الاجتماعي والديني. (فيها حفظ العقل والمال وهي من الضرورات الخمس التي بينتها سورة المائدة) (91)، داعيًا إلى التمسك بطاعة الله شارعًا للحلال والحرام، وطاعة

(1) (لغو اليمين: هو الحلف من غير قصد اليمين، كقول الرجل: والله لتأكلن، أو لتشربن ونحو ذلك، لا يريد به يمينًا. أو هو كلام المرء دون قصد: لا والله، وبلى والله، وهو مذهب الشافعي.
اليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمّم عليها، توكيدًا لفعل شيء أو تركه. وبعبارة أخرى: هي عقد القلب في المستقبل ألا يفعل أمرًا أو ليفعلَنَّه. فإن برّ بيمينه فلا شيء عليه، وإن حنث فعليه الكفارة. (التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون ج 2/ 520 – 521، د. مأمون حموش).

الرسول ﷺ مبلغًا ومبينًا. (تأكيد على مصدرية التشريع الإلهي) (92)، مطمئنًا للمؤمنين برفع الحرج عن الذين وقعوا في هذه المحرمات وماتوا قبل تحريمها (93).

4 – أحكام قتل الصيد في حالة الإحرام، وإحلال صيد البحر: (94 – 96)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

هناك مناسبة لطيفة بين هذه الآية وبين تحريم الخمر والميسر في الآية التي قبلها: (فتحريمُ الخمر والميسر هو تحريمٌ مُؤبّدٌ، غايتُه الحكمُ الشرعيُّ، وتحريمُ الصيد هو تحريمٌ مُؤقّتٌ، غايتُه الابتلاءُ والاختبار)[1].

وفي هذه الآياتِ: اختبارُ الله للمؤمنين ببعض الصيد حالة إحرامهم ليعلم أهل طاعته والإيمان به والمعظمين لحدوده وشعائره، وَتَوَعُّدٌ للمخالفين بعذاب موجع مؤلم. ثم نَهْيٌ صريح عن قتل صيد البر حالة الإحرام، وإعلامٌ من الله تعالى ذكره عباده حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمدًا. وبيان حِلّ صيد البحر وطعامه، وتَحْرِيمُ صيد البر على المُحْرِم، وَأَمْرٌ بالتقوى والاستعداد للقاء الله تعالى.

5 – الكعبة قيام للناس: (97 – 99)

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

---

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 9/ 638.

وكما جعل الله تعالى فترة الحج والعمرة سببًا لأمن الحيوان وحشًا وطيرًا وحرم قتله وقرر عقوبة الاعتداء عليه، بين في هذه الآية أن ذلك من تعظيم بيت الله الحرام. فحُرمةُ الكعبةِ وتعظيمُها عامٌّ، ومن يُعظّمُها يُعظّمُ ما جاء به من حُرمةِ الصيدِ وما إليه؛ لأنّ الإيمان واحدٌ لا يتجزأ (97). محذرًا من الاستهانةُ بأحكام الله تعالى وشريعته، ومتوعدًا المخالفين بالعقاب الشديد مع فتح باب التوبة للتائبين (98). مبينًا إقامة الحجة على العباد بتبليغ الرسول ﷺ لرسالة الإسلام عقيدة وتشريعًا (99).

6 – بيان قاعدة تلم جزئيات هذه الأحكام الشرعية والتوجيهات الربانية في كلية جامعة مانعة هي ميزان القيم الإنسانية الراقية في المجتمع الإسلامي الرشيد.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

7 – نهي الله ﷻ المؤمنين عن سؤال رسول الله ﷺ عن أمور لم يأت بها تكليف ولم يؤمروا بالبحث عنها، (101 – 102) مذكرًا لهم بأمم قبلهم أُعطوا ما سألوا فكان العطاء وبالًا عليهم: (قوم ثمود وطلب الناقة)، بني إسرائيل (طلب رؤية الله جهرة).

وهناك مناسبة لطيفة لما قبلها وهي: (لما ذكّرهم الحق بعدم استواء الخبيث والطّيّب، وأنّ على ذوي العقول أن يُميّزوا بينهما، ولمَّا كان هذا وصفَهم، وهم فضلًا عن ذلك من أهل الإيمان بنداءِ الله لهم، بقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فإنّه لا ينبغي أن يَسألوا عمّا لا طاقةَ لهم به، إذا وقع الجوابُ، ولا سيّما أنّها أسئلةٌ ليست من شأنِهم؛ لأنّه تعالى عفا عنها وتركها)[2].

(1) (إن الطيب والخبيث لا يستويان في ميزان الله تعالى، والبون بينهما بعيد لا يسمح باجتماعهما لدى النفس التقية، ولئن أبدت الشهوات والأهواء أن الخبيث كثير ومحبب للنفوس، وأنه قريب من الطيب بنوع من التأويل المجحف أو القياس الفاسد الضال، فإنما ذلك من تلبيس الشياطين والأبالسة والعقول المريضة، وليس للمؤمن إلا أن يلزم الطيب ويجتنب الخبيث في أمره كله). (تفسير سورة المائدة ص 245 – الشيخ عبد الكريم الحمداوي).

(2) موسوعة التفسير البلاغي ج 9/ 716.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾

8 – إبطال الشعائر الوثنية وإلغاؤها، والتنديد بالتقليد الأعمى وتعطيل العقول: (104 – 103)

وهذه العبادات الفاسدة والشرائع الباطلة (صورة من صور الخبيث) الذي حذرت منه الآية السابقة (100).

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾[1].

9 – مسؤولية المسلمين في حق الدعوة لأنفسهم ولغيرهم: (105)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

وفيه إشارة إلى أنه إذ أصر المشركون على ما هم عليه من ضلال وخبال (الآية 104)، وما دام الرسول ﷺ والمؤمنون قد بذلوا كل ما في وسعهم للقيام بتوجيه الدعوة وتبليغ الرسالة، وحاولوا بكل الوسائل إقناع المشركين دون جدوى، فقد برئت ذمتهم ولم يبق أمامهم إلا العمل على نجاة أنفسهم وخلاصها، ولن يحاسبوا على ضلال من أصر على الضلال، بعد دعوتهم لهم باستمرار، ورفضه لدعوتهم بكامل الرفض ومزيد من الإنكار.

10 – الشهادة عند الوصية: (106 – 108)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 9/ 716.

ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ
ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ
إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾.

وموضوع هذه الآيات هو حفظ مال من حضره الموت، سواء كان المحتضر مسافرًا أو مغتربًا، وهي تمثل (آخر العقود في الحياة) ذكرًا يربط خواتيم السورة بأولها وصية للذين أمنوا أن يوفوا بالعقود. وهي لحظات حاسمة في الحياة لمن أراد أن يتحرر من تبعات ما للخلق عليه، أو يؤدي ما في ذمته من واجبات أو يوصي بصدقة أو قربى.

(وهذه التفاصيل الخاصة بحكم الوصية في السفر تنبه كل ذي لب على أهمية أن يوصي الإنسان وهو في صحته ومقيم بين أهله، ولا ينتظر حتى لحظات النهاية، وقد يكون حينئذ مسافرًا فتكون الوصية عرضة للتبديل أو التغيير أو التدليس أو النهب والكتمان)(1).

المقطع الخامس: مواقف الأنبياء من أقوامهم يوم القيامة: [الآيات: 109 – 120]

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما ختمت الآيات السابقة الخاصّة (بالشهادة عند الوصية) بالأمر بالتقوى والخشية من العصيان، جاءت هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذي يجمع الله الرسل فيه ويسألهم عن رسالتهم ومهمتهم وعمّا قاله الناس ردًا على دعواتهم.

وفي هذا الجمع بين الرسل وبين من أرسلوا إليهم وفي هذه المساءلة في مواجهتهم تحذير من هذا الموقف الذي يجزى فيه من وقف من رسل اللّه موقف المحادّة والعناد، حيث لا يجد الضالّون والمعاندون ما يقولونه، وحيث لا يكون قول الرسل فيهم إلا وبالًا عليهم وخزيًا وفضحًا لهم.

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج 1/ 285.

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى النقاط التالية:

1 – سؤال الله تعالى للرسل وذلك تعريضًا بمن تمرد على دعوتهم وتوبيخًا لهم وتهديدًا بسوء مصيرهم. ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

2 – (تخصيص عيسى عليه السلام بالسؤال يوم القيامة) وذلك في معرض تذكير الله لعيسى بن مريم بنعمه ومعجزاته التي أنعم بها عليه، تمهيدًا لاستجوابه واستفساره عن الغلو في تعظيمه، وتأليهه من طرف المنتسبين إليه، وموقفه من ذلك الغلو (110 – 111).

واستمرارًا لعرض معجزات عيسى بن مريم المادية المحسوسة، تعرض الآيات (111 – 115) طلب الحواريين لمعجزة مادية تتمثل في نزول مائدة من السماء عليهم لزيادة يقينهم ولتكون عيدًا لمن بعدهم. وقد ختمت بتأكيد عذابه سبحانه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها[1].

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ

---

(1) (طلبهم للمائدة يمثّل عهدًا بينهم وبين الله عز وجل، هم أرادوها لزيادة الإيمان واليقين والله تعالى حذرهم من عدم الوفاء، وكم يعاهد الإنسان ربه على أمور ثم يخلف عهده حين يتحقق مطلوبه! فما أحرى العبد أن يتذكر سؤال الله تعالى له يوم القيامة عن كل عهوده مع الله أولًا ومع الخلق ثانيًا). (د. سمر الأرناؤوط).

صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

3 – تنزيه عيسى عليه السلام لربه وتبرئته لنفسه: (116 – 118)

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

بعد (الانتهاء من تعداد النعم) التي أنعم الله بها على عيسى ابن مريم تنتقل الآيات إلى وصف (الاستجواب الإلهي لعيسى ابن مريم) أمام مجمع الرسل يوم القيامة. وذلك إمعانًا في توبيخ من كفر من النصارى وتقريعهم. وتكشف عن إذعان عيسى ابن مريم لمشيئة الله إذعانًا كليًا، ورضاه بحكمه الفاصل في شأن الأباطيل والضلالات التي روجها المسيحيون واعتقدوها من بعده، ولم يتجرأ على الشفاعة الصريحة فيهم لعظم جرمهم.

4 – إعلان كلمة الفصل من رب العزة جلّ وعلا في مجمع الرسل والأمم يوم القيامة.

في هذا المحفل الهائل المهيب ينادي عز وجل بكلمة الحق المبين مزكيًا عبده عيسى وجميع رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، ينادي بكلمة الفصل تكريمًا للصادقين وتبكيتًا للمكذبين والمفترين. وتوجيهًا للخلق بأن الفوز الحقيقي هو الفوز في الآخرة برضوان الله وجناته، وتحفيزًا لهم على الصدق فهو سبيل الفوز العظيم.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

5 – وتختم السورة بتفرد الله في الملك والقدرة على كل شيء. ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾.

وفي هذا الختام إشارة إلى أن صاحب الملك هو الذي يحكم بين عباده ويقدر على إنفاذ حكمه، وهو الذي يحق له أن يحكم ويشرع، وهو قادر على الثواب والعقاب. فما أجدرنا بالاستجابة لأمره وقد أذعن له كل شيء في هذا الكون!

وهذا الختام (يثلج صدور المؤمنين الصادقين بالشهادة العظمى، ودلائل الوحدانية التي تنطق بها آيات الله الكونية وسننه في السماوات والأرض، وتكشف ضحالة هذه العقول، وصغر هذه النفوس، وانحطاط هذا الفكر الذي يجعل لله شريكًا، أو يتخذ له ولدًا، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا)(1).

❊ ❊ ❊

(1) خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة ص 252.

سورة الأنعام

موضوع السورة

(بصائر الإيمان)

سورة الأنعام هي سورة بناء التصورات والقيم الإيمانية بامتياز، فهي تهتم بتنمية الإيمان في القلب وتثبيت دعائمه واقتلاع جذور الشرك، وذلك عبر عرض براهين الإيمان الساطعة وحججه القاطعة التي تطهر القلب من الآفات النفسية التي تحول بينه وبين اتباع الحق، فآيات السورة كلها بمثابة (بصائر هادية) تعرض حقائق الإيمان واضحة بلا لبس ولا غموض، فتضع أسس التصور الصحيح عن الله والملائكة والرسل واليوم الآخر والبعث والحساب والكون والحياة والرزق والتدبير وسنن الهداية والضلال.

والمتأمل في آياتها يجدها بمثابة (قذائف الحق) موجهة إلى أولئك الذين عطلوا عقولهم واتبعوا أهواءهم وآثروا الضلال على الهدى، فوقعوا في مستنقع الشرك وفخ التحليل والتحريم والتشريع بغير ما أنزل الله من سلطان.

والسورة كلها حملة ضارية على المشركين تزلزل عقيدتهم وتدك أفكارهم، وتبدد ظلماتهم وتنسف شبهاتهم، وتبطل أعذارهم، وتفضح انحرافاتهم. ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55].

ولعل سر اختيار اسم السورة يوحي بمشابهة المشركين للأنعام في ضعف الإدراك وقلة الانتفاع بالعقل في تدبر آيات الله المبثوثة في أرجاء الكون، والتي تنسف عقائد المشركين الباطلة وشبهاتهم المتهافتة، لتهيئ القلب لاستقبال حجج الإيمان وبراهينه الدامغة.

وتتناول السورة هذه الحقائق من خلال ﷺ:

- سنن ربانية وقوانين إلهية صارمة تتسم بالثبات والشمولية.
- آيات كونية بديعة تنطق بالعظمة والجلال، والهيمنة والكمال.
- مشاهد أخروية رهيبة تفيض بالندم والحسرات.
- أسئلة تقريرية تعرض البراهين القاطعة والحجج الساطعة.
- مشاهد إيمانية سامقة تكشف عن معالم الصراط المستقيم ومنارات الهداية.
- تشريعات جاهلية تكشف عن سفه المشركين وحمقهم.
- نسمات تسرية ونفحات أنس تسكب في قلب النبي ﷺ – والدعاة من بعده – الطمأنينة، وتزوده بأمداد من الصبر والثبات وهو يواجه العناد والضلال.

وما أجمل ما ذكره الشيخ محمد المكي الناصري رحمه الله:

(وكما أن «سورة البقرة» هي الركيزة الأولى للشريعة الإسلامية، فإن «سورة الأنعام» هي الركيزة الأولى للعقيدة الإسلامية، ومنها استخرج العلماء قواعد التوحيد وأصول الدين، على حد ما قاله الشاطبي في «الموافقات»)[1].

◄ علاقتها بما قبلها:

لما أقامت سورة (المائدة) الحجة على (أهل الكتاب) بفساد عقيدتهم، وتحريف كتبهم، وتزوير الحقيقة، وإبراز مسالكهم المخزية في (نقض المواثيق)، جاءت سورة (الأنعام) لإقامة الحجة على (المشركين) من خلال بيان تهافت عقائدهم، وتحجر

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج2/ 105.

(ولم تكتف سورة الأنعام – التي نزلت جملة واحدة شيعها سبعون ألف ملك وأول سورة مكية في السبع الطوال– بإرساء العقيدة الإسلامية «التوحيد» وحسب، وإنما شفعتها بتقرير السلوك الإسلامي الذي هو مقتضى العقيدة الصحيحة وأثرها في حياة العبد فهما: أي التوحيد عقيدة والتوحيد تطبيقًا لا ينفصلان عن بعضهما، ولا يصح أحدهما بغير الآخر). (د. سمر الأرناؤوط).

عقولهم، وبلادة تفكيرهم، وأبرزت سلوكهم المنحرف في (التشريع والتحليل والتحريم) وفقًا لأهوائهم الفاسدة.

وإذا كانت (سورة المائدة) قد فصّلت كثيرًا في أحكام المطعومات من ناحية الحلّ والحُرمة، فإن (سورة الأنعام) ناقشتها من ناحية عقدية.

وأما عن علاقة خاتمة (سورة المائدة) بافتتاحية (سورة الأنعام)، فيقول الشيخ عبد الكريم الحمداوي:

(ما خُتمت به سورة المائدة من فصل القضاء بين الخلق يوم القيامة، والإشادة بملكية الله تعالى للسموات والأرض وما فيهن، مما يقتضي حمدَه على جميل فِعله، وبديع صُنعه، وعادل أحكامه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: 119، 120]، وما افتتحت به سورة الأنعام من حمدٍ لله على ما خلَق من السموات والأرض، وما جعَل فيهما من الظلمات والنور، تدبير حكيم، وهداية إلى وحدانيته وتوحيده، في قوله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، فكانت عدالةُ فصل القضاء وما تقتضيه من حمد لله تعالى في الأولى، والحمد على بديع الخَلق في الثانية، رابطًا بين السورتين)[1].

•• مقاطع السورة[2]:

1 – توحيد الحق بأدلة الخلق [الآيات: 1 – 47].

2 – مهمة الرسل التوحيد الخالص لله تعالى [الآيات: 48 – 94].

3 – الاستدلال بسنن الخلق في إثبات توحيد الحق [الآيات: 95 – 113].

4 – توحيد الحق بما شرع للخلق [الآيات: 114 – 165].

---

(1) تفسير سورة الأنعام ص 18–19.

(2) اعتمدت في تقسيم السورة إلى 4 مقاطع كبيرة على ما ذكره د. توفيق يوسف العبيد في كتابه القيم: (التوحيد الخالص لله تعالى كما تصوره سورة الأنعام).

المقطع الأول: توحيد الحق بأدلة الخلق [الآيات: 1 – 47]:

استهلت السورة الكريمة بالحديث عن الركيزة الأساسية للعقيدة الإسلامية، وهي الإيمان بالله تعالى، حيث يُعرِّفُنا ربُّنا بذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، ويُذكِّرُنا بنعمه وعنايته ولطفه بعباده.

ويمكن تقسيم هذا المقطع إلى 6 محاور:

1 – المحور الأول: دلائل وحدانية الله: (1 – 3)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

- تفرده تعالى باستحقاق الحمد، فهو تعالى وحده المستحقُّ للثناء عليه بما هو أهله من صفات الكمال والجلال. فهو الخالق للسموات والأرض، وما فيهن من كائنات، وما يلفُّهن ويغشاهن من الظلمات والنور (1).
- ذِكر أصل خَلقه سبحانه للإنسان، مبيناً مآل هذا المخلوق الجديد في الدنيا والآخرة، وما قدر له من آجال (2).
- علمه تعالى بسِرّ الخلق وعلانيتهم، ولما كانت الحكمةُ من البعث مجازاةَ المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، أشار إلى علمه بأحوال البشر محسنهم ومسيئهم (3).

2 – المحور الثاني: إعراض المشركين عن الحق: (4 – 11)

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ
مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ
فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا
مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا

يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

بعد أن بيَّن الحقُّ سبحانه لنبيه ﷺ في الآيات السابقة (موجبات الحمد، وشواهد التوحيد)، ومسار المبدأ والمعاد، بين (موقف المشركين من دعوة الحق) مبينًا طبيعة خصوم دعوته، وما قد يواجهونه به من اعتراض وجحود وإنكار. وذلك من خلال:

- إعراضهم عن النظر في آيات الله بعنادٍ مستكبر، وإصرارٍ جاهل (4).
- تكذيب واستهزاء بالحق، وهذا من نتائج الإعراض والصدود (5).
- الغفلة عن سنن الله تعالى في الأمم الماضية، ومن ذلك سنة الاستدراج، وسنةُ إهلاك المكذبين (6).
- طلبهم للمعجزات المادية الخارقة شرطًا للإيمان. وهذا يدل على مدى تعنت المشركين وعنادهم، وإصرارهم على الكفر (7 - 9).
- بيان عاقبة المستهزئين المكذبين، ودعوة إلى السيرِ والنظر للاعتبارِ بالأممِ الغابرة (10 - 11).

وفي ذلك تعزية من الله تعالى للرسول ﷺ وتخفيف عنه، وتسلية له عما يلقاه من تكذيب قومه.

3 - المحور الثالث: حجج الإيمان ومنارات الهداية: (12 - 21)

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد الحديث عن (موقف المشركين) الذي اتسم بالإعراض والتكذيب والسخرية، تجيء هذه الآيات لتعرض (حجج الإيمان الساطعة وبراهينه القاطعة)، وذلك من خلال 3 أساليب متنوعة ومؤثرة:

1 - أسلوب السؤال والجواب: (12 - 14)

﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ

فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

□ سؤال تبكيت وتأنيب وتوبيخ على نسيانهم ربهم الذي خلق السموات والأرض وما فيهن: خَلْقًا وملكًا وتدبيرًا ورعايةً وعنايةً وتقديرًا وحِفظًا وتسخيرًا، واستشعار رحمة الله الشاملة والتي من صورها البعث بعد الموت (12). والتأكيد على عموم ملكه وإحاطةِ سمعه وشمول علمه (13). وهذا يقتضي من العقلاء إفرادَه تعالى بالألوهية والربوبية، والولاء والعبادة.

□ وجوب الولاء لله ﷻ محبة واعتصامًا، واستعانة وتوكلًا، من خلال استنكار إصرار المشركين على الشرك مع صاحبِ الملك وهو الخالق الرازق، وأَمْرَ أهل الإيمان بإعلان البراءة من الشرك والعصيان (14).

2 – أسلوب القدوة الحسنة: (15 – 18)

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾

□ إعلان الرسول ﷺ خوفه ورهبته من اللهِ تعالى وحَذَره من عذابه (15 – 16).

□ تأكيد حقيقة مشيئة الله ﷻ المطلقة وقدرته الغالبة. فالمرء في كل الأحوال تحت سلطانِ الله تعالى وقاهريَّته وحاكميته، لا يَزيدُه اليقينُ والطاعة إلا خيرًا، ولا يَزيده التمرُّد إلا خَسارًا (17 – 18).

3 – أسلوب الإثبات بالشهادة: (19 – 21)

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وذلك من خلال بيان شهادة المولى جلَّ وعلا لرسوله الكريم بصدق نبوته، ونزول القرآن الكريم بالإنذار والتبليغ (من خلال أسلوب التلقين: قُل)، واشتمال الكتب السابقة على أوصافِهِ ﷺ، وبيان صدودِ المشركينَ وجحودِ فريقٍ من أهلِ الكتاب.

4 - المحور الرابع: يوم القيامة (مشهد المساءلة والمحاكمة): (22-32)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن
فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ
كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾
وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ
رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا
فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

• بعد أن خاطبت الآيات السابقة (عقول) المشركين بالحجج الساطعة، تأتي هذه الآيات لتخاطب (قلوبهم) من خلال عرض مشهد من مشاهد (الآخرة) يتجلى فيه الذل والهوان، والخزي والعار، والحسرة والندامة علهم يثوبوا إلى رشدهم (22 - 24).

• ثم تعود الآيات مرة أخرى إلى (الدنيا) حيث تسجل عليهم موقف الكبر والعناد والغرور والإعراض والصد عن سبيل الله. وهو موقف مناقض لما سيكونون عليه في الآخرة من ذل وهوان (25 - 26).

• ثم عودة أخرى لهؤلاء المكذبين الضالين إلى موقف الحساب والجزاء في (الآخرة). وفي هذا المشهد يرون النار رأي العين، ويوقفون عليها يُعلنون الندم على

جرائمهم والتبرؤ من شركهم، ويتمنون العودة للدنيا الفانية. ولكن هيهات هيهات! فيا لها من خسارة عظيمة لمن آثر متاع الدنيا الفاني على نعيم الآخرة الباقي (27 – 32).

5 – المحور الخامس: **مواساة وتثبيت**: [الآيات: 33 – 39]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن عرض الله للنبي ﷺ هذا العرض الكاشف للمشركين وما يلقون في موقف الحساب من خزي وهوان وما يذوقون في جهنم من نكال وعذاب، تأتي هذه المواساة الكريمة وهذا العزاء الجميل لما يلقاه من قومه من تكذيب له واستهزاء به. وفي هذا تثبيت لفؤاده على الحق، ولقدمه على الصراط المستقيم. وذلك من خلال (السنن الربانية) التالية:

• (سنة إحاطة علمه تعالى) بما يفعله أولئك المشركون، وأن علة ما هم عليه من صدود هو ما تنطوي عليه نفوسهم من مكابرةٍ وجحود (33).

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

• (سنته تعالى في مسيرة الأنبياء والرسل صراع للحق مع الباطل) واختبار لهم بضروب المشقة والعنت والأذى من أقوامهم، وما عانوه من الصبر والمصابرة حتى أتاهم النصر المبين (34).

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

• (سنن الله في الهداية والضلال)، وأنها لا ترتبط بالآيات الخارقة، ولكنها تحتاج إلى عقول متفتحة وقلوب صادقة. لذا فلا تنتظر أيها النبي ممن خُتم على سمعه وبصره وعُدَّ من الموتى أن يسمع نداءك أو يستجيب لدعوتك (35 – 36).

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٥ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

• (سنة غفلة المكابرين عما حولهم من آيات مبثوثة) وشواهدَ جليَّةٍ تنطقُ بعظمةِ الخالق وكمال قدرتِه وبالغ حكمتِه، وهي تشمل كل ما خلق الله من عوالم الأحياء على تعدد أجناسها، وتنوعَ أنواعها، واختلاف أصنافها (37-38). ولكنهم عطّلوا عقولهم عن التّأمّل والتّفكير في مخلوقات الله؛ فأصبحوا كالصمّ والبكم تائهون في ظّلمات الجهل والكفر (39).

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

6 – المحور السادس: دلالة الفطرة على التوحيد الخالص (40 – 47):

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما ختمت الآية السابقة بذكر (الظلمات الكثيفة) التي يتخبط فيها المشركون ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾ (39)، جاءت هذه الآيات لتصور (حالهم عند المحن والشدائد حيث تزول هذه الظلمات)، ويعود للفطرة صفاؤها، وترجع إلى ربها. وهكذا تحاججهم الآيات بما يَكمُن في نفوسهم من عقيدة

التوحيد التي قد تنبعث عند الشدائد، فتنبثق نورًا هاديًا من بين ركام العقائد الضالَّة، والتصورات المنحرفة.

ويأتي الحديث عن ذلك من خلال النقاط التالية:

- (تناقض حالهم بين الشدة والرخاء)؛ عند الشدة والبلاء ضعف وانكسار، واستكانة وافتقار، فإذا انكشف البلاء عادوا إلى الجحود والاستكبار (40 - 41).
- (تذكير المشركين بأمم سابقة فسدت فطرتها)، وأعرضت عن دعوة ربها، واستكبرت عن التضرع إليه والانقياد لأمره (42 - 43).
- بيان (سنته تعالى في المعرضين عن نداء الفطرة) من خلال استدراج المعاندين عبر ابتلائهم بالنعماء، علَّهم ينهضون من كبوة الشرك إلى رحابة الشكر. فإذا تمادوا في الغفلة والعصيان استحقوا الهلاك والهوان (44 - 45).
- تحذير الله تعالى لهم بسلب النعم: (نعمة السمع - نعمة البصر - نعمة القلب)، وتوعدهم بعذاب يأتيهم جهرةً أو بغتةً دون سابق إنذار (46 - 47).

المقطع الثاني: مهمة الرسل ومنهج التعامل مع أقوامهم: [الآيات: 48 - 94]

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

لما تحدثت (آيات المقطع السابق عن موقف أمم سابقة من دعوات المرسلين، وما ترتب على تكذيبهم وإعراضهم من ابتلاء أعقبه استدراج ثم استئصال، تأتي هذه الآيات للحديث عن الحكمة من إرسال الرسل وتصحيح لتصورات المشركين الخاطئة حول الرسل والرسالات وبيان مهمةِ الرسولِ والإجابةِ عن مقترحاتهم التي يصرُّون عليها)[1].

فما للرسل سلطان على الناس أن يؤمنوا أو يضلّوا، وإنما هم دعاة إلى الخير والهدى، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها، وما على الرسل إلا البلاغ.

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن ج 2/ 455 بتصرف.

ويتم الحديث عن ذلك من خلال 4 محاور:

1 - المحور الأول: التعريف بمهمة الرسل وخصائصهم: (48 - 51)

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

- حصر وظيفة الرسل في البشارة والنّذارة، والنّاس إزاءهم بين مؤمنين مصدقين أو كفّار مكذبين، ولكلّ من الفريقين جزاؤه عند الله (48 - 49).
- التأكيد على بشرية الرسول ﷺ، وقدراته المحدودة، مبينًا حدودَ مهمته التي أُرْسِلَ من أجلها، وهي اتباع الوحي، وليست له القدرة في الإتيان بخوارق العادات التي يطلبها المعاندون المكذّبون (50).
- بيان صفات المؤهّلين لقَبول النِّذارة والبِشارة، وهم الذين فتح الله قلوبهم وعقولهم إلى ما في القرآن من بصائر (51).

2 - المحور الثاني: توجيهات للرسول في التعامل مع المؤمنين والمشركين: (52 - 73)

وفي هذه الآيات تبرز هذه التوجيهات:

- الحذر من مجاملة كبراء القوم بطرد المؤمنين المستضعفين من مجالس الرسول ﷺ كما طلبوا منه ذلك. مبينًا أن إيمان هؤلاء المستضعفين فتنة لأئمة الكفر (52 - 53).

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

• تبشير المؤمنين المتلهفين لسماع الحق بالرحمةِ التي كتبها الله على نفسه، تفضلًا منه وإحسانًا وإكرامًا لعباده المؤمنين، والمغفرة على ما سلف منهم من إساءة (54).

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• تمييز سبيل المؤمنين عن سُبل الضالين. وبذلك هدى الله الإنسان النجدين ليختار، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

• إعلان البراءة والمفاصلة بين أهل الهداية والتقى، وبين أُولي الغواية والضلالة (56).

والثبات على منهج الحق المبين، وتفويض حكم الله في المجرمين المستعجلين للعذاب إلى الله تعالى وحده (57 – 58).

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

▪ وقفة مع سعة علم الله وعظمة قدرته الموجبة لتوحيده: (59 – 62)

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما أعلنت الآيات السابقة براءة الرسول ﷺ من (ادعاء علم الغيب)، ناسب ذلك الحديث عن (شمول علمِهِ سبحانه الدقيق لعالم الغيب فضلاً عن عالم الشهادة). وذلك من خلال:

علم الله الشامل بمفاتح الغيب، وبما يجري في أرجاءِ الكون (59). ثم تدرَّج بهم الحقُّ سبحانه إلى أمثلة لعلمه سبحانه في حياتهم اليومية: في يقظتهم ومنامهم، وسِرِّهم وعلانيتهم، وسَعْيِهم وكَسْبهم في دنياهم، وحسابهم وجزائهم في آخرتهم (60 – 62).

ثم تعود الآيات مرة أخرى لتستكمل (منهج الرسل في التعامل مع المكذبين من خلال أمثلة واقعية مُعاشة): (63 – 73)

وتعرض هذه الآيات أبرز معالم منهج التعامل مع المكذبين:

• تبكيت المكذبين وتذكيرهم بجحودهم نِعَم الله عليهم خاصة في ساعات المحن والشدائد (63 – 64). مع التهديدِ بالعذاب التأديبي إن أصروا على إعراضهم وتمرُّدهم وعصيانهم (65).

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

• مفاصلة عبيد الأهواء من المشركين، وأمر رسوله ﷺ بأن يتركهم لما اختاروه من الشرك ويكلهم لما قد يحل بهم من عقوبة في الدنيا والآخرة (66 – 67).

﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

• تجنب مجالسة الخائضين وصحبتهم لما يقع فيها من خوض وسخرية واستهزاء واستخفاف بالحق وأهله، مع ضرورة مفارقة هذه المجالس في حالة النسيان. كما نهت

الآية التالية عن مصاحبة أولئك الذين يخوضون في آيات الله بغير علم مع ضرورة تذكيرهم (68 - 70).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾.

• بيان (طريق الهداية والنجاة)، وهو الإسلام التامُّ لله تعالى ظاهرًا وباطنًا، وإقامة الصلاة والتقوى واستحضار موقف الحشر للحساب والجزاء الذي يتجسد فيه حكمة الله ﷻ في خلق الكون بالحق (71 - 73).

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

3 - المحور الثالث: دعوة إبراهيم عليه السلام ومحاجته لقومه (نموذج التوحيد العقدي والسلوكي): [الآيات: 75 - 90]

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا
تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ
بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ
أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ
مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ
وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن
يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ .

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

ما زلنا في المقطع الثاني الذي يتناول (مهمة الرسل ومنهج التعامل مع أقوامهم)، وهنا تأتي قصة (إبراهيم عليه السلام إمام الحنيفية) لتقرر عدة أمور في علاقة هذه الآيات بما قبلها:

1 - (هنا يعرض موقف الإنسان (ممثلًا في إبراهيم عليه السلام) من الإيمان بالله، وأن النّاس ليسوا سواء في الانتفاع بما أودع الخالق فيهم من قوى العقل والإدراك، للهداية إلى الخالق، والإيمان به. وهناك في الآيات السابقة (مواقف للمشركين) من الدعوة الإسلامية، وتأبيهم عليها، وإعراضهم عنها، بعد أن جاءتهم بآياتها المشرقة، وأقامت بين أيديهم شواهد ناطقة تشهد بوجود الله، وتوقظ قلوبهم النائمة، وتنبه عقولهم الغافلة، إلى النظر إليه في ضوء تلك الآيات البينات. فما أبعد الشقة بين الموقفين! وما أشد التباين بين الحالين!

2 – وهنا إبراهيم، الذي هو الأب الأكبر لهؤلاء المشركين من قريش، والذين يدّعون– كذبًا– أنهم على دينه. وهناك هؤلاء المشركون من أبناء إبراهيم، وتلك أصنامهم التي شوّهوا بها معالم البيت العتيق، وأفسدوا بها الدّين الحنيف، الذي عبد الله عليه في هذا البيت، الذي ما يزال قائمًا يشهد هذا السفه الذي هم فيه.

3 – وهنا داع يدعو إلى الله، هو إبراهيم عليه السلام، ويقف من الأصنام وعبّادها هذا الموقف الذي تتهاوى فيه الأصنام حين يفضحها بمنطقه قولًا وعملًا. وهناك داع يدعو إلى الله، بدعوة إبراهيم، هو محمد ﷺ، ويقف من تلك الأصنام وقفة إبراهيم عليه السلام، فيفضحها ويكشف ضعفها وعجزها)[1].

• وهناك مناسبة أخرى لطيفة لورود قصة (إبراهيم عليه السلام) تتسق مع موضوع السورة، ذكرها **د. أحمد الشرقاوي:**

إن (الآيات الواردة هنا في شأن إبراهيم تُركِّزُ على دعوته ومحاورته لقومه وأسلوبه البديع ومنطقه العذب وطريقته السهلة الواضحة في إقامة الحجة على قومه وإقناعهم.

ذلك أن مدار السورة الكريمة هو إقامة الحجج على الكفار على اختلاف مللهم ونحلهم، وتفنيد ما هم عليه جميعًا من أباطيل وأوهام، وتفنيد شبهاتهم وافتراءاتهم، وإزالة شكوكِهم ومواجهة صدودهم وإعراضهم. وفي سردها في هذا المقام تسلية وتسرية للنبي ﷺ، ودعوة للتأسي بأبي الأنبياء في صبره ويقينه، ومنهجه في دعوة قومه)[2].

وهذه الآيات تتناول قصة (إبراهيم الخليل عليه السلام)، وكيف هداه الله عن طريق الفطرة السليمة التي فطره عليها إلى الدلائل القاطعة على عقيدة الوحدانية، وبطلان الشرك والوثنية، وكيف أخذ يندد في قرارة نفسه بمعبودات قومه واحدًا بعد الآخر، وكيف وجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا. فمن مرحلة التفكر والتأمل والنظر المجرد، ينتقل إبراهيم الخليل إلى مرحلة المناظرة والمجادلة عن الحق.

---

(1) التفسير القرآني للقرآن ج4/ 219 – د. عبد الكريم الخطيب.
(2) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج2/ 499 – 500.

وبعدما أفحم إبراهيم الخليل قومه وغلبهم في معرض الحجاج عن عقيدة التوحيد التي لا عقيدة تعدلها قوة وصحة، ووضوحًا وبساطة، عقبت الآيات بقوله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (83). وبعد هذا الاصطفاء لنبي الله إبراهيم بالنبوة والعلم والحكمة والفهم، فقد منَّ الله عليه بالذرية الطيبة التي تفرَّعت من ذلك الأصل الطيب، وتشعَّبت من تلك الشجرة المباركة: شجرة الأنبياء من بعده (84 – 87)، ثم بيّن بصيغة الإشارة ما كان عليه أولئك الأخيار، من الشّرع القويم والسّلوك الكريم، وأن ذلك هو هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، فهم بذلك محلّ العناية الرّبانية، وهم معصومون من الغواية والضّلال (88 – 90).

4 – المحور الرابع: **الاحتجاج على منكري الوحي**: [الآيات: 91 – 94]

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

◄ علاقتها بما قبلها:

بعد عرض (الصورة المشرقة) لنبي الله إبراهيم عليه السلام وهو يواجه الشرك إنكارًا وجحودًا ومحاربةً، تعرض الآيات التالية (الصورة القاتمة) لهؤلاء المشركين من خلال عرض تصوراتهم المنحرفة ومزاعمهم الفاسدة:

• إنكار إنزال الكتب من عند الله وجحودهم لنبوة رسله المختارين نتيجة لضعف تقديرهم لله ﷻ وتعظيمه حق قدره، والرد عليهم بتقرير إنزال التوراة على موسى نورًا وهدايةً للناس، ثم الحديث عن المعجزة الكبرى (القرآن الكريم) الذي جاء مهيمنًا على ما سبقه من كتب، ومصدقًا لما قبله (91 – 92).

• افتراء الكذب على الله أو ادعاء النبوة. مع بيان المصير المظلم الذي ينتظرهم في (الدنيا) من سوء الخاتمة وما يسلطه عليهم الملائكة الموكلون بهم من ألوان التعذيب ساعة الاحتضار، وفي (الآخرة) من الخزي والهوان والعذاب الشديد (93 – 94).

المقطع الثالث: الاستدلال بسنن الخلق في إثبات توحيد الحق: [الآيات 95 – 113]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن شهد المشركون هذا المشهد الذي تقطعت له أنفاسهم من مشاهد يوم القيامة، وما ينتظرهم من الخزي والهوان، عادت الآيات مرة أخرى في جولة كونية بديعة لبيان دلائل قدرته وآياتِ عظمتِه وبدائع صنعه وعجائبِ خلقِه سبحانَه، وتقرير وحدانيته، فهو الخالقُ المُدبِّرُ لهذا الكونِ.. لعل التأمل في هذه الآياتَ الباهرات يزيل الغشاوة عن قلوب المعاندين.

ويمكن تقسيم الآيات إلى محورين:

1 – المحور الأول: سنن الله في الكون: (95 – 99)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ
تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ
فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ
مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

- سنن الله في عالم النبات (الحب والنوى نموذج) (95).
- سنن الله في تعاقب الليل والنهار (96).
- سنن الله في حركة الشمس والقمر والنجوم (97).
- سنن الله في خلق الإنسان وإيجاد أسباب رزقه (98 – 99).

2 – المحور الثاني: **المعرضون عن السنن:** (100 – 113)

وإذ انتهت المعارض التي عرضها الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة شاهدًا يشهد لوحدانيته، ودليلًا يدل على قدرته وعلمه وحكمته، جاءت الآيات التالية تنعي على المشركين موقفهم وتفضح على الملأ حمقهم وجهلهم، وتبين بطلان ما هم عليه من معتقداتٍ فاسدةٍ وتصوراتٍ خاطئةٍ. وذلك من خلال:

- ادعاء المشركين الشريك والبنوة لله سبحانه والرد عليهم ببطلان ذلك، وبيان صفات الإله الحق (100 – 103). مع التفنن في بيان الحجج والبراهين لإبطال شبهات المشركين (104).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

- دعوة النبي ﷺ إلى التمسك بالوحي والإعراض عن الضالين أصحاب الشبهات الواهية، مع بيان آداب المناظرة والمجادلة مع المخالفين لهم والحذر من سفههم وجهالتهم وتعصُّبهم الأعمى لما عليه من ضلالٍ، فإن مرجعهم ومردَّهم إلى الله تعالى (105 – 108).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٦ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا

جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

• بيان مطالبِ المشركين المتعنتة واقتراحاتهم التي يُعلِّقون إيمانَهم بنزولها، مبينًا أن نزول الآيات التي اقترحوها لن تُجدي معهم ولن تنفعهم بسبب ما هم عليه من عُتُوٍّ وإعراض، ومكابرةٍ وعناد (109 – 111).

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾.

• عرض أساليب المجرمين في الصد عن دين الله من خلال قلب الحقائق وزخرفة الأباطيل وتلبيس الشياطين، وأساليب الخداع والتغرير والافتراءِ والتضليلِ التي يمارسُها شياطينُ الإنسِ بالتعاونِ مع شياطينِ الجن، لصرف الناسِ عن الحقِّ وتغييبِ عقولهم (112 – 113).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾.

المقطع الرابع: توحيد الحق بما شرع للخلق: [الآيات: 114 – 165]

ما علاقة هذا المقطع بما سبقه من مقاطع السورة؟

(بعد بيان سلطان الله المطلق على خلقه إنشاءً وخلقًا، ورعايةً وتدبيرًا، وإحاطةً وعلمًا وقدرةً وهيمنةً مما يؤكد أن الله هو صاحب السلطان المطلق على هذا الوجود كله، والسلطة الكاملة على الإنسان أيضًا باعتباره من مخلوقات الله تعالى، خاضعًا لقدرته وهيمنته، محاطًا بقهره وتدبيره، جاءت آيات هذا المقطع لتدعو الإنسان إلى

القيام بالتكليف الإلهي الذي تعبده الله به وباعترافه بالخضوع الكامل لله، والعبودية المطلقة له، والامتثال التام لشرعه، وأمره ونهيه، وتحليله وتحريمه)[1].

(إن الأحكام المذكورة في هذه السورة، أحكام متصلة بشخصية الفرد المسلم وتربيته الإيمانية أكثر من اتصالها بشخصية الدولة وتنظيم المجتمع (كما في السور السابقة لسورة الأنعام)، كالأحكام المتعلقة بتحريم أكل بعض الذبائح التي لا تتحقق في ذبحها الشروط الشرعية، أو المتصلة بحسن رعاية الإنسان لوالديه أو المحافظة على مال اليتيم. ومن ناحية أخرى فان الأحكام المتعلقة بالذبائح اتصلت بالمعركة الفكرية مع المشركين، إذ كان يذبحها المشركون لغير الله، ويستحلون ما حرم الله .ومن ناحية أخرى كان في تغلغل هذه الأحكام في حياتهم اليومية، وعاداتهم وتقاليدهم مناسبة جيدة لإعلان مبدأ من المبادىء الأساسية في عقيدة الاسلام وهي أن حق الحاكمية والتشريع لله وحده لا ما شرعه أهل الجاهلية مما لم يأذن به الله)[2].

◄ مناسبتها لما قبلها:

(بعد بيان ما عليه أهل الضلال من زخرفة للأباطيل وقلب للموازين وصد عن سواء السبيل، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾، جاءت هذه الآية بالمنهج القويم والصراط المستقيم والميزانِ الدقيقِ في التلقي والقبول، وهو تحكيم شرع الله ﷻ في كل أمرٍ من الأمور)[3].

---

(1) تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام ص83 بتصرف - د. إبراهيم زيد الكيلاني.
(ولا عجب في ذلك فالسورة مكية تؤسس عقيدة الفرد أولًا الذي هو نواة الأسرة والمجتمع والأمة، أما السور التي سبقتها فهي سور مدنية تؤسس أركان الدولة الاسلامية أحكامًا وتشريعات وعلاقات ومعاملات). (د. سمر الأرناؤوط).

(2) المصدر السابق ص22 - 23 بتصرف.

(3) التفسير الموضوعي لسور القرآن ج 2/ 541.

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى 7 محاور:

1 - المحور الأول: منهج الله هو الحق، وتشريع غيره هو الضلال: (114 - 117)

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

أمر الله ﷻ رسوله ﷺ أن يصارح المشركين بأن الله وحده هو الحكم الحق، مؤكدًا على أنه غير مستعد للتحاكم إلى أهوائهم وأوهامهم، متمسكًا بالمنهج الرباني، وقد اكتملت معالمه وتجلَّت مقاصده، وسلَّم كل ذي إنصافٍ أنه منهج الحق وميزان العدل (114 - 115). ومؤكدًا أن شريعة غير الله ضلال مبين مهما كَثُرَ أتباعُها وارتفعت راياتُها (116 - 117).

2 - المحور الثاني: قواعدُ وأصولٌ في التحليلِ والتحريمِ خاصة فيما يتعلق بأحكام الذبائح: (118 - 121)

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾.

- حل أكل ما ذكر اسم الله عليه، مع إباحة ما حرم وقت الضرورة (118 - 119).
- وجوب ترك أكل ما حرم الله ﷻ، وبيان عاقبة المرتكبين للآثام (120).
- تأكيد النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، والحذر من تلبيس الشياطين (121).

3 – المحور الثالث: سنن الهداية والضلال وما يترتب عليها من الجزاء: (122 – 135)

• نفي المساواة بين المهتدين والضالين: (122 – 123)

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(لما بين سبحانه في الآيات السابقة حال أكثر أَهْلِ الْأَرْضِ، بأنهم منغمسون في الضلال، مُتَّبِعُونَ لِلظَّنِّ، يُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ بِأَهْوَائِهِمْ على غير هدى وتثبت، وَأَنَّ بعضًا منهم لَيجادلونَ المؤمنينَ بوحي مِنَ الشياطين لإضلالهم وحملهم عَلَى اقْتِرَافِ الْآثَامِ؛ ضَرَبَ هنا مَثَلًا في بيان الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُهْتَدِينَ اقْتِدَاءً بِهِمْ، وَالْكَافِرِينَ الضَّالِّينَ؛ تَنْفِيرًا وتحذيرًا مِنْ غِوَايَتِهِمْ، فإنهم لَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ)[1].

مع بيان سنة الله في مكر أهل الضلال وجرأتهم على الله بطلبهم ما ليس لهم بحق (123 – 124)، وهذا يدل على ما في صدورهم من كبرٍ وحسدٍ وعجرفةٍ وجهالةٍ، وبيان عاقبتهم.

• بيان أثر التوحيد في انشراح صدر المؤمن، وضيق صدر الضال عن التوحيد، مع تقريرِ المنهج الرباني والدعوة إلى الصراطِ السوي الذي لا خلل فيه ولا اعوجاج.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 11 / 782 نقلاً عن تفسير المنار – ج8/ 25 – محمد رشيد رضا.

وفيها تسليةٌ للنَّبيِّ في أنَّ مَكرَ المُجرمين لا يمنعُ مِنْ إيمانِ المؤمنين، فالله تعالى شرحَ الصدور، وهيأ الأسباب، فمنْ أرادَ الإيمان فلا رَادَّ له، ومن أرادَ الكُفرَ فلا مُكْرِه له.

• سنن الله في الجزاء (وعد للمهتدين ووعيد للضالين): (127 – 135)

وذلك من خلال مشهد رهيب ليوم القيامة يظهر فيه توبيخ الضالين على دعوتهم للشرك، مع إقامة الحجة على كفار الجن والإنس بالرسل (127 – 130)، والتأكيد على أن جزاء الله عدل لا ظلم فيه (131 – 132)، وغناه تعالى عن خلقه ورحمته بهم (133)، وتختم بوعيد وتهديد لأولئك الكفرة المصرِّين على الإعراضِ والجحودِ، وفيها إشارة إلى إمهاله للظالم دون إهماله، واستدراجه حتى ينتهي إلى نهايته المحتومة (134 – 135).

﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

4 – المحور الرابع: **إقامة الحجة على فساد تشريعات الجاهلية:** (136 – 140)

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ
مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ
دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٞ وَحَرْثٌ
حِجْرٞ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٞ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ
عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ
ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةٗ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ
سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ
عِلْمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(بعدَما أوردَ منَ التّهديدِ والوعيدِ في قولِه: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ بين هنا موضعَ ظلمِهم ومكانتهم الّتي يُنافحونَ عنها؛ وانحطاط شأنِهم، ودنو عقولِهم وقراراتِهم، ووضح أنَّ من أمثلة التّهديدِ السّابقِ بالهلاك ما يفعَلونَهُ مَنَ الإشراك باللهِ أوّلًا، فجعَلوا من صدقاتِهم ونُذورِهم للشركاءِ، بل إنّهم تجاوَزوا ذلك، فأوغَلُوا في حُبِّ الشركاءِ، فجعَلُوا لهم خصوصية وشأنًا هي أكمل عندهم من شأنه سبحانه)[1].

وهذه التشريعات قائمة على أهواء فاسدة، وخيالات مريضة. فتعرض جملة من الجهالات والخرافات التي شرعوها في شأن (الثمار والأنعام والأولاد). وذلك من خلال:

- القسمة الباطلة الجائرة في تقسيم الثمار والأنعام إلى قسمين: قسم يجعلونه لله، وقسم يجعلونه لشركائهم من الآلهة المدعاة (136).
- قتلهم لأولادهم مخافة الفقر والعار بتزيين من الشركاء والشياطين (137).
- حرموا ما أحلَّ الله واستحلُّوا ما حرَّم الله فجعلوا من الأنعام والزروع ما لا يطعمها إلا من يشاؤون حسب أهوائهم ووفق معتقداتهم الفاسدة (138 - 139).

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 12 / 176.

- بيان خسران من اتبع تشريع أهل الشرك والضلال (140).

5 - المحور الخامس: تشريعات الله تعالى في الثمار والأنعام: (141 - 150)

في هذه الآيات مشاهد من آيات قدرته وروائع علمه وحكمته فيما أبدع وصوّر في هذا الوجود من نعم سابغة وعطايا جزيلة تؤكد على أن الله عز وجل هو (المتفرد بالألوهية والربوبية)، وله وحده (حق التشريع لخلقه في العبادة والتحليل والتحريم)، وليس ما افتراه المشركون من (عادات فاسدة وخرافات جاهلية). وذلك من خلال:

- تشريع الله في الثمار والأنعام: (141 - 144)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ
يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً
وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾
ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ
أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ
وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

- بيان أصول المحرمات في شرع الله (في الإسلام وعند أهل الكتاب): (145 - 147)

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا
مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ
ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا
ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو
رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(لما بين ﷻ أن التحريم لا يكون إلا بوحي إلهي ناسب ذلك الاستطراد لبيان المحرمات على من قبلنا، فبين تعالى المحرمات على اليهود، حيث شدد الله عليهم عقابًا لهم وتضييقًا عليهم، أما أمة الإسلام فقد خفف الله عنهم ورفع عنهم الحرج تيسيرًا عليهم ورحمةً بهم)[1].

- حجة الله البالغة على المشركين المحتجين بالمشيئة: (148 – 150)

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعدما أفحم الله تعالى المشركين بحججه البالغة، وسفه معتقداتهم الباطلة في مجال الحلال والحرام، من الحرث والأنعام، واصل تقريعهم بآياته البينات، وطالبهم بالحجة على ما يدعون، وهو يعلم أنهم لا يملكون حجة ولا علمًا، وإنما يملكون جهلًا ووهمًا، كما طالبهم بالشهود على ما يدعون من أن الله حرم ما يحرمون وأحل ما يحلون، وهو يعلم أنهم لا يملكون شاهدًا واحدًا يثبت دعواهم، اللهم إلا إذا كان من شهود الزور المبطلين.

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن ج 2/ 578.

6 - المحور السادس: أصول المحرمات في الإسلام (الوصايا العشر): [الآيات: 151 - 160]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن أنهت الآيات السابقة جولتها الحاسمة ضد (معتقدات المشركين وبدعهم الضالة)، بعدما أصلتها نارًا حامية من حجج الله البالغة، فتناثرت أشلاؤها، وتبخرت أهواؤها، وبرزت عقائد الشرك على حقيقتها سفهًا لا يلحقه سفه، جاءت هذه الآيات (بالمنهج القويم) المتمثِّل في تلك الوصايا الخالدة، الجامعة لأسسِ العقيدة وأصول الشريعة ومكارم الأخلاق.

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى 3 فقرات:

أولًا: الوصايا العشر الخالدة: (151 - 153)

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وهذه الوصايا الربانية تشمل:

(تحريم الشرك بالله بكل أشكاله (ترسيخ التوحيد عقيدة)، ثم أتبعه بالتوحيد العملي السلوكي التطبيقي - تحريم عقوق الوالدين - تحريم قتل الأولاد خشية الفقر- تحريم الفواحش - تحريم قتل النفس بغير حق- عدم التعدي على مال اليتيم - عدم التعدي على الميزان والمكيال- الأمر بالعدل في القول - الأمر بالوفاء بالعهد).

وختمت الوصايا بوصية جامعة مانعة هي وجوب التزام المسلمين بدينهم، وضرورة تمسكهم بوحدتهم (153).

ثانيًا: التلازم بين كتاب موسى والقرآن: (154 – 157)

ولما كانت هذه (الوصايا العشر) مما اتفق فيها جميع الشرائع السماوية على ألسنة الرسل، جاءت الآيات التالية لبيان أن القرآن هداية للعالمين وحجة على المخالفين.

فالآيتان الكريمتان (156 – 157) تقطعان كل عذر قد يتعلل به المكذبون لرسول الله ﷺ وللقرآن الكريم يوم القيامة، وتتوعدهم بسوء العذاب.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

ثالثًا: تهديد المصرين على صدودهم: (158 – 160)

مبينة عاقبة المعرضين عن التوحيد بعد تمام الحجج وجلاء البراهين، وتحذرهم من يوم لا ينفع فيه إيمان ولا عمل (158).

وتختم بالإنذار الشديد من عاقبة التفريق في الدين، في مقابل (البشارة الإلهية بمضاعفة أجر المحسنين) (159 – 160).

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

7 - المحور السابع: معاني التوحيد الخالص لله تعالى: [الآيات: 161 - 165][1]

◄ مناسبتها لمحور السورة:

(يختم الله تعالى سورة الأنعام (بخلاصة عقيدة التوحيد ولبابها)، ألوهية وربوبية مطلقتين لله تعالى، شعورًا ووجدانًا، وحجَّة وبرهانًا، إخلاص نية، وصفاء قلب، وصواب عبادة، وصدق توجُّه لله تعالى على صراطه المستقيم صلاة ونُسُكًا وقربات، وبرًّا وإيمانًا، وعملًا صالحًا في الحياة وعند الممات، ضمن ابتهال خاشع مَهِيبٍ لُقِّنه الرسولُ ﷺ من ربه، كي يكون قدوة ونموذجًا للمؤمن الحق)[2].

ومن تأمل هذه الآيات الخمس تجلى له أنها ختام بارع قوي يناسب هذه السورة التي هي سورة البلاغ والإعلان، والمبادئ العليا لدعوة الإيمان.

ويتجلى ذلك من خلال النقاط التالية:

- التوحيد صراط الله المستقيم وملة خليل الله إبراهيم.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

والتذكير بإبراهيم عليه السلام هنا يستهدف قرع أسماع المشركين: (هذا هو الإسلام، يقرر الحقيقة التي جاء بها أبو الأنبياء إبراهيم، فهو صراط الله المستقيم، الذي يقوم على التوحيد ونبذ الشرك والأوثان، فليس الذي جاء به بدعًا، وليس غريبًا عن الرسالات الإلهية).

- التلازم بين التوحيد والعبودية الخالصة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

(1) راجع ما ذكره الشيخ محمد المدني في كتابه (سورة الأنعام والأهداف الكبرى للإسلام) في تفسير هذه الآيات.

(2) تفسير سورة الأنعام ص 36 - 37، الشيخ عبد الكريم الحمداوي.

وفيه إشارة إلى أن (الصراط المستقيم راجع في أساسه وجميع تفاصيله إلى مبدأ واحد هو أن يؤمن الإنسان إيمانًا مؤكدًا بأن جميع توجهاته في صلاته ونسكه ومحياه ومماته إنما هي لله رب العالمين لا شريك له).

• الاعتزاز بالربوبية والتبرؤ من الشرك، مع تأكيد فردية التبعة والمسؤولية، وحتمية الرجوع إلى الله تعالى ليفصل بين جميع الخلائق.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

• سنة الاستخلاف في الأرض وارتباط الجزاء بالعمل (165):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(تختم السورة بآية فذة تكشف للإنسان عن مكانته عند ربه في هذه الحياة، خليفة في الأرض، وأن الله جعل عمارة الكون تحت يديه تتعاقب عليه أجياله، وأنه تعالى قد فاوت في المواهب بين أفراد الإنسان لغاية سامية وحكمة عظيمة، وهى الابتلاء في مواقف هذه الحياة)[1]، وأن سُننه قَضَتْ أن تكون النتائج آثارًا للأعمال من دون تَرَاخ، فمن عمل بما يُخالِفُ سُنَّته الكونيَّة وشريعته العلية نالته نتائج ذلك العمل في الدنيا والأخرى.

وهذا المقطع الختامي يناسب موضوع السورة القائم على تصحيح التصور الإيماني في علاقة الإنسان بخالقه (عبودية خالصة وولاء تام)، وعلاقته بالحياة الدنيا (ابتلاء واختبار)، وعلاقته بالآخرة (حساب وجزاء).

❃ ❃ ❃

(1) تفسير القرآن الكريم ص 303 - الشيخ محمود شلتوت.

سورة الأعراف

موضوع السورة

(سنن الله ﷻ في سقوط الحضارات)

هذه السورة تلخص (سنن الصراع بين الحق والباطل) عبر مسيرة التاريخ، وذلك من خلال عرض مواقف الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وهي تكشف عن أهم أسباب انحراف المجتمعات وفسادها على كافة المستويات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية، لذا فهي تدعو إلى قراءة واعية للتاريخ للبحث عن سنن الله ﷻ في قيام الحضارات واندحارها[1].

لذا نستطيع القول بأن محور السورة هو (أسس إصلاح المجتمعات وحمايتها من الانحراف عبر قراءة واعية للتاريخ).

والطابع الغالب على السورة هو طابع الإنذار، والوعيد بالهلاك والدمار، لكل من يكذب بآيات الله، ولا يشكر نعمه، ويستكبر عن طاعته. ولعل ذكر (قصة آدم عليه السلام) في أول السورة فيه إشارة إلى أن حب السلطة وحب الخلود هما وسيلة الشيطان لإغواء البشر وصرفهم عن سبيل الهداية، وهذا ما نجد تطبيقه في كل المجتمعات- سواء القديمة أو المعاصرة - التي انحرفت عن منهج الله، فوقعت في مستنقع الاستكبار والطغيان.

---

(1) (سورة الأعراف واحدة من سور السبع الطوال التي تثبت أركان ومقومات الأمة والدولة الإسلامية والتي منها موقفها من أحداث التاريخ، من خلال دراسة متأنية عميقة لأسباب نهوض الأمم وأسباب اندحارها. فالتاريخ يعيد نفسه لكن العاقل الفطِن هو من يتعظ به ويعتبر بأحداثه فلا يسقط فيما سقط به غيره). (د. سمر الأرناؤوط).

◄ علاقتها بما قبلها:

إذا كانت (سورة الأنعام) قد أقامت الحجة على المكذبين من خلال عرض (حجج الإيمان الساطعة) وبراهينه القاطعة وأدلته الواضحة من أجل اقتلاع جذور الشرك واستئصال داء الطغيان، فإن (سورة الأعراف) قد أقامت الحجة على المكذبين من خلال عرض (عقوبات رادعة) للمعاندين عبر مسيرة التاريخ البشري.

وهكذا تتكامل السورتان في إقامة الحجة على المكذبين سواء في إثارة الجانب (العقلي الفكري) أو تحفيز (الجانب القلبي الوجداني)، فهما بمثابة قذائف متتالية موجهة لعقول وقلوب أهل الشرك والضلال، علهم يرجعوا عن غِيّهم ويثوبوا إلى رشدهم، ويستفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط مناسبة أخرى لطيفة:

(سورة (الأنعام) افتتحت بالحمد لله وذكرت من ألوان النعم ما ذكرت لبيان أن الشكر لله تعالى هو من مقتضيات توحيد الله ﷻ، وسورة (الأعراف) افتتحت بقصة أول صراع في الكون: صراع إبليس مع آدم وتوعّده له ولذريته ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾، فجحود النعم أول خطوة شيطانية لجحود المنعِم والاستكبار عن قبول الحق الذي أنزله والتعلّق بالدنيا وحب الخلود فيها المؤدي للكفر بالآخرة تتجلى في قصص الأمم المكذبة عبر التاريخ).

علاقة خاتمة سورة (الأنعام) بفاتحة سورة (الأعراف):

(جاء في ختام سورة الأنعام الحديث عن الصراط المستقيم الذي يمثل الدين الخالص والمنهج الصافي الذي لا يقبل عند الله سواه؛ إنه ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين. وجاء في أول سورة الأعراف الأمر باتباع الدين الحق، والتحذير من الشرك واتخاذ الأولياء من دون الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ...﴾.

وفي أواخر سورة الأنعام بيان أن الله سبحانه استخلف الناس في هذه الأرض، وجعلهم أممًا تتلاحق ويخلف بعضها بعضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ

ﱡٱلۡأَرۡضِﱠ، وفي أوائل سورة الأعراف حديث عن الأرض وخلق آدم وتصويره وإسكانه - هو وزوجه - الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض للعيش فيها)[1].

•• مقاطع السورة:

1 - المقطع الأول: إتباع الوحي سبيل النجاة: [الآيات: 1 - 9].

2 - المقطع الثاني: قصة الوجود البشري الأول (آدم عليه السلام والصراع مع الشيطان): [الآيات 10 - 36].

3 - المقطع الثالث: قصة النهاية (مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة): [الآيات 37 - 53].

4 - المقطع الرابع: سنن الله في الكون والحياة ﱡأَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُﱠ: [الآيات 54 - 58].

5 - المقطع الخامس: أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات: [الآيات59 - 171].

6 - المقطع السادس: سبيل الهداية وأسباب الضلال: [الآيات 172 - 206].

المقطع الأول: إتباع الوحي سبيل النجاة: [الآيات: 1 - 9].

ﱡالٓمٓصٓ ١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَﱠ

تبدأ السورة بالحديث عن (القرآن الكريم) مبينًا وظيفته في التذكير والتحذير، موجهًا النبي ﷺ إلى عدم التأثر بإنكار المعرضين، مثبتًا فؤاده في دعوته للقرآن (1 - 2).

(1) التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ج 3/ 3 - 4 بتصرف.

ثم انتقل الخطاب إلى الناس آمرًا لهم (باتباع تعاليم القرآن) (3)، مبينًا لهم على سبيل الإنذار والتخويف جانبًا من (العذاب الدنيوي) الذى نزل بمن سبقوهم بسبب ظلمهم وعنادهم (4 – 5)، متبعًا ذلك بالتهديد (بالعذاب الأخروي)، وذلك عندما يُسأل المرسل إليهم يوم القيامة بمحضر الأنبياء والمرسلين، ووصفت ما تكون عليه موازين المفلحين وموازين الخاسرين (6 – 9).

المقطع الثاني: قصة الوجود البشري الأول (آدم عليه السلام والصراع مع الشيطان): [الآيات: 10 – 36]

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى الناس على (مشاهد القيامة وما سيكون لهم فيها من مواقف بين سعداء وأشقياء)، جاءت الآيات التالية لتبين (ما لله من فضل عليهم في إيجادهم من عدم، وما مكن لهم من أسباب الحياة في هذه الأرض). وهذا من شأنه أن يلفت الإنسان إلى هذه النعم وإلى أداء حق المنعم بها وذلك بحمده والولاء له.

وتقص هذه الآيات (تاريخ البشرية على هذه الأرض) في صلة الإنسان بهداية الله، وموقفه من الوحي، مبينة ما خص الله به النوع الإنساني من تمكين وتكريم، وكيف خلقه في أحسن تقويم. (10) ثم بدأت قصة (آدم عليه السلام)، ويمكن تقسيمها إلى محورين:

1 –المحور الأول: (آدم عليه السلام بين التكريم الرباني والإغواء الشيطاني):[1] [الآيات 10 – 25]:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن

(1) (كرَّر القرآن قصةَ آدم وإبليس ليتقرر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاؤه به في هذه الحياة، كي يحذر من وسوسته ويتقي شره، فاتباعها خسران مبين للدنيا والأخرى. ومغزى القصة: أن للإنسان جانبَ خير يصل بتنميته إلى السعادة، وجانب شرٍّ يصل بتنميته إلى الشقاء، فلْيغتنم الأول، ولْيحذر الثاني. وأن التمسُّك بالتعاليم الإلهية هي وحدها الكفيلة بذلك، والمنجية منه). (أولى ما قيل في تفسير آيات التنزيل ج 3/ 416 – الشيخ رشيد الموصلي).

مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن
طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ
إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾
ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ
ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ
لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا
مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا
ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا
عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ
لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾.

(وقصة آدم وحواء وخروجهما من الجنة إلى الحياة على الأرض هي قصة الصراع بين السمو في الإنسانية، والانحطاط عن مستواها. هي قصة الصراع بين العقل في حكمته، والغرائز في شهواتها وأهوائها. هي قصة الصراع بين الحق والباطل، أو بين الخير والشر، بين نفخة الروح العلوية وطين الجسد. وضعف آدم وحواء أمام المنع من الاقتراب من الشجرة المعينة هو حاجة الإنسان إلى هداية الرسالة الإلهية، وعدم الركون إلى العقل وحده في دفع إغراء الاتجاه المادي والطبيعة المادية)(1).

وفي هذه الآيات عدة مشاهد:

- تكريم الله ﷻ لآدم بسجود الملائكة له، ورفض إبليس السجود، وعقاب إبليس على عصيانه (11 – 15).
- إعلان إبليس خطته في غواية الإنسان وإضلاله (16 – 18).

(1) تفسير سورة الأعراف ص31 – 32 بتصرف – محمد البهي.

• سكنى آدم وزوجته الجنة وبداية الإغواء الشيطاني وما ترتب على ذلك من توبة آدم «رحلة التدريب»، وهبوطه إلى الأرض لتبدأ رحلة «التكليف والامتحان» (19 – 25).

2 – المحور الثاني: (دستور خلافة بني آدم في الأرض): [الآيات: 26 – 34]

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ
مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم
مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ
إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا
وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨ قُلۡ أَمَرَ
رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ
تَعُودُونَ ٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ
وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ
مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ
بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا
يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي
فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

وإذ هبط الإنسان– أو قل صعد– وأخذ مكانه على هذه الأرض، فقد كان عليه أن يتعرف على الدستور الذي يسوس به الخلافة في الأرض. وها هو ذا يتلقى من السماء المواد الأولى لهذا الدستور:

1 – ستر الجسد باللباس الكاسي وحسن التجمل والتزين به هو من مظاهر الفطرة البشرية (نعمة الستر)، مع التنويه بلباس التقوى وأهميته في حفظ الحياء وصيانة الأعراض (26).

2 – التحذير من أباطيل الشيطان وضلالاته التي يغري بها البشر ويزينها لهم ليفتنهم في دينهم وليخرجهم من الإيمان بالله والاستقامة على طاعته إلى الشرك به والتعدّي على حرماته وإثارة الشهوات والغرائز بكشف العورات (27)، مبينًا لهم صورًا من انحرافات المشركين (أولياء الشياطين) بفعل التزيين الإبليسي في التعامل مع الحق والتحايل عليه وتبرير مخالفته (28).

ولما سفه الوحي الكريم تبريرات المشركين الفاسدة وادعاءاتهم الكاذبة أخبرهم بالحق الذي يأمر الله به ويرضاه لهم ولغيرهم (29)، ثم أوجز مسيرة العباد بين الدنيا والآخرة وعاقبة أمرهم (30).

3 – دعوة إلى إظهار نعمة الله عليهم في التجمل والزينة، ولا سيما في مواطن الخير، كبيوت الله، والإقبال على مائدته الكريمة، ليتناولوا منها ما لذ وطاب، محذرًا لهم في نفس الوقت من مغبة الإسراف في الأكل والشراب (31 – 32)، مبينًا لهم ألوانًا من المحرمات التي نهى عباده عن اقترافها (33)، معقبًا بأن أجل الناس في هذه الدنيا محدود، وأنهم إن آجلًا أو عاجلًا سوف يقفون أمام ربهم للحساب (34).

4 – بيان منهج الرشد للنجاة من مكايد الشيطان وهو إتباع الوحي الإلهي، مبينًا مصير المتقين ومصير المستكبرين يوم القيامة (35 – 36).

المقطع الثالث: قصة النهاية (مصير المؤمنين والكافرين في الآخرة): [الآيات 37 – 53]

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ
أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ
فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ
ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا
بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ
أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ
ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا
حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ
يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾
وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ
﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ
تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾
هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ
عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۞.

◄ مناسبة الآيات لما قبلها:

تنتقل الآيات من الحديث السابق عن قصة البداية (خلق الإنسان واستخلافه) إلى الحديث عن قصة النهاية (محاسبة الإنسان وجزائه). ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى عدة مشاهد:

1 - حال المشركين المفترين عند قبض أرواحهم، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين (37).

2 – مشهد خصام وشقاق، وتلاوم وتلاعن، وحسرة ويأس أهل النار (38 – 41).

3 – مشهد مودة وسلام، وأنس وإخاء، وفرح وبشارة أهل الجنة (42 – 44).

وفي قوله تعالى ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ زيادة التبكيت وإيقاع الحسرة في قلوب الكافرين، إذ فاتهم ذلك الجزاء العظيم مع أنهم لم يكلفوا في سبيل الحصول عليه ما ليس في وسعهم، وقد فعله المؤمنون ولم يفعلوه هم.

4 – مشهد محاورات أهل الجنة والنار، وتحية أصحاب الأعراف لأهل الجنة وتقريعهم لأهل النار (44 – 51)[(1)].

5 – وصف ما يكون عليه حال المنحرفين الضالين، من استهتار بالتعاليم السماوية، عندما يفاجؤون يوم القيامة بأن ما كان مجرد «غيب» موعود به في القرآن، قد أصبح حقيقة قائمة ماثلة للعيان، وعندما يأتي ذلك اليوم لا يسعهم إلا أن يعودوا على أنفسهم باللوم والتوبيخ (52 – 53).

المقطع الرابع: سنن الله في الكون والحياة ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾: [الآيات 54 – 58]

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

(1) (الشائع بين المفسرين أن هؤلاء (أصحاب الأعراف) قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فانتظروا حتى يبت الله في أمرهم! وأرى أن أصحاب الأعراف هم الدعاة والشهداء الذين بلغوا رسالات الأنبياء وقادوا الأمم إلى الخير!! فإن الأعراف هي القمم الرفيعة، ومنها سُمِّي عرف الديك عرفًا... وهم في الآخرة يرقبون الجماهير والرؤساء في ساحة الحساب، ويلقون بالتحية أهل الجنة، وبالشماتة أهل النار. وحديث القرآن الكريم عنهم يرجح هذا الفهم فهم يتكلمون بثقة ويوبخون المذنبين على ما اقترفوا ويستعيذون بالله من مصيرهم). (نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص 111 – الشيخ محمد الغزالي).

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا
ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾.

أول ما يتبادر إلى الذهن: ما مناسبة هذه الآيات لما قبلها؟

لما تناولت الآيات السابقة حال المكذبين يوم القيامة بالتوبيخ والتقريع بسبب جحودهم لآيات الله وعنادهم وتكبرهم وطغيانهم وصدودهم واتخاذهم (معبودات وهمية) من دون الله، جاءت هذه الآيات لتفتح لهم أبواب النجاة عبر تعريفهم بـ (المعبود الحق) صاحب السلطان المطلق والقدرة النافذة والحكمة البالغة والرحمة الشاملة، لعل القلوب تتجه إليه بالتعظيم والتقديس والتمجيد. فهذه الآيات وما فيها من دلائل الخلق والتدبير، والملك والسلطان، ترفع الغشاوة عن أعين الغافلين الذين توهموا في الشركاء الوهميين والأنداد الزائفين القوة والقدرة، علهم يستفيقون من سكرتهم قبل معاينة الأهوال يوم القيامة.

وقد ذكر أصحاب (موسوعة التفسير البلاغي) مناسبة أخرى لطيفة:

(لما بين في الآية السابقة خسارة الناسين كتاب الله يوم القيامة، ناسب ذكر بَدء الخَلْق بعد ذكر المعاد، تذكيرًا للعباد، فمن نسي الكتاب (المسطور(، عليه أن لا ينسى الكتاب (المنشور)، فهو انتقال من الحديث عن المعاد إلى التذكير بأصل الخلق لبيان العلاقة بين (البداية والنهاية)، فمن اعترف)بالبداية) للخالق سبحانه، عليه أن يُؤْمِنَ (بالنهاية) لله وحده، فلله الخلق والأمر أولًا وآخرًا، وما بين البدء والمعاد يكون عمل العباد، فهو استشهاد بالحقيقة الملموسة المتفق عليها، للوصول إلى (الهداية) في العقيدة والتشريع)[1].

(1) ج 13/ 452.

وفي هذه الآيات عدة نقاط هامة:

• (إفراد الله بالعبادة فرع عن تفرده في الخلق)، فلأنه خلق الخلق بلا معين أو شريك فهو المستحق للطاعة والعبادة والخضوع لأمره ونهيه بلا وسيط، ولا منازع (54 – 55).

• (العبادة مرتبطة بإصلاح الأرض) وتسخيرها لمصالح العباد (56).

• استكمال (مظاهر الربوبية في الكون المنظور) ترسيخًا لمبادئ التوحيد في عقل المؤمن ومشاعره (إرسال الرياح، وإنزال المطر وإخراج الثمرات، وبعث الموتى للحساب) (57).

• (تفاوت استعداد الناس للإيمان) باختلاف الطبائع والنفوس كالأرض تمامًا، منها الطّيب المنبت، ومنها السّبخة غير الصالحة للنبات (58).

(وهذا المعنى يناسب سائر ما بعده من قصص الأنبياء مع أقوامهم، فإن من استجاب هدى الله وآمن كالبلد الطيب، ومن عاند ورفض كالأرض الخبيثة.

وهذا التمثيل يخفف من حزن الرسول ﷺ وحيرته لرفض القلوب الخير وإيثارها الظلمات على النور الذي يهديها وينقذها من التخبط، فلا عجب لأن مثلهم مثل الأرض التي ترفض الماء وفي الماء حياة، فلا عيب في الماء ولكن العيب في طبيعة الأرض الخبيثة الكؤود)(1).

المقطع الخامس: أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات: [الآيات59 – 171]

◄ ما علاقة آيات هذا المقطع بما قبلها؟

(بعد ذلك التّصوير المهيب لمشاهد يوم القيامة واستعراض مواقف المؤمنين والمكذبين وما جرى من حوار بينهما وبين أصحاب الأعراف، ينتقل السّياق إلى (استعراض تاريخي) لما كان بين الرّسل وأقوامهم، وبيان مآل المكذبين منهم في الدّنيا والآخرة، وذلك لغرض التّخويف من عواقب الطّغيان والكفر كما أشارت إليه أوائل السّورة في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ (4).

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج1/ 331 – 332 بتصرف.

وفي آيات هذا المقطع - وهو يمثل أكثر من نصف السورة - (تتابع موكب البشرية عبر التاريخ. وهو موكب عريق يمثل لنا رحلة الوجود البشرى على ظهر هذا الكوكب الأرضي، ودور النبوات التي أرسلها الله في شتى الأعصار بالهدى، حاملة لواء الحق، داعية إلى الخير والهداية، بانية لصروح الحضارات، ثم ما كان من صراع عنيف بين الهدى والضلال، بين الخير والشر، بين هدى الله ووسوسة إبليس، وما كان يسود المجتمعات البشرية من ضلالات وخرافات، وما كان يهيمن عليها من جهالات تنأى عن الحق، ثم ما كان من سنن الله الكونية التي لا تتخلف، من انتصار الحق في الجولة الحاسمة، واندحار الباطل بشراذمه المجرمة.

إنه عندما ينحرف أصحاب الحضارات الرائعة عن الله، وتسكرهم نشوة المظاهر، فيألهون وينتفخون ويتبجحون بالمعاصي فيضلون عن سواء السبيل، عندئذ تصبح حضاراتهم أثرًا بعد عين، قصصًا تحكى، وأحاديث تروى. إن توفيق الله للبشرية مرتبط بذكر العهد مع الله، فإذا غفلت عن هذا العهد ضلت طريقها في الحياة فتمزقت وحدتها ووهنت قوتها وتفتتت إرادتها وضاعت هويتها، وتخطفتها الشياطين)(1).

إن هذه القصص تكشف عن جملة من الحقائق كلها تستحق النظر والاعتبار: فمن (تصوير لوحدة طبيعة الإيمان ووحدة طبيعة الكفر، تصوير للغفلة عن النذر وإهمال للشكر على نعمة الاستخلاف في الأرض، تصوير لمصارع المكذبين وكونها تجري على سنة واحدة لا تتبدل ولا تتخلف على قاعدة. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

■ وقفة هامة: الظلم وهلاك الأمم:

والمتأمل في القصص التي عرضتها السورة يجد أن القاسم المشترك بين الأمم السابقة هو (الظلم)، وهو السبب الرئيسي في هلاك الأمم وانهيار الحضارات.

(1) قيم حضارية في القرآن الكريم ج1 / 145 - 146 بتصرف - الشيخ توفيق سبع.

(ففي قصة (نوح مع قومه) يمكن تصنيف الظلم «اجتماعيًا»، من حيث طبيعته، وهو في أساسه منبثق عن اضطراب في الموازين الاجتماعية والأخلاقية، وذلك بسبب هيمنة «الطبقية» على المجتمع السائد وقتئذ. فهذا قد أدى إلى نشوء هوة ساحقة بين الأقوياء، أصحاب الثروة والنفوذ كما تمثلوا بالملأ أو الأشراف من القوم، وبين الضعفاء والفقراء والمحتاجين منهم.

وفي قصة (هود مع قومه عاد) يرتبط الظلم لهذه القبيلة في أساسه (بالاستكبار والاستعلاء في الأرض دون حق)، والشعور بالتعالي والاعتزاز بالقوة المادية من دون القوة الروحية.

وفي قصة (صالح مع قومه ثمود) تجسد ظلمهم بتخطي الحدود المرسومة لهم كبشر.

فقد طلبوا من نبيهم «خارقة لإثبات صحة دعواه»، ولما بعث الله ﷻ لهم «بالناقة»، عقرها السفهاء منهم بدون توجيه أي معارضة لهم من قبل الأكثرية.

وفي قصة (لوط مع قومه) تجسد ظلمهم في الجانب (الأخلاقي) من خلال التعدي على الفطرة والمثل والفضائل التي تحفظ إنسانية المرء (الشذوذ الجنسي).

وفي قصة (شعيب مع قومه) تجسد ظلمهم في الجانب (الاقتصادي) من خلال التطفيف في الكيل والميزان.

وفي قصة (فرعون) صورة جلية عن (الظلم السياسي والاجتماعي) الناتج عما نطلق عليه بلغة العصر بحكم الفرد «المستبد» أو بالحكم الدكتاتوري، كما هو متمثل في شخصية فرعون التي أصبحت رمزًا لهذا النوع من الحكم)[1].

(1) أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة ص 10 – 11بتصرف – د. زاهية الدجاني.

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع حسب قصص الأنبياء الواردة فيها على الترتيب:

1 – نوح عليه السلام: [الآيات: 59 – 64].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾.

هذا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله، ويحذرهم من عذاب يوم عظيم إذا هم لم يستجيبوا له ويستقيموا على الطريق الذي يدعوهم بآيات الله إليه. والقوم في عمى وضلال يلقون هذا الدّاعي الكريم بالتكذيب والسفه. وختمت القصة ببيان سنته تعالى في إنجاء المؤمنين وهلاك الضالين بالغرق.

2 – هود عليه السلام: [الآيات: 65 – 72]

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا رسول آخر من رسل الله الكرام هو «هود» عليه السلام يجيء بعد نوح إلى قومه «عاد» فيدعوهم إلى الله ويلقى منهم التكذيب والتسفيه، ولكنه يمضي معهم ناصحًا متلطفًا يلقى السيئة بالحسنة، وهم مع هذا لا يزدادون إلا عنادًا وإصرارًا على ما هم فيه من عمى وضلال. وتجيء الخاتمة التي لا تختلف أبدًا: نجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين المعاندين.

3 - صالح عليه السلام: [الآيات: 73 - 79]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ
ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ
وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟
ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ
أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾
فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ
لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

وبعد «هود» جاء «صالح» إلى قومه «ثمود»، وتتكرر الأحداث ويشهد صالح ما شهد النبيّان الكريمان من قبله من البهت والتكذيب والإصرار على الضلال والكفر. وتجيء الخاتمة المنتظرة: غضب الله وعذابه للقوم المجرمين ورحمته وإحسانه لصالح عليه السلام ولمن اتبعه من المؤمنين.

4 - لوط عليه السلام: [الآيات: 80 - 84]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ

وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

وهذا « لوط عليه السلام» جاء يحذر قومه من عواقب الشذوذ الجنسي، ولكنهم قابلوا دعوته بالتهديد بالطرد والإبعاد، فكان عاقبتهم المحق والهلاك.

5 – **شعيب** عليه السلام: [الآيات: 85 – 93]

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ
أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ
فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا
ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ
رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴾. وهؤلاء قوم شعيب وداؤهم أنهم (يطففون في الكيل والميزان)، وقد جاء «شعيب عليه السلام» يدعوهم دعوة الحق ويقيمهم على طريق العدل فيما بينهم. وبلّغ شعيب قومه رسالة ربّه ونصح لهم واستقبل إساءاتهم بالحسنى وسفاهاتهم بالصفح والمغفرة. ولكنهم أصروا على الضلال، فحق عليهم الهلاك والعذاب.

6 – سنن الله مع الأمم الظالمة: [الآيات: 94 – 102]

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾
ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم
بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا
بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ
مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ
مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا
كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ
عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن عرضت الآيات السابقة بعضًا من (قصص الأنبياء مع أقوامهم) وما كان من هؤلاء الأقوام من كفر وضلال، ثم ما أخذ الله به هؤلاء الأقوام من نكال وبلاء في (الدنيا)، وما أعدّ لهم من عذاب شديد في (الآخرة)، جاءت هذه الآيات لتقرر أبرز (سنن الله تعالى في الظالمين)، وهي:

• سنة الابتلاء بالشدائد تارة وبالنعم تارة أخرى (94 – 95).

• سنة فتح أبواب الخيرات للمحسنين، وإنزال النقمة على المكذبين الضالين (96).

• سنة مكر الله بالظالمين، وأخذه لهم في وقت غفلتهم (97 – 99). وفي ذلك تحذير من الغفلة عن طاعة الله، وحث على التيقظ والاعتبار.

• سنة الاعتبار بعاقبة الذنوب التي أدت إلى هلاك الأمم السابقة حتى لا يغتروا بطول الإمهال مع كثرة النعم (100).

• تثبيت النبي ﷺ ومواساته في مواجهة عناد قومه وإعراضهم، مبينًا له أن موقف قومه العدائي العنيف من دعوته ليس جديدًا ولا غريبًا عمّا عرفه التّاريخ البشريّ منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض (101 – 102).

7 – **قصة موسى** عليه السلام: [الآيات: 103 – 171]

ثم تعود الآيات لاستكمال الحديث عن قصص الأنبياء، فتعرض قصة (موسى عليه السلام)، وأول ما يتبادر إلى الذهن: ما الحكمة في أن قصة (موسى عليه السلام) هي أكثر قصص القرآن تفصيلًا في عدد غير قليل من السور؟

(إن رسالة موسى عليه السلام على خلاف الرسالات الأخرى، كانت ذات بعدين:

الأول: البُعد (التوحيدي) الذي يرسي قضية التوحيد ويجفف منابع الشرك، وإصلاح الثغرات التي ظهرت في مبنى التدين المنقوص تارة والمغشوش تارة عند بني إسرائيل، ويُعد موسى في هذا البعد إصلاحيًا إذ أنه جاء مؤكدًا لتعاليم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف من قبله، ولم يأتِ ناقضًا للناموس، وإن اختلفت بعض التفاصيل الشعائرية أو الجزئيات التشريعية.

والآخر: البُعد (التحريري) الذي يجعل الحرية من صلب التوحيد لله عز وجل، إذ كانت مهمة موسى بالنسبة لفرعون هي تحرير قومه الإسرائيليين من استعباد الفراعنة المصريين، وتخليصهم من القتل الذي سُلط على الذكور، والاسترقاق الذي فُرض على الإناث، ويُعد موسى في هذا البعد ثوريًا لأنه جاء للثورة ضد المنظومة الفرعونية التي استعبدت الناس عامة وقومه خاصة.

وهكذا كانت رسالة موسى ذات شقين، وكان يتعامل مع كل شق بمنهج مختلف، حيث واجَه بحكمة بالغة غوائل الطغيان الفرعوني الجامح، وعالَج بنجاعة تامة علل التدين اليهودي السقيم)[1].

(1) منهج الرشد القيادي في قصص القرآن الكريم ص 44 – د. فؤاد البنا.

ويمكن تقسيم القصة إلى قسمين:

◄ **القسم الأول: (موسى عليه السلام في مواجهة فرعون):** [الآيات 103 – 137]

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ
أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾
قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟
إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟
يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ
عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ
وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا
جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ
لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا
مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ
مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ

مِن ءَايَةٍ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ
وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ
ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا
غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا
ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ
يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴾.

ويمكن تقسيم آيات هذا القسم إلى 6 مشاهد:

1 – مشهد لقاء موسى عليه السلام بفرعون وعرضه لرسالته ومعجزاته، واجتماع فرعون بملئه وجمع السحرة (103 – 114).

2 – مشهد اجتماع السحرة وموسى في يوم الزينة، وما ترتب عليه من انتصار الحق واندحار الباطل (115 – 122).

3 – تهديد فرعون للسحرة بعد إعلان إيمانهم، وثباتهم أمام هذا الوعيد واعتصامهم بربهم (123 – 126).

4 – تحريض الملأ وتهديد فرعون بقتل بني اسرائيل، ولجوء الفئة المؤمنة من بني إسرائيل إلى الله القوي المتين (127 – 129).

5 – توالي المصائب والبلايا على فرعون وقومه دون انقطاع، ومكابرة فرعون ومراوغته (131 – 135).

هلاك فرعون الطاغية بالغرق ووراثة بني إسرائيل المستضعفين الأرض المباركة. (136 – 137).

القسم الثاني: (موسى عليه السلام وقيادة بني إسرائيل): [الآيات 138 - 171]

ويمكن تقسيم آيات هذا القسم إلى 6 مشاهد:

1 - مشهد جنوح بني إسرائيل إلى الوثنية وجحودهم لنعم الله: (138 - 141)

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

ويبرز في هذا المشهد تفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخالق ﷻ (ولعل ذلك لطول زمن استعبادهم من قبل فرعون، فعبادة الأصنام لا تضرهم ولا تنفعهم ولا تأمرهم ولا تنهاهم)، وتحذير موسى عليه السلام لهم من الانتكاس إلى الضلال.

2 - مشهد مناجاة موسى لربّه في الميّقات وإنزال التّوراة عليه (142 - 147).

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ويبرز في هذا المشهد كيفية اصطفاء الله لموسى وتشريفه بإنزال التّوراة التي تشرع لبني إسرائيل مناهج هدايتهم في ما يأتون وما يذرون من أحكام الحلال والحرام بما تستقيم به أحوال معاشهم ومعادهم. مع التهديد الإلهي بخذلان للمتكبرين الفاسقين، وحرمانهم من التوفيق والهداية إلى الحق المبين.

3 – مشهد عبادة بني إسرائيل العجل: (148 – 154)

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ
وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ
قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا
رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى
ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي
فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي
وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ
غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى
ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾.

ويتجلى في هذا المشهد (هشاشة إيمان بني إسرائيل)، واستعدادهم للانسياق وراء الضّلالات، وانخداعهم بتزيين السامري لهم. وبعد أن دمغت الآيات بنى إسرائيل بما يستحقونه من تقريع ووعيد، فتحت أمامهم باب التوبة ليفيئوا إلى نور الحق، وليتركوا ما انغمسوا فيه من ضلالات وجهالات (152 – 153). ثم ختم المشهد بتناول موسى عليه السلام الألواح التي ألقاها حين غضب من رؤية قومه على عبادة العجل بعدما رجع إليهم من مناجاة ربه، وفي الألواح بيان للحق وهدى من الله سبحانه لقوم يخافونه ويعظمون شرعه ودينه (154).

4 – مشهد ميقات التوبة: (155 – 156)

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾

وفيه اختار موسى سبعين رجلًا من قومه للميقات الذى وقته ربه له، ودعاهم للذهاب معه. وفتنة بني إسرائيل بطلبهم رؤية الله جهرة وما ترتب عليه من رجفة الجبل بهم، وتبرؤ موسى عليه السلام من مخالفتهم.

5 – البشارة ببعثة النبي وصفاته وعالمية رسالته: (157 – 159)

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

(ينتقل السياق القرآني بلا مقدمات ولا فواصل ليربط بين صورة الماضي وصورة الحاضر، بين صورة اليهود وحراكهم المضطرب والمتذبذب وهم تحت قيادة نبي منهم ومن بني جلدتهم، وبين صورتهم وهم أمام نبي من قوم آخرين، يدعوهم للإسلام الذي هو رسالة إبراهيم وموسى وهارون وكل الأنبياء السابقين، ويمكن تلخيص الخطاب القرآني في هذا المشهد بالآتي:

أولًا: أن الرسالة المحمدية هي امتداد للرسالات السماوية السابقة، وأن هذه الرسالات قد بشرت بالنبي الخاتم محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

ثانيًا: أن الرسالة المحمدية رسالة شاملة لكل الناس لا تميز بين جنس وجنس، ولا قوم وقوم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثًا: أن الرسالة المحمدية رسالة خير ويسر ورحمة ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

رابعًا: صفات أتباع الرسول ﷺ من صالحي المؤمنين، فهم أهل إيمان وإحسان، وتقوى واتباع، وهم أهل وفاء وثبات على العهد الذي عاهدوا الله عليه، من نصرة رسوله، وبذل الأرواح في سبيله في كافة الظروف. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

◄ مناسبة هاتين الآيتين (157 – 159) لما قبلهما:

(لما بين الله سبحانه وتعالى صفة من تكتب له الرحمة في الدنيا والآخرة، وهو أن يكون متقيًا ويؤتي الزكاة خالصة لله رب العالمين، ضم الى ذلك أن يكون متبعًا للنبي محمد ﷺ، ثم وصف الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به) وختمت الآيات بالثناء على طائفة قليلة من بني إسرائيل، ظلوا متمسكين بالحق (159).

(1) مجالس النور في تدبر القرآن الكريم وتفسيره ج1/ 476 – الشيخ محمد عياش الكبيسي.

6 - من مخالفات بني إسرائيل وانحرافاتهم: (160 - 171)

• جحود وكنود في مقابلة نعم الله عليهم (نعم الاستسقاء - تظليل الغمام - إنزال المن والسلوى - نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس وجبنهم وتمردهم): (160 - 162)

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

• تحايلهم على استحلال محارم الله بسبب جشعهم وضعف إرادتهم واستيلاء المطامع على نفوسهم (قصة أصحاب السبت)، وبيان عقاب الله ﷻ الصارم الذي عاقبهم به جزاء تحايلهم على أوامره، وتحللهم من نواهيه (163 - 167).

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

• بيان الحكمة الإلهية فيما تقلب فيه بنو إسرائيل من أطوار، بين الشدة والرخاء، والنعمة والنقمة، لكنهم استمروا على خيانة العهد ونقض الميثاق والتهافت على أكل الحرام، مع التأكيد على أن الدار الآخرة هي أحق من الدنيا بالعمل من أجلها والرجاء فيها، وهي خير للمتقين من كل الوجوه.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

- التنويه بالأجر العظيم الذي ادخره الله للصالحين من عباده، المتمسكين بكتابه، الذين لا يكتمون ما أنزل الله ولا يشترون به ثمنًا قليلًا.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

- تذكير بني إسرائيل (بالميثاق الخاص) تحت الجبل لأخذ الكتاب بقوة والعمل بما فيه من تكاليف وإرشادات بجد واجتهاد، ولكنهم نقضوا العهد ولجوا في التمرد والعصيان.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

المقطع السادس: سبيل الهداية وأسباب الضلال: [الآيات: 172 – 206]

◄ مناسبة الآيات لما قبلها:

انتقلت الآيات الكريمة من الحديث عن الميثاق (الخاص) لبني إسرائيل إلى الحديث عن الميثاق (العام) الذي أخذه الله على كافة العباد، وهم ما يزالون في أصلاب آبائهم سرًا مكنونًا في عالم الغيب، وهذا الميثاق هو (ميثاق فطرة الله) التي فطر الناس عليها، وهو يتضمن في جوهره (الإقرار بربوبية الله وبعبودية الإنسان)، على أساس من التوحيد والإيمان.

وفي آيات هذا المقطع تبرز (سنن الله في الهداية والضلال) لتترك الناس أمام مسؤولياتهم فيما يختارون وما يسلكون، ويمكن تقسيمه إلى 6 محاور:

1 - المحور الأول: ميثاق الهداية (الإيمان نداء الفطرة): (172 - 174)

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وفي التذكير بهذا الميثاق تنبيه الإنسان إلى طريق الهداية، ووضعه أمام مسؤوليته الفردية، وعدم إعطائه فرصة للهروب منها بحجة أو بأخرى. (فهذا الإقرار الضمني بربوبية الخالق ﷻ يعد حجة عليهم، ولكن الله سبحانه من رحمته بخلقه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فيكون إرسالهم حجة ثانية على الناس، ويكون رفض الأقوام دعوة أنبيائهم معاندًا للفطرة ومخالفًا للعهد الأول الذي أقروا فيه بربوبية الخالق، وهذا يحملهم مسؤولية فوق مسؤولية، ويزيد من ثقل الوزر، إذا خانوا عهدهم وكذبوا رسلهم وخضعوا لأهوائهم أكثر من امتثالهم لتعليمات كتبهم، وخصوصًا ما كان من بني إسرائيل)(1).

2 - المحور الثاني: الانتكاس من الهدى إلى الضلال: (175 - 178)

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

ثم تنتقل الآيات الكريمة لوصف صورة من صور (انحراف الفطرة)، فضربت المثل بحالة من يكرمه الله بمعرفة آياته ليؤدي حقها في نفسه، وليبلغ رسالتها إلى الناس، ثم يستحوذ عليه الشيطان (الذي توعّد بإغواء ذرية آدم في مفتتح السورة،

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج 1/ 333.

وكما أُخرِج هو من الجنة وطُرد من رحمة الله، فهو يحرص على إخراج العباد من آيات الله)، فلا يلبث أن ينقلب به الحال، ويصيبه الخبال، ويستبدل بالعطاء سلبًا، وبالهدى ضلالًا، فيعرض عن النظر في آيات الله، ويعلن الحرب على الله، وينسلخ من دينه وعهده. ثم تعقب الآيات على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال من الله.

3 - المحور الثالث: التحذير من عاقبة الضالين: (179 - 180)

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى
مَتِينٌ﴾.

والضالون هم الذين أهملوا عقولهم وحواسهم، ولم يتحرروا من قيود الجهل والغفلة والتقليد الأعمى. ثم بين الدواء الشافي لتلك الغفلة، وهو دعاء الله بأسمائه الحسنى.

(وفي الحديث عن دعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى في هذا السياق تلوح مناسبتان: الأولى أن الدعاء بأسماء الله الحسنى خاصة من أمضى وسائل النجاة من أذى هؤلاء الذين عطلوا تفكيرهم وكل وسائل إدراكهم حتى صاروا كالأنعام بل هم أضل، فلا يؤمن خطرهم، ولا يستبعد أذاهم. والثانية أن الدعاء عبادة، والله سبحانه يريد من عباده المؤمنين أن ينشغلوا بعبادته عن استهلاك جهدهم ووقتهم في الرد على هؤلاء الذين يلحدون في أسمائه بعد أن غرقوا في الضلال)[1].

ثم جاءت الآية التالية للتنويه (بالهادين المهتدين) من أهل الحق والعدل، وإنذار (الضالين المضلين) من أهل الباطل، والإعلان عن استدراجه إياهم، وإمهاله لهم، في انتظار أخذهم على بغتة أخذا وبيلًا (181 - 183).

(1) تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم ج 1/ 338.

4 - المحور الرابع: **محاصرة الضلال:** (184 - 187)

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم انتقلت الآيات إلى كفار قريش - الغارقين في الضلال- توبيخًا لهم وتعجبًا من غبائهم وعجز عقولهم عن التدبر والفهم، وكل ما حولهم دليل إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وذلك من خلال:

- معرفتهم بنبيهم ﷺ قبل نزول الوحي. فهم يعلمون حقيقة دعوته ودلائل رسالته (184).
- دعوة إلى التأمل في ملكوت السماوات والأرض، والتفكر في اقتراب آجالهم والحذر من قيام الساعة (184 - 187).
- التأكيد على اختصاص الله ﷻ وحده بعلم الغيب من خلال بيان انتفاء علم الرسول ﷺ بالغيب، وذكر عدم قدرته على الاستكثار من الخير لنفسه ودفع السوء عنها. وبيان حدود وظيفته في الإنذار والتبشير (188).

والآية مرتبطة بما قبلها من الحديث عن (اختصاص الله تعالى بوقت الساعة). وفي هذا إرشاد من الله لعباده حتى لا تختلط في أذهانهم ولا في عقائدهم خصائص الألوهية بخصائص النبوة.

5 - **المحور الخامس: من صور الضلال (الانتكاس إلى الشرك):** [الآيات 189 - 198]

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا
لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا
وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ
أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ
ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن
تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها:

(لما كان من منهج القرآن تذكيرُ المشركين بما طبعهم عليه خلقة، من غريزة التوحيد، كما جاءت الإشارة إليه في الآية المتقدمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾، وكان من نهجه تذكيرُ المشركين إلى مظهر ذلك فيهم عندما تصيبهم شدَّة، فيلجؤون إلى الله وحده، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22]، عَقَّبَ هذا السياق ببيان ظهور هذا (التوحيد الفطري) عند شدَّة الحمل والولادة من المشركين، ولجوئهم إلى الله وحده في كشفها عنهم، ولم يلبثوا أن يعودوا إلى شركهم بعد أن كشفها عنهم)(1).

---

(1) تفسير أولى ما قيل في آيات التنزيل ج 3 / 509 - رشيد الخطيب الموصلي.

وفي هذه الآيات تذكير بالخلق الأول للإنسان مفطورًا على أصل الإيمان، وطروء الشرك عليه بتلبيس الشيطان. وفيها إشارة هامة إلى أن البداية الخفية للشرك نابعة من قلب النعمة، وقد كان موجب نعمة الخلق والتزاوج والتناسل هو شكر المنعم، لكن دأب الإنسان أن يبدل نعمة الله كفرًا وشركًا، ودأب عدوه إبليس أن لا يجعله شاكرًا لربه (189 – 190).

ومن هذا المشهد الذي يدل على (جحود النعمة ونكران الجميل)، تنتقل الآيات إلى (مناقشة المشركين في اعتقاداتهم الباطلة) في معنى الألوهية، وتصوراتهم الخاطئة عن علاقة الخالق بالمخلوق، مؤكدة على سفاهة عقولهم إذ يعبدون مخلوقات أدنى منهم في سلم الكائنات (191 – 195).

وإذا كان هؤلاء المشركون ما يزالون مصرين على ولائهم لهذه الأحجار وتلك الدمى بعد أن افتضح أمرها وظهر عجزها، فإن رسول الله ﷺ يجعل ولاءه كله لله الذي نزل عليه هذا الكتاب الكريم الذي بين يديه، والله سبحانه وتعالى يتولى من يتولاه وينصر من يستنصر به ويلوذ بحماه (196 – 198).

6 – المحور السادس: وصايا على طريق الدعوة: (199 – 206)

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا
لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن
رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ
وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ
وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾.

◄ مناسبة هذه الآيات لافتتاحية السورة:

(تجيء خاتمة السورة داعية النبي ﷺ إلى النهج الذي يأخذه في دعوته إلى اللّٰه بعد أن كان متجه الدعوة إليه في مفتتح السورة أن ينهض للدعوة وليلقى الناس بما أنزل إليه من ربّه، فجاءت الخاتمة هنا لترسم له الطريق الذي يلتزمه في دعوته.

وهذا الفاصل الممتدّ بين مفتتح السورة وخاتمتها، والذي كان بطبيعة الحال فاصلًا بين (مادة الدعوة) وبين (المنهج الذي تقوم عليه) إنما هو - في الواقع - منهج تطبيقي للدعوة رأى فيه النبي ﷺ كما رأى فيه قوم النبي ﷺ صورًا متعددة من الصدام بين الحق والباطل، وكيف كانت مصارع المبطلين، وعاقبة الظالمين، وهذا مما يعين النبي على الأخذ بهذا المنهج الذي رسمه اللّٰه للدعوة التي أقامه عليها)[1].

◄ مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

بعدما لقن الله ﷻ نبيه ﷺ حججه البالغة ليقارع بها الشرك وأهله، ويهدم بها أباطيلهم من أساسها، عاد إلى رسوله ﷺ بالمواساة والتوجيه، ليثبت فؤاده على الحق، وليسلك به مسالك الأناة والصبر، وليمده بمدد روحي جديد يستعين به على تحمل الأذى، ومواجهة الجفاء. وذلك من خلال:

- منهجية التعامل الرشيد مع المخالفين (199).
- منهجية مواجهة تلبيسات الشيطان ووسوساته (الاستعاذة بالله حصن المتقين)، وبينت الآيات انقسام الناس تجاه وساوس الشيطان إلى فريقين: فريق (المتقين) الذين لا يستسلمون لطائف الشيطان، وفريق (الضالين) الذين يتحالفون مع شياطين الجن من أجل الصد عن سبيل الله عبر الإصرار على طلب خوارق المعجزات على سبيل التعنت والإعراض عن بصائر الآيات (200 - 202).

(1) التفسير القرآني للقرآن ج 5/ 545.

• دعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم، فهو العاصم من مكائد الشيطان (203 – 204).

وذلك من خلال حسن الاستماع إلى هذا القرآن، وإلى تدبره والعمل به. فهو بمنزلة البصائر للقلوب، به تبصر الحق وتدرك الصواب.

• دعوة إلى ذكر الله عامة في كل الأحوال، مبينة آدابه وأوقاته (205 – 206).

ثم ذكر – سبحانه – ما يقوي دواعي الذكر، وينهض بالهمم إليه، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، المعظمين له بالسجود طوعًا وخشية ومحبة.

وفي ختام السورة بالحديث عن خضوع الملائكة لله ﷻ إشارتان لطيفتان:

1 – (تذكير بالمعصية الأولى في قصة الخلق، حيث تكبر إبليس ورفض الخضوع لأمر الله، بينما كان الملائكة وما يزالون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾، والإنسان مخير بين أن يسلك طريق الملائكة أو يسلك طريق الشيطان، وهو يتحمل مسؤولية خياره وقراره)[1].

2 – (إشارة إلى أن الملائكة مع نهاية شرفهم وسمو مرتبتهم، معترفون بذُلّ عبوديتهم، خاضعون لِعزّ الربوبية، لا يخالجهم في عبادتهم كبر، ولا يأخذهم عنها صلف، بل هم دائمًا يسبحونه وله يسجدون. فما أحوج الإنسان وقد ركبت فيه مبادئ الشهوة والغضب أن يتخذ إلى ربه سبيلًا! وما أضعف عقله حينما يتجه إلى الملائكة أنفسهم بالعبادة والتقديس فضلًا عن الأصنام والأحجار!)[2].

(1) مجالس النور ج1/ 487.
(2) تفسير القرآن الكريم ص 393 – الشيخ محمود شلتوت.

وعن الحكمة من (سجود التلاوة) في هذه الآية الأخيرة ذكر الشيخ محمود شلتوت رحمه الله معنى جميلًا، فقال:

(هي نوع من التربية العملية الروحية في إعلان التمسك بالحق والإعراض عن الباطل، ومراغمة المبطلين، والسير في طريق المثل العليا للذين حملهم الله أمانة الحق والدعوة إليه، وبذلك كانت سجدة التلاوة - رغم إهمال المسلمين لها - شعارًا عامًا للمؤمنين في إعلان تقديسهم لمبادئهم، وتقديس كتابهم، وشدتهم في مخالفة الباطل والمبطلين كلما قرءوا القرآن وكلما سمعوه)[1].

* * *

(1) المصدر السابق ص 394.

سورة الأنفال

موضوع السورة

(وما النصر إلا من عند اللّه)

سورة الأنفال سورة (ميدانية) بامتياز، عالجت من خلال التعقيب على (غزوة بدر) معالم (السياسة الجهادية) في الإسلام، فأبرزت مقومات النصر والتمكين، وهي قسمان: المقومات المعنوية (الإيمانية) والمقومات المادية (التنظيمية).

(وقد تضمنت سورة الأنفال أهم المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام لتنظيم شؤون السلم والحرب، وتحديد عوامل النصر وأسباب الهزيمة، وتعيين واجبات المجاهدين في سبيل الله من جهة الإعداد والاستعداد، وتوضيح حقوقهم على الدولة الإسلامية التي يدافعون عن كيانها، وتبيين الطريقة التي يعامل بها أسرى الحرب، والطريقة التي تتبع في الغنائم. وبالإجمال فإن هذه السورة الكريمة وضعت الحجر الأساسي للسياسة الحربية العامة التي يجب أن يطبقها الإسلام كلما اضطر المسلمون إلى خوض غمار الحرب للدفاع عن أنفسهم، ولم يجدوا من خصومهم عدلًا ولا استعدادًا للسلام)[1].

والسُّورة كلها تمتلىء بصور العناية والرِّعاية، والقدرة على حِفْظ ونصْر وتمكين الدولة الناشئة، إذا هي سارتْ كما يرسم لها الوحي، وكما يوجِّهها النبي ﷺ.

ولعل تسمية السورة بالأنفال وهي تعني (الغنائم) فيه إشارة لطيفة إلى ضرورة الحذر من تحول القتال من إعلاء كلمة الله إلى طلب المغانم الرخيصة، فهي بذلك تغرس قيمة (الولاء لله تعالى) الذي ظهرت رعايته وتأييده ونصره للمؤمنين الصابرين في غزوة بدر الكبرى.

(1) التيسير في أحاديث التفسير ج 2/ 309.

(واللافت في السورة أنها على عكس خطابات النصر الأرضية لم تأت إشادة بدور المحاربين، وإنما جاءت مراجَعة دقيقة وتحليلًا لبيان ثغرة قد تمنع النصر أو تؤخره، ولتصحح مفهومًا خاطئًا عند البعض بما يتعلق بالغنائم، فالغنيمة الحقيقية اتخاذ الأسباب والتوكل على مسببها وإخلاص النية في الجهاد، فلا تشوبه شائبة دنيوية مادية زائلة)[1].

◄ مناسبتها لما قبلها:

رغم أن سورة الأعراف (مكية) والأنفال (مدنية) إلا أنهما يشتركان في نفس المحور تقريبًا، وهو: (الصراع بين الحق والباطل). فسورة (الأعراف) ركزت على هذا الصراع في (ميدان الحجة والبرهان) والجدل والمناظرة مع التركيز على الأسباب التي أدت إلى (هلاك أهل الباطل) عبر مسيرة التاريخ (الجهاد الدعوي).

وسورة (الأنفال) ركزت على هذا الصراع في (ميدان المعركة) من خلال الحديث عن غزوة بدر (يوم الفرقان) مع التركيز على المقومات المعنوية والمادية التي أدت إلى (نصر أهل الحق) (الجهاد بالسيف). وهكذا تتكامل السورتان لتبرز سنن الله ﷻ في الصراع بين الحق والباطل وما يترتب على ذلك من إظهار الحق وإزهاق الباطل.

(وقد يكون في مجيء هذه السورة وما حملتْهُ من معاني نصرةِ الله تعالى لعباده المؤمنين، وما تحقَّق فيها من نُصرة المؤمنين في بدر، وهم قلَّة بعد (سورة الأعراف) الَّتي ذكرت المعاناةَ الطَّويلة لرحلة الأنبياء مع أقوامهم، واستعجالهم العذاب لَهُمْ، ما يجعل لحمة قويَّة بين السورتين في مجيء النصرِ بعد الصبرِ والعناء)[2].

(1) من إفادات د. سمر الأرناؤوط حفظها الله وبارك في علمها.
(2) موسوعة التفسير البلاغي ج 12/ 686 - 687.

◄ علاقة خاتمة (سورة الأعراف) بفاتحة (سورة الأنفال):

لما ختمت (سورة الأعراف) ببيان أن القرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ثم أمر بالاستماع له وبذكره تعالى، بدأت (سورة الأنفال) ببيان حال المؤمنين عند تلاوته، وحالهم إذا ذكر الله تبارك اسمه بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾. [الأنفال: 2] فالقرآن ركن ركين في الجهاد الدعوي والجهاد في ساحة المعركة.

وهناك مناسبة أخرى لطيفة: لما ختمت (سورة الأعراف) بمشهد خضوع الملائكة لله ﷻ في إجلال وتعظيم، وتسبيح وتقديس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾، جاءت (سورة الأنفال) في بدايتها لتدعو المسلمين الذين اختلفوا في كيفية توزيع الغنائم إلى الخضوع التام لله ﷻ والاستسلام لحكمه.

•• مقاطع السورة:

1 – **المقطع الأول**: الأسباب المباشرة (المادية) للنصر [الآيات: 1 – 19].

2 – **المقطع الثاني**: الأسباب المعنوية (الإيمانية) للنصر [الآيات: 20 – 44].

3 – **المقطع الثالث**: حكم الله في الغنائم [الآيات: 41 – 44].

4 – **المقطع الرابع**: دستور الحرب في الإسلام (فقه الجهاد) [الآيات: 45 – 76].

المقطع الأول: الأسباب المباشرة (المادية) للنصر: [الآيات: 1 – 19].

(بدأت السورة بالحديث عن الأنفال ليكون مطلع الحديث تسجيلاً لنعمة النصر التي ساقت إليهم تلك الأنفال (الغنائم)، وإيحاء إلى أن تلك الأنفال كان يجب أن يكون من بواعث الطاعة لا من بواعث المخالفة، وبواعث الائتلاف لا من بواعث الاختلاف. ثم أرشدتهم إلى ما يجب أن يتحلوا به حتى يحصلوا على الظفر الدائم

والنصر المستمر. وذكرتهم بنعمة الله عليهم في تلك الغزوة من الإمداد بقوى النصر واستجابة الدعاء)[1].

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى 3 محاور:

1 - المحور الأول: حكم الغنائم وبيان أوصاف المؤمنين: (1 - 4):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

بدأت السورة ببيان حكم الله في غنائم بدر، وفي الإجابة عن سؤالهم تربية حكيمة لهم، وهم في أول لقاء لهم مع أعدائهم، حتى يجعلوا جهادهم من أجل إعلاء كلمة الله. (الآية 1) أما الغنائم وأعراض الدنيا التي تأتيهم من وراء جهادهم فعليهم ألا يجعلوها ضمن غايتهم السامية من جهادهم، وأن يفوضوا الأمر فيها لله ورسوله عن إذعان وتسليم[2].

وفي ذلك تنبيه إلى أن الحكمة الإلهية في جعل الحكم في الغنائم موكولًا إلى الله ورسوله هو تنقية الجو من كل ما يؤدي إلى فساد ذات البين بين الإخوة المجاهدين، وحمايتهم من عوامل الشقاق والنزاع، إذ متى كان الحكم في أمر من الأمور صادرًا عن الله ورسوله، فلن يسع المؤمنين أجمعين إلا طاعة حكمها، والائتمار بأمرهما.

(1) تفسير القرآن الكريم ص 400 - 401 بتصرف - الشيخ محمود شلتوت.

(2) (نلمح في أوائل آيات سورة الأنفال لومًا حانيًا وعتابًا خفيفًا تفوح رائحته من معنى الآيات، ولم لا يكون في الآيات عتاب وما من قارىء أوتي فهمًا إلا وينتابه العجب مما حدث، أهل بدر يتكلمون في الغنائم! وهم إما مهاجر ترك كل ما يملك من أجل الإسلام، وإما أنصاري أوى ونصر وقدم الديار والأموال). (الأسلوب الفني في تصوير القرآن لغزوات النبي ﷺ ص 57 - د. عاصم عبد ربه).

ولعلك تسأل عن الحكمة في بدء السورة (بالسؤال عن الأنفال) مع أنه يمثل آخر أحداث المعركة وبعد تحقيق النصر، والجواب كما ذكره الشيخ أمين الدميري:

(إن هذا المطلع البليغ يحمل بشارات الخير، ويزف البشرى والتهنئة بالنصر العزيز، فلغة الكلام قد تغيرت، فبعد أن كان الخطاب قبل «بدر» عن الجوع والخوف والصبر، والاحتمال والاستضعاف في الأرض، تبدل الخطاب فأصبح الكلام عن الغنائم وعن النصر، وتلك إشارة إلى بداية عهد جديد، ومرحلة أخرى من مراحل الدعوة)(1).

ثم عرضت (صفات المؤمنين) الذين دعاهم الله إلى طاعته وطاعة رسوله في شأن هذه الغنائم (وجل القلوب عند ذكر الله - تنمية الإيمان عند تلاوة القرآن - التوكل على الله وحده - إقامة الصلاة - الإنفاق في سبيل الله)، وبشرهم بأعلى الدرجات (2 - 4).

وعرض هذه الصفات يستهدف تطهير النفوس من حب الدنيا، ويقتلع بذور الشح والطمع وحب المادة من قلوبهم، ويصرفهم إلى المثل الأعلى في نصرة الحق والفضيلة.

و (في العدول بهم عن حديث (الأنفال) إلى حديث (الإيمان) إيحاء بما يجب أن يشغلهم، وتنبيه إلى ما يجدر بهم، وفي تعقيب صفات المؤمنين بجزائهم بعد حديث الأنفال طمأنة لهم بأنهم لن يحرموا شيئًا إذا لم تشغلهم الغنائم، فإن لهم إلى جانب المكانة الممتازة عند المنعم عليهم ومتولي أمورهم رزقًا عظيمًا شريفًا لا شائبة فيه، وهو نعيم الجنة)(2).

2 - المحور الثاني: بيان المعركة والتدبير الإلهي: [الآيات 5 - 8]

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ
فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى
ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ
ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

(1) منهج الدعوة الإسلامية في ضوء سورة الأنفال ج 1/ 28.
(2) سورة الأنفال عرض وتفسير ص 85 - د. مصطفى زيد.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(لما ذكر حال المؤمنين مع الأنفال، وتعلقهم بأن يكون لهم حظ ومَغنَمٌ فيها، وما آل إليه أمرهم من تفويض أمر قسمتِها لله ورسوله، شرع يذكر لهم ما لم يكن سائغًا ومرغوبًا في طبائعهم أيضًا من كراهيتهم للخروج لقتال النفير وإيثارهم لغنيمة العير، ثم تبين أن المصلحة والخير والنصر العظيم فيما كرهوه وتجافوا عنه، كذلك شأنهم مع الأنفال إن وقع على خلاف مرادهم في القسمة والتوزيع، فذلك ليجعل الله لهم فيه عاقبة الخير، كما جعلها من قبل. فهذا من ذاك، والله وحده هو الحكيم ذو التدبير)(1).

و (تبدأ الآيات الكريمة في استعراض وقائع الغزوة، فتحكي مشهد اتخاذ القرار في أول مواجهة عسكرية بين الحق والباطل، ثم تسوق الدروس فيما ينبغي من تجرد المؤمن عن موازين الدنيا وأقيستها إذا وضع أمام اختيار الله وتدبيره)(2).

وبينت الآيات أن الحكمة من وراء غزوة بدر ليست تحقيق مكسب رخيص، وإنما هي مقدمة كبرى لانتصار الإسلام على الشرك داخل جزيرة العرب.

3 - المحور الثالث: **الإمدادات الربانية للمسلمين في معركة بدر(تذكير بالنعم الربانية):** [الآيات: 9 - 19].

ثم ساق - سبحانه - بعض مظاهر (تدبيره المحكم) في هذه الغزوة، وبعض النعم التي أنعم بها على المؤمنين، وبعض البشارات التي تقدمت تلك الغزوة أو صاحبتها، ومن هذه النعم:

- الإمداد بالملائكة ليكونوا سندًا قويًا لأهل الإيمان.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 15/ 582.
(2) تفسير سورة الأنفال دراسة تحليلية موضوعية ص 97 بتصرف - د. محمد السيد جبريل.

• نعمة النوم ليلة المعركة ليكون أمانًا لهم، وراحة لأبدانهم. ونعمة نزول المطر عليهم من السماء ليكون طهارة ظاهرية وباطنية لهم، وليكون طمأنينة لقلوبهم، وتثبيتًا لأقدامهم.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

• نعمة تثبيت الملائكة لهم، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين وتوعدهم بالعذاب الأليم. وفي ذلك دعم لأوليائه، ودحر لأعدائه.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وفي هذا التذكير بالنعم الربانية حض للمؤمنين على الاستجابة لله ولرسوله، وعلى مداومة الشكر لخالقهم، فهو – سبحانه – الذى منحهم هذه النعم الجزيلة التي تمكنوا معها من رقاب أعدائهم، وهو الذى جعلهم يغنمون كل هذه الغنائم بعد أن خرجوا من ديارهم بلا مال ولا ظهر ولا عتاد.

وبعد أن بين – سبحانه – بعض (البشارات والنعم) التي ساقها للمؤمنين، وجه نداء إليهم أمرهم فيه (بالثبات في وجوه أعدائهم)، والحذر من الفرار من المعركة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

ثم بين لهم – سبحانه – بعض مظاهر فضله عليهم ليزدادوا شكرًا له، وطاعة لأمره.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وختم ببيان (سنته في خذلان الكافرين وإذلالهم) مؤكدًا أن الكثرة والقوة لا وزن لها ولا قيمة إذا لم يكن الله مع أصحابها بعونه وتأييده.

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

المقطع الثاني: الأسباب المعنوية (الإيمانية) للنصر: [الآيات: 20 – 40]

بعد أن بينت الآيات السابقة (أسباب النصر المباشرة) في ميدان المعركة، شرعت هذه الآيات في بيان (الأسباب غير المباشرة للنصر).

ويمكن تقسيم الآيات إلى محورين:

1 – المحور الأول: توجيهات ربانية إيمانية: [الآيات: 20 – 29]

• **النداء الأول**: دعوة إلى طاعة الله ورسوله ﷺ، والحذر من مشابهة الكفار والمنافقين الذين يتظاهرون بالسمع والطاعة، ويضمرون العصيان والمخالفة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

• **النداء الثاني**: دعوة إلى المبادرة إلى الاستجابة المطلقة لله ورسوله، خاصة في ميدان الجهاد في سبيل الله، فهو سبيل العزة والكرامة، ومفتاح النجاة من الفتن، حيث يتسلط الكفار والظلمة على بلاد المسلمين، وتعلو أحكام الباطل وراية الشرك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٤ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

وقد جمعت الآيتان بين (الترغيب) في العمل الصالح بسرعة ونشاط، وبين (الترهيب) من الغفلة عن طاعة الله، والتراخي في مواجهة الباطل.

• تذكير المؤمنين بفضل الله تعالى عليهم إذ ألبسهم لباس الأمن والعافية بعد أن كانوا قلة مستضعفين تنالهم يد أعدائهم بالضرّ والأذى، فآواهم وأيدهم بنصره ومكّن لهم من عدوهم. فكأنه يقول لهم: لا تخافوا عواقب الجهاد، أي لا تخافوا القتل والأذى إن جاهدتم، فالله الذي بدل خوفكم أمنًا وضعفكم قوة ، قادر على نصركم إن استجبتم لدعوته.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾(1).

• النداء الثالث: تذكير المؤمنين بمسؤوليتهم عن الأمانات التي يحملونها، والتحذير من خيانتها، مبينة بواعث الخيانة الأولى، وهي الافتتان بالمال والأولاد. ولا شك أن (الخيانة) هي الوجه المضاد (للاستجابة).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

• النداء الرابع: الترغيب بالتقوى وبيان فضلها وثوابها، فهي النور الساطع الكشاف لمسيرة المؤمن في درب التكليف، وفي مكابدة مشاق الحياة، وأداء الأمانات الواجبة وفاءً بميثاق الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

2 – **المحور الثاني: من مكايد المشركين (سنن الله في إبطال مكر المجرمين):** [الآيات: 30 – 40].

ولسائل أن يسأل: ما علاقة الحديث عن (مكر المشركين) بما قبله؟

(1) وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى (أهمية الدعوة إلى الله) وإصلاح الفاسدين وهداية الضالين حتى يكثر جمعهم ويصبحوا أصحاب الكلمة في مجتمعهم فقد عرفوا القلّة وما فيها من ذلة وهوان.

لما ذكرت الآية السابقة (أهمية التقوى في الثبات على الحق) ومواجهة عقبات الطريق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، جاءت الآية التالية لتعرض صورة (المثل الكامل في التزام طريق الحق) حيث يتصدّى النبيّ ﷺ – وهو سيد المتقين– لما يسوق إليه المشركون من ألوان البلاء وما يرمونه به من صنوف الإعنات والكيد، فيلقى ذلك صامدًا صابرًا لا يثنيه الإغراء ولا يوهنه الوعيد. وفي الحديث عن مكر المشركين استثارة لحمية المسلمين نصرة لله ﷻ ورسوله ودينه وإخلاص نيتهم في الجهاد في سبيل الله إعلاءً لكلمة الله تعالى.

◄ وما علاقة هذه الآيات بمقومات النصر المعنوية؟

من أهم مقومات (النصر المعنوية) تذكر تجارب الماضي وما فيها من أحداث وعبر لمعرفة (سنن الله ﷻ في الصراع بين الحق والباطل). وهذه الآيات تتحدث عن بعض هذه السنن من خلال النقاط التالية:

- (سنة الله ﷻ في إبطال كيد المجرمين) ومحاولاتهم الإضرار برسول الله ﷺ، وفيها أيضًا تذكير المؤمنين بفترة استضعافهم كي لا يغفلوا عن عدوهم.

﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ .

- (سنة مكر المشركين بآيات الله) وسخريتهم من القرآن، واستعجال العذاب، وهذا يدل على شدة حماقتهم وسوء طويتهم (31 – 32).

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾.

- (سنة إمهال الله ﷻ للمشركين) ورحمته برفع عذاب الاستئصال عنهم. مع بيان بعض الجرائم التي ارتكبها المشركون من استهزاء بتعاليم الإسلام، وسخرية بشعائره وعباداته، والتي تجعلهم مستحقين لعذاب الله.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

• (سنة بوار سعي المشركين) في إنفاق الأموال الطائلة في الصد عن سبيل الله، وما يعقبها من الحسرة والندم. وذلك وفق سننه في تمييز الخبيث من الطيب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

• (سنة الله في التوبة والمغفرة للمشركين) إذا ما انتهوا عن ضلالهم وكفرهم، مع تحذيرهم بالعذاب الشديد إن استمروا على غيّهم ومعاداتهم.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

• (سنة تشريع القتال في الإسلام من أجل إعلاء كلمة الله ﷻ)، ورفع الأذى والفتنة والعدوان عمن يعتنقون دينه وشريعته. وبيان ولاية الله ونصرته لعباده المؤمنين.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾.

المقطع الثالث: حكم الله في الغنائم: الآيات (41 - 44)

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعدما سجلت السورة في مطلعها أن «الأنفال» - وهي هنا المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة بدر - موكول أمرها إلى الله ورسوله، لا إلى تقدير المجاهدين أنفسهم ورأيهم الخاص، وأنها ليست ملكًا مباشرًا لهم بمجرد الغزو والجهاد: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، جاءت هذه الآيات لتعلن حكم الله ورسوله في شأن تلك الأنفال خاصة، وفي شأن غيرها من الغنائم التي يغنمها المسلمون في حروبهم عامة (41) .

ونلاحظ أن هذه الآية الكريمة (تكاد تقسم السورة شطرين متماثلين بينهما كثير من أوجه الشبه والتماثل. فالنصف الأول من السورة يعد مقدمة وذكرًا لمبررات الغزوة وأهدافها، ويعد النصف الثاني نتائج الغزوة، وبيان أحكام التعامل مع معسكر الكفر، كحكم الغنائم والأسرى والموالاة، وبهذا جمعت السورة الكريمة بين أحكام السلم والحرب، وأن الهدف الأساس لهذه السورة الكريمة هو إقرار السلم المسلح)[1].

(1) لمزيد من التفاصيل راجع (منهج الدعوة الإسلامية في ضوء سورة الأنفال ج 2/ 84 - 85) بتصرف - الشيخ أمين الدميري.

وتسوق الآيات (42 – 44) الأدلة من الوقائع ظاهرة وخفية على وجوب الالتزام بحكم الله في الأنفال من خلال التأكيد على (غلبة الإرادة الإلهية وتسييرها لأحداث المعركة)، وذلك من خلال: (اختيار مكان المعركة – رؤية الرسول ﷺ المشركين قلة في منامه – رؤية المسلمين المشركين قلة عند المواجهة – رؤية المشركين المسلمين قلة عند القتال).

◄ أما عن علاقة هذه الآية بما قبلها:

لما ختمت الآية السابقة بتأكيد تأييد الله لعباده ونصره لهم ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾، أكدت الآية التالية أن هذا النصر مشروط بالامتثال لأحكام الله (حكم توزيع الغنائم)، إذ إن التطبيق الصادق لأحكام الله سبب للظفر بولايته وعونه.

المقطع الرابع: دستور الحرب في الإسلام (فقه الجهاد): [الآيات: 45 – 76].

◄ مناسبتها لما قبلها:

(لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة كثيرًا من أنواع نعمه على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين، علم المؤمنين في هذه الآيات أن يكونوا أهلًا لهذه النعم، وذلك بالثبات في موطن الجهاد دفاعًا عن دينه وبالمداومة على ذكره في هذا الموطن –استعانة به– وفي كل موطن، وكذلك بطاعته وطاعة رسوله فيما يأمرهم به عمومًا، وفي مواقف القتال والثبات خصوصًا، ثم بترك التنازع والخلاف ليكون ذلك طريقهم إلى الفلاح)[(1)].

والمتدبر في هذه الآيات يجد صورة واضحة المعالم (للمنهج الإسلامي في تربية المؤمن في مواطن القتال)، مع الإشارة إلى أبرز (أحكام الجهاد وآدابه).

(1) تفسير سورة الأنفال دراسة تحليلية موضوعية ص 265.

ويمكن تقسيم آيات هذا المقطع إلى 6 محاور:

1 - المحور الأول: تلقين المؤمنين آداب المعركة: (45 - 46)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

(الثبات عند لقاء العدو - الإكثار من ذكر الله - طاعة الله ورسوله - الوحدة وعدم التنازع والشقاق - الصبر).

2 - المحور الثاني: التأكيد على (سلامة هدف القتال في سبيل الله): (47 - 49)

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

وذلك من خلال التحذير من التشبه بالكافرين الذين صدهم الشيطان عن السبيل الحق بما زينه لهم من الوعود الكاذبة، والأماني الباطلة. كما أكدت على فساد هدف المنافقين وسخف تفكيرهم وقصر نظرهم.

(فموقف الشيطان وأعوانه في صفوف المشركين، هو مقابل لموقف الملائكة في صفوف المؤمنين، ولكن شتان بين موقف وموقف، فالشيطان يُغرى بالباطل ويمدّ بالضلال ويعين بالأكاذيب، أما الملائكة فقد طلعت على المسلمين بريح القوة، وهبّت بأنسام النصر، فملأت قلوب المسلمين أمنًا وطمأنينة، فثبتت من أقدامهم، وقوت من عزائمهم، وأطمعتهم في عدوّهم، فكان لهم الظفر بعدوّهم)[1].

(1) التفسير القرآني للقرآن ج 5/ 632.

3 – المحور الثالث: سنن الله ﷻ في عقاب المجرمين: (50 – 54)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ
ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

- وصف عقاب الله تعالى لهم في سكرات الموت وخروج أرواحهم بأيدي ملائكة العذاب (50 – 51).
- سنة الله ﷻ في معاقبة العصاة والمتمردين عبر الأمم السابقة (آل فرعون نموذج) (52).
- قانون (تغيير النعم بين المسؤولية الإنسانية والعدالة الإلهية). فالله ﷻ لا يغير نعمة أنعمها عليهم إلا إذا كفروا بأنعمه وتواطؤوا على نصرة الباطل وإبطال الحق (53 – 54).

4 – المحور الرابع: استراتيجيات القتال: (الردع – السلام – الإعداد): [الآيات: 55 – 66]

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ
يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ
خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم
مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ
مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ
لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ

بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ
بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا
النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِۚ وَإِن
يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ
خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِۚ وَإِن
يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعدما تناولت الآيات السابقة (عقوبات الكافرين ومصائرهم)، تأتي هذه الآيات للحديث عن (منهج التعامل مع الكافرين)، وذلك من خلال النقاط التالية:

- (منهج التعامل مع الخائنين الغادرين) عبر التنكيل بهم وتشريدهم من أجل ردع غيرهم من بقية الأعداء، وفيه إشارة إلى اليهود وما يقومون به من خيانة متوالية للعهود، ونقض مستمر للمواثيق. مؤكدًا أن الكافرين لن ينجوا من عقابه (55 – 59).

- الأمر (بإعداد كل ما في إمكانات المسلمين واستطاعتهم من وسائل القوة)، ومن ضمنها الإنفاق في سبيل الله، الكافية لمجابهة أعداء الإسلام. وهذا يتفق مع سياسة الردع في الآية السابقة (60)[1].

- (الجنوح للسلم والصلح القائم على العزة والكرامة) وفق مصلحة المسلمين (61). مع التأكيد على أن (التأييد الإلهي) لا يغيب عن المؤمنين في كلا الظرفين من حرب وسلم. وعلى هذا فلا خوف من عروض السلام ولو أضمر العدو الخيانة. (62) ومن أعظم صور التأييد الإلهي تأييده سبحانه لرسوله ﷺ بالمؤمنين عبر توحيد القلوب المتنافرة المتنازعة، فصاروا إخوانًا متحابين متصافين (63).

---

(1) (والإعداد في الإسلام هدفه إرهاب العدو. وكم أخطأت الأمة في هذه المسألة المهمة، جيوشها استعراضية ترهب أبناءها ولا تواجه عدوًا خارجيًا ولا ترهبه، بل وانقلبت الأدوار فصار أعداؤنا هم الذين يعدّون ما يرهبون به الأمة! وقد آن للأمة أن تعمل بمنهج ربها إن شاءت أن يتحقق لها النصر والعيش بسلام وعزّة ومنَعة). (د. سمر الأرناؤوط).

• (تحريض المؤمنين على القتال) برفع المعنويات القتالية، وهي من مستلزمات (إرهاب العدو)، كما أنها شرط لازم (لفعالية الوحدة) التي تحدثت عنها الآية السابقة (64 – 66).

5 – المحور الخامس: منهج التعامل مع الأسرى: (67 – 71)

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

بعد التشديد من الله تعالى في (قتال المشركين)، والأمر بكمال الاستعداد لمواجهتهم، جاء الحديث عن (حكم التعامل مع الأسرى)، فإن من طبيعة الحروب أن تخلف قتلى وجرحى وأسرى، وفيها عتاب من الله لنبيه ﷺ على فداء الأسرى، (فلقد كان قتل العدو عند الله خيرًا من أسره، ليكون دليلًا على تجريد القتال لذاته ومرضاته، كما كان الزهد في الأنفال خيرًا من التشاحن والجدال فيها)[(1)].

كما تشمل الآيات (استمالة قلوب الأسرى) إذا فتحوا قلوبهم للحق واستجابوا له، أما إذا استمروا في كفرهم وعنادهم فإن الدائرة ستدور عليهم (70 – 71).

المحور السادس: أحكام في الولاء والنصرة: (72 – 75)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ

(1) في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الأنفال ص 361 – د. أحمد مختار البرزة.

ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ
وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

لما استعرضت الآيات السابقة (علاقة المؤمنين بغيرهم) في الحرب والسلم، شرع في ختام السورة ببيان(علاقة المؤمنين بعضهم ببعض) في ظروفهم المختلفة، تلك العلاقة التي تقوم على (رابطة العقيدة والدين)، ولا تقوم على أي رابطة من الروابط المادية، كالقومية والوطنية والإقليمية. وقد جعلت الآيات المؤمنين في 4 أقسام:

1 - **القسم الأول والثاني**: المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى، والأنصار من أهل المدينة. وبينت ما بين هذين الفريقين من ولاية ونصرة (72).

2 - **القسم الثالث**: المؤمنون الذين لم يهاجروا بعد، فهم وإن كانت لهم مزية الإيمان، ولكنهم بمكوثهم في دار الشرك لا تثبت لهم تلك الولاية - أي النصرة والمؤازرة - من طرف الصنفين الأولين حتى يهاجروا، إلا في حالة طلب النصرة في الدين على كفار (محاربين) غير (معاهدين).

وبعد الحديث عن الولاية بين المؤمنين من مهاجرين وأنصار جاءت الآية التالية تذكر (الولاء القائم بين الكافرين على اختلاف نحلهم وألوانهم وأجناسهم)، مُحَذِّرةً المؤمنين من موالاتهم، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ (73).

ثم حَضَّت الآية التالية على (توثيق أواصر الألفة بين المؤمنين)، منوهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، حتى يسلك طريقهم من جاء بعدهم من الأوفياء الأبرار، إذ لا يقاوم تضامن أهل الباطل وتكتلهم، ولا يقضى على آثاره السيئة، إلا بتضامن أهل الحق وتكتلهم صفًا واحدًا (74).

3 - **القسم الرابع**: وهم (المهاجرون المتأخرون إلى المدينة)، وبينت استحقاقهم الموالاة والنصرة، واستحقاقهم الأجر من الله. وختمت السورة بتقرير التوارث بين

المؤمنين الأقارب، ومنع التوارث بين المتآخين بعد الهجرة (75). وهذه الآية الكريمة نسخت ما كان بين المهاجرين والأنصار من التوارث بسبب الهجرة والمؤاخاة.

وانظر كيف بدأت السورة وختمت (بأوصاف المؤمنين) حقًّا:

في البدء: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

وفي الختام: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا... ﴾.

ففي البدء كان الحديث عن صفات المؤمنين (الوجدانية) التي تحافظ على (سلامة القلوب) من التعلق بشهوات الدنيا (الغنائم)، من خلال تقوية صلتهم بالله والإذعان له. وفي الخاتمة كانت صفات المؤمنين (العملية) التي تحافظ على (تماسك الصف المسلم) من عوامل الشقاق والهدم من خلال موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين.

❋ ❋ ❋

سورة التّوبة

موضوع السورة

العلاقات الدولية في الإسلام

تهتم هذه السورة بتنظيم (العلاقات الدولية) بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى، وذلك من خلال إعلان المفاصلة النهائية بين المؤمنين وجميع الطوائف المعارضة، فقد قسمت السورة جميع فئات المجتمع في ذلك الوقت إلى: (مؤمنين سابقين، ومشركين متلاعبين، ومنافقين مخادعين، وأهل كتاب منحرفين).

وجاءت آياتها مدوية ومدمدمة وحاسمة تفضح (المنافقين) وتهتك أستارهم وتلفحهم بسياط التأنيب والتقريع، وتحذر (المشركين) وتتوعدهم، وتجرد (أهل الكتاب) من دعاوى التدين الحق وتعرض انحرافهم وضلالهم، وتلهب حماس (المؤمنين) وترفع همتهم وتبارك سعيهم.

وهذا ما أشار إليه أصحاب موسوعة التفسير البلاغي:

(تدور موضوعات السُّورةِ حولَ غايةٍ مركزيَّةٍ تُحلّق حولها، وتلتئم عليها، وهي ضَبْطُ العلاقة من الولايات والعداوات بين المسلمين والمشركين، وضبط علاقتهم مع غيرهم من الطوائف المنحرفة في أهل الكتاب والمنافقين.

ولكون سورة التّوبة من آخر ما نزل مِنَ القرآن الكريم، فهي سورة تتناول العديد من الموضوعات والمقاصد التي تهم المجتمع المسلم في علاقاته مع الآخرين، فبيّنت السورة المنهاج الذي يجب أن يسلكه المؤمنون في مواجهة الشِّرك والكفر والنفاق، وفي تحقيقِ العزة والتمكين للدين الحقِّ، والسّورة إذْ تَنعقد لهذا الغرض، فهي تبني هذا الضبطَ على أساس الموالاة المتجردة لله ورسوله فقط، وهي تحاكم على هذا المعيار دون تساهل في الميزان به ودون اعتبار غيره من الموازين[1].

(1) ج16/ 555.

وأضافت د. سمر الأرناؤوط:

(وكما عرضت سورة الفاتحة أقسام العالمين الثلاثة من حيث عبوديتهم لله ﷻ.

وعرضت سورة البقرة أصناف الناس من حيث الاهتدء بكتابه - وهي من أوائل السور المدنية التي بدأت بإرساء أركان الدولة المسلمة - تختم السبع الطوال بسورة التوبة - وهي من أواخر ما نزل - لتبين أقسام الناس في المجتمع الداخلي والمجتمعات الخارجية من حيث العداوة للدين، وتضع أسس التعامل معهم بمقتضى الشرع القائم على مبدأ الولاء والبراء ومبدأ العدل الإلهي الذي يستوعب كل الخلق بكل أطيافهم، ويفتح لهم باب التوبة كفرصة أخيرة لا يستثني منهم أحدًا، لعلهم يعودون إلى ربهم لينقذوا أنفسهم من النار)

(وفي تسميتها بالتَّوبةِ مع نزولِها بالبراءَةِ نُكْتةٌ لطيفة، وهي أنَّ البراءةَ المذكورة لا تزولُ عنهم إلَّا بالتوبة، فالتوبةُ عهدٌ مع اللهِ جديد يَهدِمُ ما كانَ قبلَهُ من نكْثِ العهود والعقوباتِ التي استحقُّوها)[1].

◄ مناسبتها لما قبلها:

ركزت سورة (الأنفال) على (الولاء لقيم الإيمان)، وأهميته في تحقيق النصر والتمكين، وجاءت (سورة التوبة) لتعرض الوجه الآخر، وهو (البراءة من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين) الذين يسعون لهدم المجتمع المسلم وتقويض دعائمه ونشر الفساد وإشاعة الفتن.

وهكذا اهتمت هاتان السورتان بتأسيس (عقيدة الولاء والبراء) على أساس قوي راسخ لا يتأثر بالشعارات البراقة، ولا ينخدع بالأقوال المزخرفة.

◄ علاقة خاتمة سورة (الأنفال) بفاتحة سورة (التوبة):

ختمت سورة (الأنفال) بالكشف عن الحدود الفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين، فربطت بين المؤمنين بولاية الإيمان على اختلاف ألوانهم وأوطانهم، كما ربطت بين الكفار بولاية الكفر، وقطعت بذلك ما بين المؤمنين والكفار من موالاة.

---

(1) موسوعة التفسير البلاغي ج 16/ 549.

ثم بدأت سورة (التوبة) بهذا الإعلان العام الذي كان تطبيقًا للأحكام التي تضمنتها الآيات الواردة في آخر (الأنفال) من عزل المؤمنين عن الكافرين، حيث قضى هذا الإعلان ببراءة اللّٰه ورسوله من المشركين ومن العهود المعقودة معهم.

•• مقاطع السورة:

1 – المقطع الأول: تنظيم العلاقات النهائية مع المشركين (براءة وجهاد): [الآيات: 1 – 28]

2 – المقطع الثاني: تنظيم العلاقات مع أهل الكتاب: [الآيات: 29 – 37]

3 – المقطع الثالث: النفير إلى الجهاد والتحذير من التثاقل والنكوص وفضح المنافقين: [الآيات: 38 – 96]

4 – المقطع الرابع: تصنيف المجتمع المسلم: (97 – 110)

5 – المقطع الخامس: الترغيب في الجهاد وبيان فضله: (111 – 127)

6 – خاتمة السورة (دعوة إلى الهداية): (128 – 129)

المقطع الأول: تنظيم العلاقات النهائية مع المشركين (براءة وجهاد): [الآيات 1 – 28]

بدأت السورة بإعلان (قطع العلائق) التي كانت تصل المؤمنين بالمشركين من عهود ومواثيق، وذلك لما أحدثه المشركون من عبث بهذه العهود واستخفاف بها، إذ إنهم كانوا لا يمسكون بها إلا إذا وجدوا في ذلك مصلحة محققة لهم.

ويمكن تقسيم آيات المقطع إلى 3 محاور:

1 – المحور الأول: **أحكام نهائية في مفاصلة المشركين:** (1 – 6)

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ

فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ
يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا
انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا
لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾.

وفي هذه الآيات تتجلى الأحكام التالية:

- تقرير البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أموالهم وأنفسهم، مع إمهالهم لمدة أربعة أشهر لتحديد موقفهم (1 – 2).
- الإعلان العام للبراءة يوم النحر، مع إتمام مدة العهد لمن استقام على عهده (3 – 4).
- بيان مصيرهم بعد انقضاء الأجل أو مدة العهد، وإعطاء الأمان لمن أراد أن يأتي النبي ﷺ حتى يسمع كلام الله (5 – 6).

2 – المحور الثاني: بيان الأسباب التي أوجبت قتال المشركين وتطهير الجزيرة منهم (7 – 16).

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ
فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا
فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا

تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ
أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ
ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤
وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ
أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

وفي هذه الآيات:

- بيان تفصيلي للدوافع الواقعية (التاريخية) والدوافع (النفسية) لهؤلاء المشركين الغادرين (7 – 10).
- فتح باب التوبة للتائبين، وقتال أئمة الكفر المستكبرين المصرين على العناد (11 – 12). وفيه توجيه للأمة المسلمة أنه لا ينبغي لها السكوت عن استمرار الاستكبار والصد عن سبيل الله وحثّها على القتال وعدم الضعف والركون الذي قد يعتبره الأعداء ضعفًا فيزدادون عداوة.
- تحريض المؤمنين بقتال الغادرين المعتدين، مع بيان وعد الله للممتثلين لأمره في القتال، مبينًا لهم أن الجهاد في سبيل الله محك الإيمان وبرهان الصدق (13 – 16).

3 – المحور الثالث: منع المشركين من دخول (المسجد الحرام) وإعلان البراءة منهم ومفاصلتهم في العقيدة: (17 – 28)

◄ مناسبتها لما قبلها:

تنتقل هذه الآيات إلى نوع آخر من معاملة المشركين يمس أقدس العادات والتقاليد التي تتصل (بسيادتهم على المسجد الحرام)، وذلك من خلال النقاط التالية:

- منعهم من شرف عمارة مساجد الله بسبب شركهم، وبيان أن عمارة المساجد عمل شريف يليق بالأصفياء من عباد الله.

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

• نفي التسوية بين عمل السقاية وعمارة المسجد الحرام وأعمال الإيمان والهجرة والجهاد، مع التصريح بتفضيل تلك الأعمال التي تدور عليها رحى الفلاح في الدنيا، والنجاة في الآخرة.

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

• تعريف المؤمنين بأن ولايتهم لله ورسوله ﷺ، وفيه حث المؤمنين - الذين هاجروا وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم - على أن يجردوا أنفسهم لعقيدتهم، وأن يقاطعوا أعداءهم في الدين مهما بلغت درجة قرابتهم منهم، وأن يؤثروا حب الله ورسوله على كل شيء من زينة الحياة الدنيا. (فالنسب الحقيقي هو نسب الدين لا نسب الدم).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

• تذكير المؤمنين بجانب من نعم الله عليهم حيث نصرهم - سبحانه - في (غزوة حنين) بعد أن ولوا مدبرين دون أن تنفعهم كثرتهم وقوتهم (25 - 27).

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفيه إشارة لطيفة - في مناسبتها لما قبلها- وهي أنه (لما كانت هذه المفاصلة حتى مع الأقرب والأعز بالنسبة إلى المرء في الدنيا قد تطرق إلى أذهانهم أنهم سيفقدون بالمعيار البشري قوة يمكن أن يركنوا إليها، ويستفيدوا منها، ذكرهم الله تعالى بيوم حنين القريب، الذي ركنوا للحظة فيه إلى الحسابات المادية الصرفة في قياس نتائج المعركة وتوقع مُخرجاتها، فما كان إلا أن خذلتهم الأسباب وضاقت عليهم الأرض. ولئن كان المؤمنون قد أُمروا في الآيات السابقة بقطع العلاقات المتعارضة مع الإيمان، فإنهم هنا مأمورون باستحضار المعية الكاملة والقدرة الشاملة والتوكل المطلق)[1].

- منع المشركين من قرب المسجد الحرام ودخوله بعد ذلك العام، معللًا هذا المنع بأن المشركين ﴿نَجَسٌ﴾ في معتقداتهم وتصوراتهم القائمة على تعظيم غير الله. ومبشرًا للمؤمنين بأن الله تعالى سيعطيهم من فضله ما يغنيهم عن المشركين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

(1) البيان الأخير - قراءة تحليلية لسورة التوبة ص 82 - 83 بتصرف - د. رأفت المصري.

المقطع الثاني: تنظيم العلاقات مع أهل الكتاب: [الآيات: 29 - 35]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعد أن ذكر الله تعالى (حكم المشركين) في إظهار البراءة من عهودهم وفي وجوب مقاتلتهم وإبعادهم عن المسجد الحرام، أعقبه ببيان حكم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وذلك من خلال النقاط التالية:

1 - الأمر بقتال (أهل الكتاب) الذين كانوا يشكلون خطرًا وشيكًا على أمن المسلمين حتى يخضعوا لسلطان الإسلام بدفع الجزية، مبينة فساد عقيدتهم وزيف تدينهم، وطاعتهم لأحبارهم ورهبانهم طاعة عمياء في التحليل والتحريم والتشريع. (29 - 31).

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾

2 - بيان الدافع المحرك لانحرافاتهم، وهو إرادتهم طمس أنوار الدعوة الربانية، مع تبشير الرسول ﷺ والمؤمنين بظهور الإسلام وانتصاره على بقية الأديان، عن طريق الحجة والبرهان، وعن طريق النفوذ والسلطان (32 - 33).

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾.

3 – فضح الأحبار والرهبان الذين يستنزفون أموال الناس بالباطل من أجل تضليلهم، مع بيان سوء عاقبة كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله (34 – 35).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ .

4 – الكشف عن (تلاعب المشركين بشريعة الله) والعبث بأحكامه من خلال تلاعبهم بالأشهر الحرم تقديمًا وتأخيرًا وترتيبًا وتحريمًا واستحلالًا حسب أهوائهم الفاسدة،

وذلك من خلال التذكير بحرمة الأشهر الحرم، وتحريم القتال فيها صيانة للدماء والأعراض والأموال، وبيان أهمية هذا التحريم وكونه من مقتضيات الالتزام بالإسلام في حياة المسلم.

وهم بذلك (يشابهون ما مارسه أهل الكتاب) في الآيات السابقة (30 – 31) من تحريف وتلاعب بأحكام الله. فناسب أن تجتمع هاتان الصورتان في هذا المقام. (36 – 37)

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

المقطع الثالث: النفير إلى الجهاد والتحذير من التثاقل والنكوص وفضح المنافقين:

[الآيات: 38 – 96]

◄ مناسبتها لما قبلها:

بعدما كشفت الآيات السابقة عن (حقيقة أهل الكتاب)، وأزالت المعوقات والملابسات التي تجعل المسلمين يترددون ويتهيبون في مواجهتهم، جاءت هذه الآيات تستحث المسلمين على مقاتلتهم وتنكر على المترددين ترددهم في الاستجابة لدعوة الله، والنفر إلى الجهاد في سبيله، في غير تراخٍ أو فتور.

وهذه الآيات - كما اتفق المفسرون- تتناول الحديث عن غزوة تبوك وما أحاط بها من ظروف وملابسات، وما لقيه رسول الله ﷺ من عراقيل وعقبات، أثناء استعداده لها وعند خروجه لملاقاة الروم أعداء الإسلام، الذين كانوا يتربصون به الدوائر في الشام.

ويمكن تقسيم هذه الآيات إلى محورين:

1 - المحور الأول: دعوة المؤمنين إلى النفير العام للجهاد في سبيل الله: (38 – 41)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾.

وقد جمعت هذه الآيات بين الاستنكار والتوبيخ، واللوم والعتاب، والتحذير من عواقب التثاقل والنكوص (38 – 39). مؤكدة قدرته سبحانه على نصر رسوله ﷺ كما نصره يوم الهجرة حين لم يكن معه ناصر، وحين انقطعت الأسباب كلها (40).

وفيه إشارة لطيفة إلى أن نصر الله لرسوله ﷺ على أعدائه لا يتوقف على نصرهم إياه، ولا على خروجهم معه، فقد عوده الله النصر، ونصره في مواطِنَ عدة، ولم يكن له من الأتباع في تلك المواطن مثل ما له الآن.

وبعد توجيه اللّوم والعتاب والتّهديد، يأتي هذا الأمر الإلهي للمؤمنين بما يجب عليهم مستقبلًا من (التّعبئة الكاملة) لمواجهة أعدائهم بكل ما تطلبه التّعبئة من الوسائل عددًا وعُدّة، ومن السّير والتّحرّك خفةً وثقلًا، وفق ما تقتضيه ظروف القتال وحجم العدوّ (41).

2 – المحور الثاني: فضح المنافقين وكشف تخاذلهم ومؤامراتهم، وبيان صفاتهم: (42 – 99)

بعد الدعوة السابقة إلى الجهاد بالنفس والأموال، والنفير العام خفافًا وثقالًا، تتبعت الآيات شؤون المنافقين، وأزاحت الستار عن أصنافهم وأوصافهم، وفضحت أساليب نفاقهم وألوان فتنهم وتخذيلهم للمؤمنين.

وذلك من خلال الحديث عن غزوة «تبوك» التي جاءت في توقيت صعب من حيث شدة الجدب، وقلة الثمار، وبعد المسافة، واشتداد الحرارة. وفي ذلك ابتلاء عظيم يكشف عن معدن الإيمان.

وقد كشف هذا الامتحان فعلًا عن أكثر من حقيقة:

□ فهناك (مؤمنون) لا يعرفون غير السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، ولا يؤثرون على ولائهم لله ولرسوله نفسًا أو مالًا أو ولدًا.

□ وهناك (معسرون) يريدون الغزو والجهاد في سبيل الله، ولكن ليس هناك ما يحملون عليه إلى ميدان القتال (البكّاؤون).

□ ثم هناك (أصحاب تعلّات كاذبة) ومعاذير واهية جاءوا إلى الرسول ﷺ بها ليستأذنوا في التخلّف، فأذن لهم النبي أخذًا بظاهر أمرهم، ولكنّ الله سبحانه أخذهم بما أخفوا فلم يقبل لهم عذرًا.

□ وهناك (منافقون) وأشباه منافقين اجتمعوا على الكيد للإسلام وتوهين عزائم المسلمين الذين خفّوا للجهاد.

ونظرًا لطول آيات هذا المحور، فيمكن تقسيمه إلى 3 فقرات:

أولًا: كشف المنافقين ببيان خصالهم المذمومة وسنن الله في معاملتهم: [الآيات: 42 – 66]

وفي هذه الآيات تتجلى أبرز خصال المنافقين السيئة:

1 – اختلاق المعاذير الباطلة، والتوسل بالأيمان الكاذبة لتبرير قعودهم عن الجهاد. مع عتاب رقيق للنبي ﷺ لأنه أذن للمنافقين بالتخلف عن الجهاد حين طلبوا منه ذلك، دون أن يتبين أحوالهم.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

2 – المقارنة بين نهوض المؤمنين الصّادقين إلى الجهاد، وتثاقل المنافقين المرتابين.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

3 – سنة الله في (خذلان المنافقين) من خلال بيان الحكمة من تثبيطهم وترجيح قعودهم نتيجة لمسالكهم الخبيثة ونواياهم الفاسدة في محاربة الدعوة الإسلامية. وعرض نموذج من نماذج الأعذار الواهية التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك، والتي بلغت الغاية في المجون والاستهتار(1).

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

4 – بيان (تربص المنافقين بالمؤمنين) وشماتتهم وفرحهم عند حدوث أي مكروه لهم، مع (تحصين المؤمنين) بما يواجهون به جميع الأحداث والنوازل كيفما كانت، في السراء والضراء، والشدة والرخاء، من الثبات واليقين والإيمان الراسخ. (50 – 52)

في مقابل (إحباط أعمال المنافقين) نتيجة سوء نيتهم وخبث طويتهم (53 – 54).

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾.

(1) من ذلك ما قاله الجد بن قيس جوابًا لرسول الله ﷺ عندما دعاه إلى الخروج مع المسلمين وقال له: (هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر هذا العام) – يريد الروم البيزنطيين– فكان جواب الجد بن قيس: (يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فو الله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن)، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال له: (قد أذنت لك).

5 – نهي الله تعالى المؤمنين – في شخص نبيهم ﷺ – عن التطلع إلى ما في أيدي هؤلاء المنافقين من متاع الدنيا، مبينًا سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة (55).

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾.

6 – بيان ما تنطوي عليه نفوس المنافقين من الخوف والجزع، والرعب والفزع، مما يدفعهم إلى الجبن والهرب من مواجهة المؤمنين (56 – 57).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾.

7 – فضح طبيعة المنافقين الانتفاعية المهيمنة عليهم وما هم عليه من التقلب في المواقف بين السخط والرضا، وسقوط الهمة، والتشغيب الخبيث، والمصلحية الأنانية الساذجة، ولمز الرسول ﷺ في تقسيم الصدقات. مبينًا لهم أن للصدقات مستحقين تحددهم الشريعة (58 – 60).

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

8 – سوء الأدب مع الله ﷻ ورسوله: (62 – 66)

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا

كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

وذلك من خلال:

- الإساءة إلى النبي ﷺ والطعن في أخلاقه بوصفه أنه (أذن) أي يصدق كل ما يسمعه (61).
- التستر بالأيمان الكاذبة التماسًا لرضا المؤمنين حتى لا يفتضح أمرهم (62 – 63).
- الحذر من افتضاح أمرهم بوحي من الله نتيجة لما هم عليه من الكذب والتدليس على المؤمنين، والسخرية والاستهزاء من آيات الله (64 – 66).

ثانيا: التمييز بين المؤمنين والمنافقين ومنهج التعامل معهم: (67 – 80)

وفي هذه الآيات:

1 – عقد مقارنة دقيقة وفاصلة بين المنافقين والمؤمنين، لإزالة أي لبس في شأن معرفتهم، وحتى يسهل تمييز بعضهم عن بعض بالنسبة لجميع الناس، وذلك من خلال:

- تقرير حقيقة المنافقين، وبيان جانب من صفاتهم، والمصير السيء الذى ينتظرهم. (67 – 68)

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

- عرض نماذج لمن حبطت أعمالهم بسبب غرورهم، وضرب الأمثال للمنافقين بمن هلك من الطغاة السابقين بسبب تكذيبهم لأنبيائهم (69 – 70).

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم

بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ
أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴾.

• الحديث عن صفات المؤمنين الصادقين من الإيمان بالله والولاء له والاستجابة لرسوله ﷺ، وبيان ما أعده الله لهم من نعيم مقيم (71 – 72).

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ
مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

2 – أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمجاهدة الكفار بالجهاد الحربي والمنافقين بالإغارة الفكرية على معاقلهم، وفضح ممارستهم، مع بيان فضائحهم ومثالبهم التي يستحقون بسببها التعامل بالغلظة اللائقة بهم، وهي:

(الحلف الكاذب – محاولة إيقاع الأذى بالنبي ﷺ – نقمتهم على أهل الإيمان – خيانة العهود وإخلاف الوعود – الشح والبخل – السخرية والاستهزاء من المؤمنين المتطوعين بالصدقات) (74 – 79).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا
لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ

نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾
ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

3 – بيان حكم الله ﷻ فيهم بعدم المغفرة لهم بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق (80).

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

ثالثًا: المنافقون.. والتخلف عن القيام بواجب الجهاد: (81 – 96)

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟
قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى
ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ
رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾
أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا
ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ
إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾.

تستكمل هذه الآيات الحديث عن المنافقين من خلال عرض مواقفهم من (التخلف عن الجهاد في سبيل الله):

1 – فضح الأعذار المتحلة التي كان يعتذر بها المنافقون عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك (كراهتهم للجهاد بسبب جبنهم وخوفهم من الموت وتعلّقهم بالحياة ومتاعها) (81 – 82).

2 – توجيه للنبي بتحجيم دور المنافقين في الأمر العام وتهميشهم في ساحة التأثير (83)، مع نهيه ﷺ عن الصلاة على ميتهم (84)، وعدم الاغترار بما عند هؤلاء المنافقين من مال وولد (85).

3 – المقارنة بين موقف (المنافقين المتخاذلين) وموقف (المؤمنين المجاهدين) في ساحات الجهاد، وبيان جزاء المؤمنين (86 – 89).

4 – المقارنة بين أصحاب (الأعذار الواهية) في التخلف عن الجهاد، وبين أصحاب (الأعذار المعتبرة) من الضعفاء، ومنهج التعامل مع الفريقين (90 – 96).

المقطع الرابع: تصنيف المجتمع المسلم: (97 – 110)

﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ
ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ
فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ
ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٖ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ
لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ
وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا
بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ
وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ
أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ
أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ
هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ
رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

◄ مناسبتها لما قبلها:

(وإذ قد فرغت السورة من تحديد العلاقات النهائية بين المسلمين من ناحية، والمشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين من ناحية أخرى، فليأت هذا المقطع منها يتولى تصنيف المجتمع المسلم إلى جماعات متنوعة، وهي التي كان المجتمع يتكون منها في

هذه الفترة - إبان غزوة تبوك - ويصور طوائفه، وطبقاته الإيمانية الداخلة في تركيبه العضوي العام، مع تميز كل منها بصفاته، وأعماله)[1].

ويمكن تصنيف المجتمع المسلم إلى الفئات التالية:

1 - (الأعراب) وفيهم المخلصون، والمنافقون، والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان (97 - 99).

2 - (السابقون الأولون) من المهاجرين والأنصار (100).

3 - (المنافقون من أهل المدينة) (101).

4 - المؤمنون المذنبون (خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا)، وقد فتح الله لهم باب التوبة، ودَلَّهم على أبواب الطاعات، من أجل تزكيتهم وتطهيرهم من ذنوبهم، مبينًا لهم ولغيرهم أن العمل هو ميدان إثبات الدعوى لا الأقوال (102 - 105).

5 - قسم آخر من أقسام المتخلفين عن غزوة تبوك (قيل هم الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك) وقبل الله توبتهم لصدقهم (106).

6 - (متآمرون) يتسترون باسم الدين (أصحاب مسجد الضرار). (107 - 110)[2].

---

(1) موقف القرآن من خصومه كما تصوره سورة التوبة ص 539 - الشيخ عمر عبد الرحمن.

(2) نزلت هذه الآية في جماعة من المتخلفين عن تبوك، بنوا مسجدًا غير مسجد قباء، بقصد المضارة وتفريق المؤمنين.

قال المفسّرون: إن بني عمرو بن عوف وهم من الأوس اتّخذوا مسجد قباء، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم فصلّى فيه، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وهم من الخزرج، وقالوا: نبني مسجدًا، ونبعث إلى النّبي ﷺ يأتينا فيصلّي لنا فيه، كما صلّى في مسجد إخواننا، ويصلّي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشّام، فأتوا النّبي ﷺ، وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله، قد بنينا مسجدًا لذي الحاجة، والعلّة، والليلة المطيرة، ونحبّ أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة.

فقال النّبي ﷺ: «إنّي على سفر وحال شغل، فلو قدمنا لآتيناكم، وصلّينا لكم فيه». فلما قَفَل ﷺ من غزوة تبوك، سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه، فدعا بمالك بن الدّخشم ومَعْن بن عدى وعامر بن السكن ووحشي قاتل حمزة، وقال لهم: «انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا المسجِدِ الظَّالِمِ أَهْلُهُ فَاهْدِمُوهُ واحْرِقُوهُ، ففعلوا». (راجع التفسير المنير ج 6 / 43 - 44) بتصرف - د. وهبة الزحيلي.

المقطع الخامس: الترغيب في الجهاد وبيان فضله: (111 - 127)

◄ مناسبة آيات هذا المقطع لما قبله:

(بعد بيان أحوال المنافقين وأحوال المؤمنين المقصّرين في واجبهم الجهاديّ مع رسول الله بخصوص غزوة «تبوك» أعقب الله ذلك (بالترغيب في الجهاد) الذي تثاقل عنه المنافقون)، وذلك من خلال 7 فقرات:

1 - الجهاد في سبيل الله صفقة رابحة وبيعة مباركة: (111 - 112)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وذلك من خلال بيان عقد المؤمنين مع الله تعالى بالجهاد في سبيله بالمال والنفس في مقابل الفوز بالجنة، مشيدًا بصفاتهم الحسنة التي كانوا بها من الفائزين.

2 - العقيدة في الله هي وشيجة الارتباط والتجمع الوحيدة بين المسلمين: (113 - 116)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وهذه الوشيجة هي الأساس الذي تقوم عليه صفات المؤمنين التي ذكرتها الآية السابقة، وهذا يدفع المؤمنين إلى اتقاء موالاة المشركين ولو بالاستغفار لهم أحياءً أو أمواتًا، مع بيان حقيقة استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه. وختمت بتأكيد كمال قدرة الله وكمال علمه، وسعة رحمته. فعلى المؤمنين أن يستجيبوا لأمره، لكي ينالوا رحمته ورضاه.

3 – البشارة لرسول الله ﷺ وصحابته بتوبة الله ورضاه عنهم: (117 – 119)

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

وهذه الآيات مناسبة لما سبقها من النّهي عن الاستغفار للمشركين، إذ جاءت للإشارة بالمؤمنين الأوفياء، وبيان مكانتهم، كما أنها تبرز جانبًا من مظاهر فضله على عباده المؤمنين، حيث تقبل توبتهم، وتجاوز عن زلاتهم.

وفي هذه الآيات ذكر (الثلاثة الذين خلّفوا)[1] وأن الله قد تاب عليهم وعفا عنهم وأنزلهم منازل رضوانه، وجعلهم معلمًا من معالم الثبات مع الحق والولاء له، فأجرى لهم في القرآن الكريم ذكرًا وجعل لهم في العالمين قدرًا، وذلك لأنهم أقاموا أنفسهم على (كلمة الصدق) فلم يكذبوا على رسول اللّه ﷺ، ولم يجيئوا إليه بأعذار ملفقة.

وتنويهًا بصدق الثلاثة الذين خلفوا، والتزامهم للصدق دون انحراف ولا تراجع، دعا المؤمنين إلى الصدق باعتباره سبيل نجاة المؤمنين ومفتاح توبة الله عليهم. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

(1) والمقصود بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع؛ وكلهم من الأنصار.

وقد ذكرت قصتهم في الصحيحين وفي غيرهما من كتب السنة والسيرة. فارجع إليها.

وهكذا يتمّ هذا التّقابل بين فواتح السّورة وخواتمها، بين إعلان البراءة من المشركين وأمر الله لرسوله بالشّدة والغلظة عليهم، وبين هذه الخاتمة المبشرة برضا الله عن رسوله وجماعة المؤمنين الأوفياء.

4 – فضيلة وكرامة صحبة الرسول ﷺ والجهاد معه: (120 – 121)

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وفيها بيان لما يليق بالمؤمنين تجاه نداء رسول الله ﷺ للجهاد وخروجه إليه، وتنبيه على الخسارة الباهظة التي تلحق بالمتخلفين، وتحسير لهم على ما يفوتهم من الجزاء العظيم بالتخلف عنه.

5 – وضع الخطة السّوية في توزيع مسؤولية الجهاد بشقيه: جهاد السّيف والسّنان، وجهاد العلم والبيان.

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

وفي ذلك إقرار منهج التخصص بما يتلاءم مع حاجات الأمة لسد كل الثغرات، لتعزيز الاكتفاء الذاتي وتقليل الاعتماد على الخارج.

فالعلم هو (الجهاد الفكري) الذي يمارسه العلماء[1]، كما يمارس الجند (الجهاد القتالي) في الميدان، وكلا الجهادين من الأهمية بمكان يصعب معه المفاضلة بينهما.

---

(1) (وخص التفقّه في الدين، فهو الضابط الذي يوجّه الجهاد القتالي، ولو تُرك الأمر على الغارب كلٌ يجاهد على هواه وبحسب فهمه لضاعت الأمة، ولكان الضرر فادحًا). (د. سمر الأرناؤوط).

1 - وضع الخطة السّياسية والحربية للمؤمنين تجاه أعدائهم من خلال دعوة المؤمنين إلى قتال الأقرب من أعدائهم بشدة وغلظة (123). (ولعل تخصيص قتال الأقرب من الأعداء يرسل رسالة تحذير لأعداء الخارج، وإرهاب لهم وردع من التفكير بالاعتداء على المسلمين).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.

2 - توجيه الإنذار النهائي للمنافقين المصرين على نفاقهم، والذين يسخرون من آيات القرآن الكريم، ولا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق بهم من فتن واختبارات وابتلاءات، وهم يتسللون من مجالس الرسول ﷺ في لؤم وخسة (124 - 127) .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾

وفيها إشارة إلى أنَّ المنافقين لا يكتفون بعدمِ الاستجابةِ الإيجابيَّةِ، بل يقومون بأفعال سلبيَّة، من أشنعها الاستزادة من الرِّجسِ والكُفر، وفي ذلك زيادة تعجيب من حالِهم، وتبشيع لأقوالِهم، وتقبيح لأفعالِهم.

خاتمة السورة (دعوة إلى الهداية): (128 - 129)

﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

(بعد هذه الجولة الساخنة في الأمر بقتال المشركين وأهل الكتاب وفضح المنافقين والأمر بالإغلاظ عليهم، امتن الله ﷻ على الناس عمومًا لا على المؤمنين وحدهم بإرسال نبيه ﷺ فيهم، وهو منهم، وفيه من الرفق والإشفاق عليهم والحرص على مصلحتهم ما فيه.

وختمت بدعوة الله ﷻ لنبيه إلى أن يفوض أمره إلى خالقه، فهو - سبحانه - كافيه وناصره.

وهذا ختم مناسب للسورة يقابل فاتحتها من حيث إن الفاتحة قد آذنت ببراءة من الله ورسوله إلى المشركين وإعلان للحرب عليهم، فلا أحسن من أن تختم السورة ببيان أن هذا الرسول ما هو إلا رحمة مهداة ونعمة مسداة، لا يفقدها إلا أولئك الأشقياء الذين يَرُدُّون النعمة ويُعادون الإحسان، ويعلنون الحرب على من امتلأ قلبه بالإشفاق عليهم، واحتمل مصاعب ردهم عن النار)[1].

وعن سر ختم السورة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إشارة لطيفة، ذكرها أصحاب موسوعة التفسير البلاغي:

(وهذا الختمُ مناسبٌ للبدء بالبراءة من المشركين، فإنَّ الله ذا العرش العظيم هو الذي تبرَّأ ممَّن أشرك به، وأعرض عنه، وحارب دينَه، ففيه تهويلٌ لأمر الشرك، ووعيدٌ للمشركين، فهي من رد آخر السورة على أوّلِها، فلمّا تبرَّأ منهم في البداية، أثبت سبب ذلك في الخاتمة، فكيف يكون لربّ العرش العظيم ند من خلْقِه؟ وكيف يكون له مناوئٌ من عبادِه؟)[2].

❊ ❊ ❊

(1) البيان الأخير قراءة تحليلية لسورة التوبة ص370.
(2) ج18/ 608.

أهم المراجع

1 – التفسير القرآني للقرآن – د. عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي مصر.

2 – التيسير في أحاديث التفسير – الشيخ محمد المكي الناصري – دار الغرب الإسلامي بيروت.

3 – التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم – إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف د. مصطفى مسلم – ط جامعة الشارقة.

4 – التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم – الشيخ عبد الحميد طهماز – دار القلم بيروت.

5 – نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم – الشيخ محمد الغزالي – دار الشروق مصر.

6 – التفسير التوحيدي – د. حسن الترابي – دار الساقي بيروت.

7 – التفسير الوسيط للقرآن الكريم – الشيخ محمد سيد طنطاوي – مطبعة السعادة بالقاهرة.

8 – أولى ما قيل في تفسير آيات التنزيل – الشيخ رشيد الموصلي – دار أروقة الأردن.

9 – مجالس النور – د. محمد عياش الكبيسي – دار نشر جامعة قطر.

10 – موسوعة التفسير البلاغي للقرآن الكريم – نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة – منشورات القاسمي الشارقة.

11 – نفحات الرحمن في رياض القرآن – الشيخ محمد بن إبراهيم كعباش – جمعية النهضة للنشر بالجزائر.

12 – من روائع التفسير للإمام محمد عبد الله دراز – الشيخ أحمد مصطفى فضلية– مفكرون للنشر مصر.

13 –جواهر التفسير – الشيخ أحمد الخليلي – دار الكلمة الطيبة سلطنة عمان.

14 – البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران – د. محمد عناية الله أسد سبحاني– دار عمار الأردن.

15 – مجالس القرآن – د. فريد الأنصاري– دار السلام مصر.

16 – الوحدة الموضوعية لسور القرآن الكريم الفاتحة والبقرة – د. بلال طلب – دار الإمام الرازي للنشر مصر.

17 – دستور الاستخلاف قراءة تحليلية لسورة البقرة – د. رأفت المصري – مؤسسة مدارج الأردن.

18 – تفسير القرآن الكريم – الشيخ عبد الكريم الحمداوي– موقع المؤلف alhamdawi.com.

19 – دراسات قرآنية – محمد قطب – دار الشروق مصر.

20 – تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) – الشيخ محمود شلتوت – دار الشروق مصر.

21 – خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة – د. إبراهيم الكيلاني – جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن.

22 – تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم – د. محمد إبراهيم شادي– المكتبة الخيرية مصر.

23 – تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام – د. إبراهيم زيد الكيلاني– دار عمار الأردن.

24 – تفسير سورة الأنفال دراسة تحليلية موضوعية – د. محمد السيد جبريل – مكتبة الإيمان.

25 – الفتوحات الربانية في الربط بين السور القرآنية – أحمد عبد اللطيف بدر– مطبعة دار التأليف مصر.

26 – نظرات في كتاب الله – زينب الغزالي – دار الشروق مصر.

27 – منهج الدعوة الإسلامية في ضوء سورة الأنفال – الشيخ أمين الدميري – دار الفكر العربي مصر.

صدر للمؤلف

1 – متاع الغرور – دار طيبة حلوان (2010)، وصدرت منه طبعة ثالثة(2013).

2 – رمضان.. واهًا لريح الجنة – دار طيبة حلوان (2010).

3 – قلب موصول بالله– دار طيبة حلوان (2011)، وصدر منه أربع طبعات.

4 – وربك فكبر(آية الكرسي سياحة في رحاب الكمال والجلال) – دار طيبة حلوان (2012) – بتقديم الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي رحمه الله.

5 – هكذا علمني رمضان– دار طيبة حلوان (2013).

6 – علمتني المحن – دار البشير (2017).

7 – جنة الإيمان – دار اللؤلؤة (2022) بتقديم د. محمد علي يوسف.

8 – من هدايات جزء عم – دار البشير (2022) قدم له الأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي.

9 – من هدايات جزء تبارك – دار البشير (2022).

10 – فذكر بالقرآن (آيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة) – دار البشير (2023).

11 – الترابط الموضوعي في سور القرآن الكريم (من سورة يونس إلى سورة العنكبوت) – دار الشروق الكويت (2024).

12 – شارك ببحثين ضمن موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم بعنوان (الحياة في القرآن)، و(الخوف في القرآن)، والموسوعة صدرت في 36 مجلد في عام 2019.

❋ ❋ ❋

فهرس الكتاب

المقدمة 7
أهمية دراسة الترابط الموضوعي للسورة القرآنية 11
موضوعات سور العشر الأول (الفاتحة – التوبة) 13
سورة الفاتحة 16
سورة البقرة 26
سورة آل عمران 93
سورة النساء 135
سورة المائدة 178
سورة الأنعام 208
سورة الأعراف 239
سورة الأنفال 273
سورة التوبة 292
أهم المراجع 317
صدر للمؤلف 319
فهرس الكتاب 320

❊ ❊ ❊